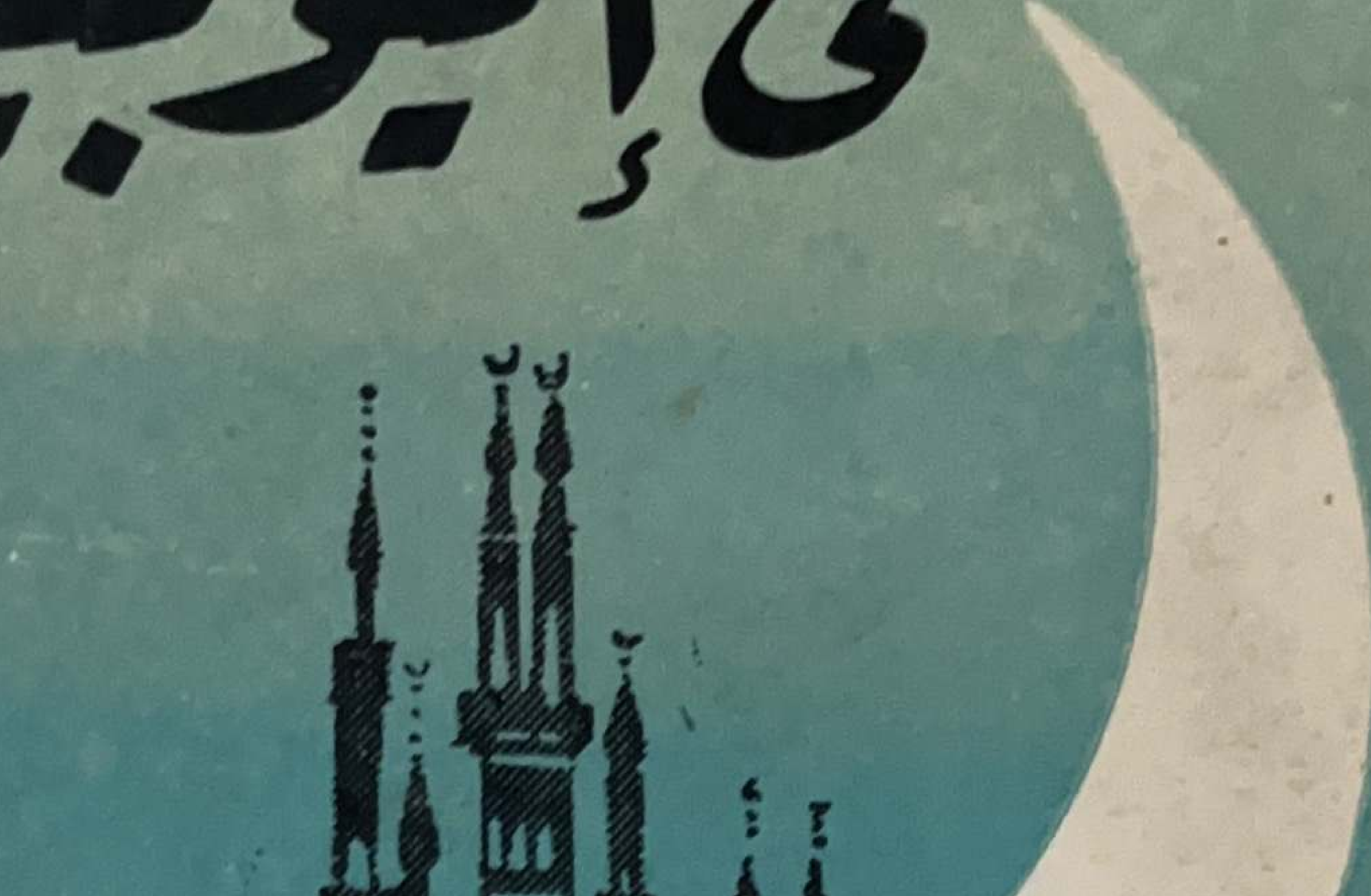
الدكتور زاهر رياض

الإسلام فى إتيوبيا



دار المعرفة

الاسلام فى اثيوبيا

فى العصور الوسطى

« مع الاهتمام بوجه خاص بعلاقة المسلمين بالمسيحيين »

تأليف

دكتور زاهر رياض

معهد الدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة

الناشر

دار المعرفة

شركة ذات مسئولية محدودة

١٥ شارع صبرى أبو علم بالقاهرة

تليفون ٥٨٥٠٥ - سجل تجارى ٩٩٠٦٨

الطبعة الأولى – ١٩٦٤

دار الحمامى للطباعة
شارع الجيش – ٢ كنيسة الأرمن

مقدمة

سافرت إلى اتيوبيا مرتين . كانت الأولى سنة ١٩٣٤ حينما انتدبت لتدريس مادة التاريخ بالمدارس الثانوية للحكومة الاتيوبية وهناك علمت أن ما يدرس فى هذه المدارس هو تاريخ أوروبا وأن أى قدر من العناية لم يوجه مطلقاً إلى دراسة تاريخ البلاد نفسها فوجدت فى نفسى الرغبة أن أبدأ أنا بهذا العمل لحرام أن يعطى هؤلاء الطلبة تاريخ بلاد تبعد عنهم آلاف الأميال لا تشترك معهم فى رباط أو لغة أو وشاج آخر من أوشجة الصلة والقرابة بينما هم محرومون من معرفة تاريخهم القومى . فبدأت فى جمع المراجع التى تعيننى على غرضى وأخذت أكون مادة تصلح للتدريس فى جملة فصول متدرجة لطلبة ليس لديهم أية فكرة عن تاريخ بلادهم سوى مجموعة من الخرافات حظها من الخيال أكثر من حظها من الحقيقة . فلم أجد إلا كتابين أحدهما انجليزى والآخر فرنسى فاتخذتهما أساساً لعملى وجعلت أتقدم على قدر ما تسمح به الظروف ،وأعاننى على ذلك عدم

وجود برامج محددة للتدريس بموجبها فى المدارس الحكومية آنذاك حيث كان يترك للمدرس حرية اختيار المادة التى يقدمها للطلبة على أن يقوم باختبارهم فيها آخر العام دون تدخل قليل أو كثير من (وزارة المعارف والفنون الجميلة).

ووجدت نفسى كلما قرأت فى هذا التاريخ مأخوذاً بفقرات كثيرة منه ،تبينت نقصاً فى طريقة كتابتها مما يجعلها جديرة بإعادة بحثها ولكنى لم أستطع أن أفعل أكثر من ذلك لقلة الكتب والمكتبات وصعوبة الحياة فى البلاد مما صرفنى عن أن أزيد عن هذا المجهود شيئاً . وذلك طول مدة إقامتى الأولى هناك وهى تنحصر بين سنتى ١٩٣٤ ، ١٩٣٧ حين انتهت بانتهاء اتيوبيا المستقلة ووقوعها فريسة للاحتلال الإيطالى ولا أستطيع أن أغفل أننى أثناء إقامتى أخذت فى تعلم اللغة الأمهرية كى أستطيع أن أتفاهم إلى حد ما مع من يحيط بى فاستطعت أن أجيد الكلام بها إلى حد ليس باليسير.

ورغم وجودى فى مصر فإن صلتى باتيوبيا منذ سنة ١٩٣٧ لم تنقطع بل ظللت أتتبع ما ينشر من أخبارها بين الحين والحين .

وفى سنة ١٩٤٢ انتدبتنى وزارة (المعارف) للسفر إلى اتيوبيا المرة الثانية ضمن بعثة لها هناك تقوم بالتدريس فى مدارسها الثانوية أيضاً فعولت على أن أكمل ما فاتنى فى المرة الأولى فأخذت قبل السفر فى استعادة ما كنت قد أهملته من الدراسات وما كنت قد نسيته من اللغة الأمهرية التى تعلمتها فى المرة الأولى ولم أكد أصل إلى أديس أبابا فى أبريل عام ١٩٤٣ حتى سنحت لى فرصة أتعلم فيها اللغة الأمهرية كتابة وقراءة فانتهزتها . والحق إنى وجدت من الدكتور مراد كامل رئيس البعثة كل معاونة فى تعلم هذه اللغة فكثيراً ما كان ينتابنى السأم فانصرف عن هذه الدراسة مصمماً على عدم الرجوع إليها فكان يستحثنى على العمل ويهون على كل الصعوبات ،كما كان هو نفسه مثلا يحتذى فى الدأب على العمل والإقبال عليه .

وقد اتصلت أثناء إقامتى فى المرتين بكثير من سكان البلاد مسيحيين ومسلمين فكان مما أثار دهشتى جهل الجميع بتاريخ بلادهم . فالمسيحيون لا يعرفون إلا أشتاتاً يسيرة لا تعدو قصة زيارة ملكة سبأ إلى سليمان ملك بيت المقدس محوطة بكثير من الخرافات . وقصة هزيمتهم للإيطاليين فى

موقعة عدوة قبل مستهل القرن العشرين . أما المسلمون فلم تكن معرفتهم تعدو قصة حروب الإمام أحمد بن إبراهيم وانتصاره ونجاحه فى تكوين دولة مسلمة فى اتيوبيا عاشت أكثر من اثنى عشر عاماً وأنهم ما زالوا يجترون هذا الحلم ويتحسرون عليه . وقد أوجدت هذه الحالة شبه قطيعة بين المسلمين والمسيحيين فكان ذلك كله دافعاً إلى أن أطيل البحث وأعمل جاهداً لنشر التاريخ الصحيح وإعطاء الطلبة صورة صادقة منه على قدر الإمكان .

ومنذ هذا اليوم جعلت أداوم القراءة والبحث فى تاريخ اتيوبيا فبدا لى — فى أغلب مواضعه — رغم كثرة الحروب منسجماً متمشياً مع طبيعة البلاد وعادات أهلها إلا فترة يسيرة هى فترة محاولة الإمام أحمد بن إبراهيم إقامة دولة إسلامية فى البلاد فكلما داومت قراءتها بدت لى نافرة غير منسجمة مع تاريخ اتيوبيا كله فهو ملىء بالغارات التى يشنها الأمراء على ملوكهم فى سبيل طرح السيادة والتمتع بنوع من الاستقلال ولم يكن اتحاد الدين أو اختلافه بين الأمراء وبعضهم أو بين الأمراء والملك داعياً إلى الاتحاد أو الثورة . فما بال العامل الدينى قد ظهر فى ثورة هذا الإمام هذا الظهور الواضح وما

بال المسيحيين والمسلمين قد انقلبوا وحوشاً كاسرة تمعن فى بعضها نهشاً وسفكا للدماء .

هذا إلى أن قصة هذا الإمام قد استغلتها السياسة بعد ذلك استغلالا كبيراً . وقصة هذا الاستغلال تنحصر فى أن إيطاليا طمعت فى الاستيلاء على اتيوبيا عام ١٩٣٥ فأخذت تختلق الحجج حتى استطاعت أن تقوم بحملة حربية فى نفس السنة تكتسح البلاد من طرفيها الشمالى والجنوبى لتقضى على استقلال هذه المملكة المستقلة فى مايو سنة ١٩٣٦ .

ولكى تخلق لنفسها أنصاراً وأعواناً فى هذه البلاد المفتوحة جعلت تنشر على المسلمين من أهل البلاد معلومات تجذبهم بها إلى ناحيتها وجعلت تنشر لهم قصة الإمام أحمد بن إبراهيم على أنها عهد ذهبى للمسلمين فى اتيوبيا وأنها أتت لتعيد إلى هؤلاء المضطهدين مجدهم الغابر .

وفى الحق أن العلماء الإيطاليين لم يقضوا فترة احتلالهم لاتيوبيا عبثاً فقد أخذوا فى بحث هذه البلاد من جميع نواحيها ونشروا فى ذلك أبحاثاً شيقة عميقة . ولم يكن هذا الاهتمام الأول من نوعه من هؤلاء العلماء باتيوبيا فقد اهتموا بهذا

الركن من العالم وكتبوا عنها كتباً كثيرة منذ احتلالهم لميناء مصوع فى أواخر القرن التاسع عشر بل قبل ذلك ، فرأيت من واجبى أن أطلع على ما كتب هؤلاء العلماء فأخذت فى دراسة اللغة الإيطالية وكنت قد بدأت الكلام بها .

ورأيت أن دراستى لن تتم إلا إذا قرنت بزيارة الأماكن التى كانت مسرحاً لهذه الرواية فبدأت جملة من الرحلات فى شرق البلاد وجنوبها الشرق والغربى كما اتصلت بكثيرين من كبار مسلميها ثم بدأت بعد ذلك فى رسم خطوط البحث .

وكان أساس البحث الأول كتابان :

1 — Budge, Sir W.; History of Ethiopia. Lond. 1928.

2 — Coulbeaux; Histoire Politique et Religieuse de L' Ethiopie.

ويمتاز الأول باتساع مادته وكثرة الوثائق الجعزية التى أتى بها المؤلف وترجمتها ترجمة دقيقة إلا أنه فى نفس الوقت لم يعرضها عرضاً تاريخياً منظماً . أما الثانى فكان اهتمام المؤلف واضحاً بالناحية الدينية أكثر من اهتمامه بأى ناحية أخرى ولا عجب فى ذلك فالمؤلف راهب كاثوليكى

ولكن نظرة واحدة إلى هذا الكتاب تظهر بجلاء أن المؤلف متحمس متحيز إلى حد ظاهر مما يقلل من قيمته كمؤلف تاريخى إذ ينتهز كل فرصة للحط من الكنيسة الشرقية عامة والمصرية خاصة . فهو يرميها بكل منقصه ولا يكاد يقف على هنة بسيطة لأحد رجال الدين المصريين حتى ينسى موضوع الكتاب فيكتب الصفحة والصفحتين مندفعاً فى حماس للتنديد بمساوىء المصريين ورجال دينهم ومبادىء كنيستهم بلهجة لا أثر للتحفظ فيها فكان ذلك داعياً لى إلى أن أضع أمام عينى حقيقتين لا أتحول عنهما مطلقاً . الأولى أن أعرض الحوادث عرضاً تاريخياً منظماً والثانية أن أكون منصفاً فى كتابتى ما أمكن لا تطغى على عاطفة ما فى أى ناحية من النواحى ،

وأخذت منذ ذلك الوقت فى جمع المادة التاريخية حتى إذا عدت إلى مصر عام ١٩٤٥ واصلت دراستى وبحثى إلى أن انتهيت إلى هذا الكتاب الذى بين أيدينا .

والكتاب كما يظهر من اسمه يعالج موضوع دخول الإسلام إلى اتيوبيا وانتشاره فيها خلال العصور الوسطى

وهى الفترة التى تنحصر بين ظهور الإسلام فى القرن السادس والقرن السادس عشر حينما بدأت مظاهر العصور الحديثة تظهر فى البلاد .

ومعلومات المؤرخين عن هذا الموضوع تبدأ عند ظهور الولايات الإسلامية على ساحل اتيوبيا الشرقى فى القرن العاشر وخضوعها للإمبراطور ثم حروبها معه، وكثير منهم يعتبر هـــذه الحروب دليلا على سوء العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى هذه البلاد. ولكن الواقع يخالف ذلك أو على الأقل يخالف ما يبدو من ظاهرها . فالعلاقة لم تكن على الدرجة من السوء التى صورها المؤرخون فلم تكن الثورات التى قامت فيها والمعارك التى دارت إلا حروباً عادية فى تاريخ اتيوبيا كما أنها كانت مناوشات يقوم بها خارجون عن القانون ضد الإمبراطور وضد سلاطينهم المسلمين وأنها كانت ترجع إلى أسباب أبعد ما تكون عن الدين وهى وإن اتسمت بالحروب الدينية فى بعض أطوارها فلم يكن ذلك إلا لمدة بسيطة لا تتجاوز الاثنتى عشرة سنة كما أنها كانت تحت تأثير عوامل خارجية . والشىء الآخر هو أمر هذه الدولة التى قامت فى الجزء الأوسط من اتيوبيا فيما بين القرنين الثالث

والسابع الهجرى (العاشر والثالث عشر الميلادى) والتى كان المؤرخون يجهلونها كل الجهل حتى عثر المستشرق تشيرولى فى سنة ١٩٢٦ على وثيقة كتبها مؤرخ مجهول تؤرخ الخمسين سنة الأخيرة من حياة هذه الدولة فنشرها فى سنة ١٩٣٦ فى مجلة الدراسات الاثيوبية فأتيت على نصها وتناولت بالتعليق ما يتفق مع موضوع الرسالة .

وهذه الحروب الدينية وإن كانت لم تنشب فى اتيوبيا إلا لفترة يسيرة بالقياس إلى تاريخ البلاد الطويل إلا أنها كانت ذات أثر عظيم فى تاريخها إذ أنها جلبت إلى البلاد عوامل جديدة أخذت تؤثر فى حياة الشعب تأثيرات إيجابية وتطبعه بطابع مخالف لما كانت عليه حياة الشعب قبلها مما جعلنى أعتقد أن هذه الحروب قد نقلت البلاد إلى العصر الحديث من تاريخها .

وفى سنة ١٩٥٢ ظهر كتاب :

Spencer Trimingham, Islam in Ethiopia.

وهو أحد أجزاء سلسلة أظهرها المؤلف عن (الإسلام فى أفريقيا) .

وقد وقع مؤلف هذا الكتاب فى جملة أخطاء وقع فيها من قبله من الذين كتبوا فى هذا الموضوع ولم تتح له الفرصة لتصحيحها .

وكان أبرز ما فى هذا الكتاب من أخطاء ما ذكره فى القسم الثانى من الكتاب وعنوانه (الصراع بين المسيحية والإسلام). فقد أورد بعض الحوادث التاريخية على غير وجهها الصحيح كما جانب المنطق فى استنتاج بعض النتائج من مقدماتها .

ويبدو أن السبب فى هذا فكرة خاطئة عنده كما هى عند معظم من كتب فى تاريخ اتيوبيا من الكتاب الأوروبيين . منشأها عدم فهمهم النظام الاجتماعى الاتيوبى اذ خلطوا بينه وبين النظام الاقطاعى الأوروبى لتشابههما فى بعض مظاهرهما مما أدى إلى عدم تفهمهم الوضع الصحيح لبعض الحوادث التاريخية .

ولن أحاول هنا أن أظهر هذه الأخطاء تفصيلا أو بعضها ولكن تكفى قراءة ما وقع من الحقائق التاريخية فى هذا الكتاب على وجهها الصحيح لتفهم ما فى الكتاب الأول من بعد عن الحقيقة .

ويكفى هنا أن أقول إن المؤلف قد ذكر فى صفحة ٥٥ من كتابه إن العلاقة بين الكنيسة والدولة كانت فى الواقع إقطاعية ولم أستطع أن أتبين تماماً ماذا يقصد بهذه الكلمة الأخيرة . فإذا كان قد قصد بأن المطران كان رئيساً لمقاطعة وهبها إياه الإمبراطور فهذا خطأ إذ المعروف إن اتيوبيا لم تعرف النظام الإقطاعى قط . فإذا كان بعض الملوك أو الأمراء قد خضعوا لملك الملوك (نجوس نجست) فهم لم يفعلوا ذلك لأنهم أخذوا إقطاعاتهم هبة من الملك ، نظير الهدايا السنوية . والنجدة عند الحرب على نحو ما يقضى النظام الإقطاعى فى الغرب . ولكنهم خضعوا للملك خضوعاً تعاقدياً بصفتهم ملوكا مستقلين لأجزاء ورثوا عروشها عن آباءهم ولا يملك ملك الملوك أو الإمبراطور عزلهم عنها . وأصبحت العلاقة بينهما تجرى وفق شروط تعاقدوا عليها فإذا خرج الملك عن شروط هذا العقد جاز لملك الملوك إخضاعه بالقوة التى قد تؤدى إلى قتله ولكنه لا يملك عزله عن العرش كما لا يملك منع وريثه من ارتقاء عرش سلفه .

ولعلنا نجد صورة من هذه الحال فى الاتفاق الذى عقده

يكونو أملاك أول ملوك الأسرة السليمانية فى القرن الثالث عشر مع نكويتا لآب آخر ملوك الأسرة الأجوية حين كان القديس تكلاهيمانوت واسطة هذا العقد .

فقد نص هذا العقد على خضوع الملك نكويتا لآب ملك لاستا لسلطة ملك الملوك يكونو أملاك على أن يكون له ملك لاستا وأن يحتفظ بطبول من فضة وأن تكون رماح حرابه من الفضة أيضاً .

وهذا هو وجه الهدف من وضع هذا الكتاب

وعلى الله التوفيق ؟ .

دكتور زاهر رياض

نوفمبر سنة ١٩٦٢

الباب الأول

الهجرة الأولى فى الإسلام وبدء اتصال المسلمين بأثيوبيا

جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة فوجد فيها العرب هدماً لما ألفوه من معتقدات وخروجاً عما اعتادوا أن يعبدوه. ولكن هذا لا يقاس بما وجده أغنياء قريش من تقويض لسلطانهم ومنصرف عن لذاتهم التى اعتادوها فناصبوه العداء وأجمعوا على محاربته والقضاء على دعوته فبدأوا به واتهموه بمختلف التهم وكانوا لا يستطيعون معه أكثر من ذلك فقد كان سيداً من سادات بنى هاشم عرف بينهم بالعفة والأمانة كما كان عمه أبو طالب يقف دونه ويمنع الناس أن يقربوه بسوء .

ولكنهم وإن لم يستطيعوا أن يقربوه فقد رأوا أن يوجهوا اضطهادهم إلى أنصاره عامة وإلى المستضعفين منهم خاصة لاسيما واليهم الذين بادروا إلى تأييد هذه الدعوة الجديدة

واعتاقها بعد أن وجدوا فيها مخرجاً لهم من ذل الأسر ورفعا بهم إلى مرتبة لا تقل عن مرتبة أسيادهم ووعدا لهم بحسن المثوبة والجزاء فوثبت كل قبيلة على المستضعفين من أفرادها ومواليها فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة ليفتنوهم عن دينهم .

كان أمية بن خلف الجمحى يطرح بلال بن رباح الحبشى مولى عبد الله بن جدعان على الرمضاء ويجعل على كتفيه رحا ويقول له اكفر بمحمد وبما جاء به وهو يرفض ويوحد الله تعالى ويقول (أحد أحد) . كما كان يعطيه للولدان فيربطونه بحجر ويطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول (أحد أحد) مازجاً مرارة العذاب بحرارة الإيمان وما زال يقاسى العذاب ألواناً حتى اشتراه أبو بكر واعتقه [١] .

وكان أبو الحكم بن هشام المخزومى الذى كناه المسلمون بأبى جهل أشد أهل قريش إمعاناً فى تعذيب المسلمين كى يفتنهم عن دينهم فقد ظل يعذب عمار بن ياسر وأباه وأمه حتى يسبوا محمد ويكفروا به فاغلظت أم عمار له القول

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٤

فطعنها بحربة فى يده فماتت فكانت أول شهيدة فى الإسلام .
أما عمار فظل أبو جهل يعذبه حتى سب محمداً وقال فى اللات والعزى فتركه . فسار عمار حتى أتى محمداً وهو يبكى فسأله (ما وراءك يا عمار فقال شر يا رسول الله . إن القوم ما تركونى حتى نلت منك ما نلت، وذكرت آلهتهم بخير فقال له وكيف تجد قلبك قال مطمئناً بالإيمان فنزلت الآية — إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان —) [١] .

أما غير المستضعفين والسادة فكان الرجل منهم لا يلبث أن يعترف بإسلامه حتى يجد من أهله عنتاً أى عنت وعذاباً أى عذاب، فقد منع سعيد بن العاص بن أمية القوت عن ولده خالد حتى ناله من ذلك ضرر بليغ ، ولقى عامر بن مالك بن أهيب بن عبد مناف الشهير بابن أبى وقاص من أمه حمنه بنت سفيان بن أمية ما لم يلقه أحد من قريش ، ولقى مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشى من أهله من سوء المعاملة كثيراً حتى صار لا يجد ما يلبس إلا بردة مقطوعة ، ومات شهيداً فى أحد ولم يترك إلا ثوباً إذا غطوا به رأسه

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٥

ظهرت رجلاه وإذا غطوا رجليه ظهرت رأسه ، وهو ابن النعمة الذى كان رسول الله يقول فيه (ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير) (١) .

ولم يقف هذا الاضطهاد عند حد الرجال بل تعداه إلى النساء أيضاً فما كانت تدخل قلوب قريش رحمة بأحد فى سبيل أن يفتنوا المسلمين عن دينهم فقد عذبت أم عمار حتى قتلت ، وكان عمر بن الخطاب قبل إسلامه يعذب لبينة جارية بنى مؤمل بن حبيب بن عدى بن كعب بربطها على الرمضاء وإلقاء الأحجار الساخنة عليها ثم يطلقها وهو يقول (أنا لم أدعك إلى سآمة) .

ولم يسلم أحد من المسلمين من هذا العنت والاضطهاد حتى النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان عمه أبو لهب عظيم التكذيب له دائم الأذى (٢) فكان يطرح العذرة والنتن على بابه — وكان جاره — فكان يقول أى جوار هذا يا بنى

---

(١) الجواهر الحسان ص ٢٤٣

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٥

عبد المطلب . وكان الأسود بن يغوث بن وهب بن عبد مناف وهو ابن خال النبي إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه — هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى — أما كلمت اليوم من السماء يا محمد — وكان أبو قيس بن الفاكة يعين أبا جهل على أذى الرسول .

فلما رأى الرسول عليه السلام ذلك رق قلبه لأنصاره وخاف عليهم أن يفتنوا ، فأشار عليهم أن يفروا بإيمانهم ويهاجروا إلى بلاد (الحبشة) فإن بها ملكا (لا يظلم عنده أحد . وهى أرض صدق حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه) (١) فخرج من استطاع ذلك سراً من مكة يقصد البحر ليبحر منها إلى (الحبشة) فخرج فى أول الأمر أحد عشر رجلا وقيل اثنا عشر . أربعة منهم متزوجون وقيل خمسة بنسائهم وعلى رأس هؤلاء عثمان بن عفان وزوجته أم كلثوم ابنة رسول الله عليه السلام ، وفق الله لهم ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيها لقاء نصف دينار وكان خروجهم فى رجب من السنة الخامسة للدعوة . وبعد قليل تنبهت قريش إلى

---

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٢٩

خروجهم فخرجت جماعة منهم فى أثرهم حتى جاءوا إلى حيث ركبوا البحر فلم يدركوا منهم أحداً .

ولم يكن هؤلاء الخمسة عشر إلا طليعة الموكب إذ تتابع المسلمون بعد ذلك حتى اكتمل منهم عدد ليس باليسير . وهم وإن ابتعدوا بأجسامهم فقد كانت قلوبهم مع نبيهم حيث مكث هو وأنصاره يقاسون ما يقاسون ويعملون جادين لنشر دعوتهم ، إذ لم يلبثوا أن جاءهم بعد ذلك من يخبرهم أن قريشاً قد آمنت ودخلت فى الإسلام ، فركبوا البحر مسرعين إلى أوطانهم وإخوانهم وكان ذلك أثر حادثة الغرانيق فلما اقتربوا من مكة عرفوا حقيقة الخبر فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفياً (١) وأقاموا بمكة وقد علموا أن أسباب هجرتهم لاتزال قائمة فرجعوا مهاجرين هجرتهم الثانية ولحقهم عدد كبير هرب بدينه خوف الفتنة وجعلوا يتتابعون حتى اكتملوا مائة وعشرين منهم ثلاثة وثمانون رجلا وست وعشرون امرأة واثنا عشر ولداً وعلى رأس المهاجرين هذه المرة عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية ابنة أخرى

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٢٤

لرسول الله عليه السلام إذ كانت زوجته الأولى أم كلثوم قد ماتت فزوجه رسول الله ابنته الثانية وأن أسماء هؤلاء المهاجرين لتكفى لتدلنا على :

١ — إن الإسلام أخذ ينتشر فى جميع القبائل فقد كان من هؤلاء الأسدى ومنهم السهمى والفهرى والهاشمى والتيمى والجمحى والأموى والمخزومى والعامرى .

٢ — إن مكة باجتماع كل هذه القبائل فيها كانت تمثيل المجتمع العربى خير تمثيل فكانت بوتقة تنصهر فيها كل هذه البطون وكل هذه القبائل تحت تأثير مؤثرات اجتماعية واحدة .

٣ — إن تعاليم الإسلام أخذت تتغلغل فى قلوب المسلمين وتؤثر فيهم وتطبعهم بطابعها الجديد وهو طابع الوحدة فقد نسى المهاجرون جميعاً قبائلهم وعصبيتهم القديمة ولم يعودوا يعبأون إلا بهذه الرابطة الجديدة التى هى رابطة الإسلام التى وحدتهم وجعلتهم (سواسية كأسنان المشط) .

وكان هؤلاء المهاجرون من جميع الطبقات فقد كان منهم الموالى الذين ذاقوا الاضطهاد والتعذيب ألواناً ، وكان منهم الأوساط الذين عرفوا أن سأتيهم الاضطهاد يوماً والذين فضلوا التضحية بأقواتهم فى سبيل دينهم ، كما كان منهم الأغنياء ذوو الحسب واليسار وأغلب الظن أن هؤلاء الأخيرين نصحهم النبي بالهجرة مع الآخرين كى يشعر هؤلاء بالمساواة ويعرفوا أن غنى الأغنياء لا يمنع عنهم النصب وذل الاغتراب فى سبيل الدين . وبذلك طبق مبدأ من مبادىء الإسلام وهو المساواة تطبيقاً عملياً فشعر كل امرىء خصوصاً المستضعفون والفقراء وأن مبادىء هذا الدين وافكاره مبادىء وافكار عملية جائزة التطبيق .

ومن الطبيعى ان يكون غير المتزوجين اغلبية المهاجرين فهم اقدر على الهجرة وانشط إليها فكان منهم سبعون رجلا مات منهم واحد فى الطريق إذ نهشته حية قبل ان يدخل ارض الحبشة وهو خالد بن خويلد بن هشام القرشى الأسدى اما المتزوجون فأقلية لم يزد عددهم عن ثلاثة وعشرين استصحبوا نساءهم وعاد بعضهم بعد قليل ومعهم عثمان بن عفان وزوجته ، اما من بقى من المتزوجين فقد ولد لهم هناك

خمسة عشر ولداً وخمس بنات وكان بين المهاجرين أيضاً اثنتان ابكارهما آمنة بنت قيس وزينب بنت جحش ، وخادمة هى أم أيمن خادمة النبي التى سافرت مع سيدتها رقية بنت رسول الله . ومات من المهاجرين باتيوبيا ستة هم خطاب ابن الحرث وأخوه حاطب وخالد بن حزام وعدى بن نضلة وعمرو بن أمية بن الحارث وعبد الله بن الحارث بن قيس وتنصر منهم واحد ومكث هناك حتى مات على دين النصرانية هو عبيد الله بن جحش ، ومن المهاجرات تزوج النبي بعد ذلك خمساً هن أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها ومات ، وحفصة زوجة حنيش بن حذافة ، وسودة زوجة السكران بن عمرو ، وهند أم سلمة زوجة عبد الله بن عبد الأسد ، بعد أن مات أزواجهن فى مناسبات مختلفة ، وزينب بنت جحش بعد أن طلقت من زوجها زيد بن حارثة .

كانت اتيوبيا فى ذلك الوقت اسماً يطلق على هذا الجزء من افريقية المواجه لجزيرة العرب على الساحل الغربى للبحر الأحمر الذى يحده البحر الأحمر من جهة الشرق وممالك النوبة المسيحية من الشمال والغرب وقد أطلق عليها العرب اسم السودان والهضبة الاستوائية من

الجنوب . وأغلب هـــذه البلاد – إذا استثنينا الجزء الصحراوى الشرقى – يزيد تسعون فى المائة منه على الستة آلاف قدم يفصلها عن بعضها البعض سلاسل من القمم العالية بمثابة حواجز صعبة التغلب عليها بين هذه الهضاب المتجاورة .

ويحيط بهذه الهضبة العالية صحارى جرداء منخفضة كانت بمثابة حصن طبيعى لها،فعاش أهلها فى جزائرهم الأرضية تعوق الجبال العالية اتصالهم ببعضهم فلم تدرك اتيوبيا معنى الوحدة السياسية الكبيرة وأصبحت وحداتهم السياسية صغيرة لا تتعدى المقاطعة الواحدة التى تحدها السلاسل الجبلية العالية من جميع الجهات كما عاش أهل الهضبة جميعها فى فترات كثيرة من تاريخهم بعيدين عن العالم الخارجى لا يحاول أحد الاتصال بهم إلا إذا كان اتصالا ذا منفعة لهم ، فكانت اتيوبيا اسماً جغرافياً فحسب يضم أشتاتاً من ممالك صغيرة يعيش كل منها فى حالة سياسية واجتماعية وفكرية قد تخالف بعضها البعض مخالفة تامة (١) .

---

(١) ومناخ هذه الهضبة معتدل صيفاً وشتاءاً إلا فى فصل المطر =

وقام التنافس بين هذه الأقاليم أو بين هذه الممالك على السيادة أولا وعلى طرق التجارة ثانياً ، فلا غرابة إذا قامت الحروب المتوالية بين بعض هذه الممالك وبعضها الآخر . وتمكن القوى منها من التغلب على الضعيف وسلبه أسواقه ، فكان نفوذ بعض هذه الممالك يمتد وينكمش تبعاً لقوتها أو ضعفها ، ولكن هذا الامتداد أو هذا الانكماش لا يستمر إلا ريثما تستطيع هـــذه المملكة أن تحافظ على قوتها وسلطانها أو تستطيع المستضعفة أن تطرح عنها نفوذ الأخرى لتأخذ بالثأر ، فعاشت البلاد وهى تعانى هذا الانقسام الذى ظهرت آثاره فى كل مظهر من مظاهر حياتهم فظلت أجناسهم مختلفة كما اختلفت عاداتهم ودياناتهم اختلافاً بيناً

= الذى يبدأ فى النصف الثانى من يونيو وينتهى فى النصف الأخير من سبتمبر وفى هذه الفترة تفتح ميازيب السماء فيتغير سطح الأرض تماماً ولا يبدأ هذا الفصل إلا ويكون الأهالى قد جمعوا مؤونتهم فى مساكنهم وهيأوا أرضهم للحرث والبذر واستكنوا فى قراهم لا يزورون ولا يزارون حتى ينتهى المطر فاذا ابتدأ شهر أكتوبر وجف سطح الأرض خرجوا بأغنامهم ومواشيهم لرعيها وأصلحوا من حال أرضهم استعداداً لجمع محصولاتها كما بدأوا يستعدون لحل منتجاتهم إلى غيرهم من البلاد فتبدأ قوافلهم فى شق طريقها بين هذه الممالك الصغيرة التى تحتضنها الهضبة وإلى العالم الخارجى .

إلى أن كان القرن الرابع خين أخذت المسيحية تنتشر بين بين شعوب ممالك الشمالية .

واصل سكان هذه الهضبة غير معروف تماما وأغلب الظن أنهم مهاجرون مستضعفون كغيرهم من سكان الهضاب اتخذوا هذه البلاد الجبلية ملجأ لهم وكانوا يدفعون بعضهم بعضا نحو الغرب فاستطاع القوى منهم أن يسكن الجهات الأكثر اعتدالا فى المناخ والأكثر ثروة واستطاع هذا القوى أن يقيم حكومة نجحت فى بعض الأحيان فى بسط نفوذها على غيرها من الأجزاء . ومن المرجح أن يكون هؤلاء المهاجرون من الساميون الذين كانوا فى جنوب غرب الجزيرة العربية فعبر فرع منهم البحر الأحمر قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة على ماتروى أساطيرهم وأتى إلى هذه البلاد واستوطن بعضهم الجزء الشمالى من الهضبة واستوطن البعض الآخر السواحل الغربية للبحر الأحمر واتصلوا بالسكان الأصليين الذين كانوا من الأفريقيين والكوشيين واكتسبوا منهم بعض خصائصهم .

وأقرب هذه الولايات جميعا إلى البحر وأكثرها ملائمة فى المناخ والثروة هى الولاية الشمالية وهى ولاية تجرى الحالية

وهى التى اقتطع الإيطاليون بعضها وأطلقوا عليه اسم أرتريا كما هى أقربها إلى العالم المتحضر القديم الذى قام على سواحل البحر المتوسط وأشدها تأثرا به فكانت لها السيادة وإلى ملوكها تنسب قصة زيارة ملكتها ماكيدا للملك لسليمان ملك بيت المقدس فى القرن العاشر قبل الميلاد وهى التى تطلق عليها اسم ملكة سبأ فهذه القصة وإن شك فيها كثير من المؤرخين تؤكد سيادة هذه المنطقة وتفوقها على بقية أجزاء الهضبة وثغرها عدول أو أدوليس هو أكثر الأسماء تداولا وشهرة وأغلب الظن أن هذه هى الولاية التى أعطاها مركزها الجغرافى مكان السيادة فاكتسبت اسم أتيوبيا أو الحبشة كما عرفها العرب والتى أطلق المؤرخون العرب على ملوكها اسم النجاشى الذى هو تحريف لكلمة بحر نجش أى حاكم البحر وهو الإسم الذى حمله حاكم هذه الولاية البحرية .

وكانت أتيوبيا تتاجر مع البلاد المجاورة لها ، فقوافلهم تسير نحو مصر منذ القديم ، أحيانا عن طريق البحر الأحمر ويؤيد هذا الرأى محاولة كثير من الفراعنة شق قناة بين النيل والبحر الأحمر لنقل التجارة إلى داخل البلاد ، وأحيانا كان طريق التجارة يسير برا موازيا لساحل البحر الأحمر الغربى

وكانت مصر تشترى منها ما يلزمها من الأخشاب والبخور لمعابدها .

وكانت تتاجر أيضا مع الدولة الرومانية الشرقية عن طريقين كذلك ، يسير أولها فى البحر الأحمر صوب مصر ثم تنتقل السلع عبر البلاد السورية إلى آسيا الصغرى ، وثانيهما طريق بحرى برى . عن طريق موانى البحر الأحمر إلى اليمن والحجاز حيث تنقلها قوافل العرب عبر شبه الجزيرة إلى سوريا فآسيا الصغرى .

وكانت بلاد فارس أيضا إحدى البلاد التى تتاجر معها اتيوبيا عن طريق يمين لحضرموت ثم تسلك التجارة طريقا يمتد موازيا للساحل الغربى للخليج الفارسى إلى بلاد العراق وما وراءها .

وفى كل هذه الحالات كانت موانى أتيوبيا على البحر الأحمر هى المخرج الطبيعى لتجارتها . وفى سبيل تأمين هذه التجارة والطرق التى تسلكها غزت أتيوبيا بلاد اليمن وبسطت عليها سلطتها قبيل البعثة النبوية وإذا كان اضطهاد ذى نواس لمسيحي نجران وطلب هؤلاء المسيحيين النجدة

من امبراطور الدولة الرومانية الشرقية ثم من ملك أتيوبيا هو السبب الأكبر لغزو أتيوبيا لهذه البلاد ، فقد يكون السببان الدينى وهو نجدة المسيحيين والاقتصادى وهو بسط السلطة على الطرق التجارية قد سارا جنبا إلى جنب فى قيام هذه الحملة ونجاحها .

وعندما رأت أتيوبيا أن نفوذها قد استقر فى اليمن واستتب لها الأمر فيها ، حاولت أكمال خطتها وجعل كل الطريق تحت نفوذها المباشر فحاولت أيام جبرا ماسقال الأول (٥٥٠ — ٥٧٠) بقيادة أبرهة الأشرم عامله على اليمن غزو مكة إلا أن مانزل بالجيوش الأتيوبية من مرض أحبط خطتها وقضى على جنودها وجعلها ترتد من حيث بدأت .

وكانت هناك دولة فارس ترقب هذا الفوز بعين الحذر فانتهزت فرصة ارتداد الجيوش الأتيوبية من مكة إلى اليمن ، فجهز ملكها خسرو الثانى جيشا عدته ثمانمائة مقاتل وسيرته لطرد الأتيوبيين من اليمن ، حتى إذا وصل إليها رحب بها أهلها وانضموا إليه فهزموا الأتيوبيين وأخرجوهم من بلادهم وعاد الجيش الفارسى من حيث أتى بعد أن نصب على البلاد

سيف بن ذى يزن على أن يدفع لملك الفرس جزية سنوية وظلت اليمن فارسية إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم حين أسلم واليها باذان على أثر ما دار بينه وبين الرسول من مخاطبات ، وتبع التجار الفارسيون الجيش الفارسى إلى اليمن ثم إلى أثيوبيا حيث كانوا عاملا مهما فى تقدم التجارة فى كلا البلدين .

ولكن لم اختار النبى عليه السلام أتيوبيا دون غيرها من بلاد الأرض لتكون ملجأ للمضطهد لأنصاره حتى يأذن الله لهم بفرج قريب ؟

يقول النبي صلى الله عليه وسلم (لو خرجتم إلى أرض (الحبشة) فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه) فعدل ملك أتيوبيا المعاصر هو السبب الأول لتفكير النبى عليه السلام فى أتيوبيا لتكون ملجأ لأنصاره ، وتفسير العدل هنا ليس مجرد العدل لذاته بل هو عدم تعصب الملك لفريق دون فريق أو لمذهب دون مذهب أو لديانة دون ديانة .

وتقول المصادر العربية ان ملك اتيوبيا كان يسمى

الأصحم أو أصحمه، وهو إسم لا نجده فى كبرانجست الذى يحوى أسماء ملوكهم مما يدعونا إلى الاعتقاد أن الذى استقبل المسلمين وأكرمهم ومنحهم حمايته لم يكن غير البحر نجش أى حاكم الولاية الأتيوبية البحرية .

أما أن ملك (الحبشة) لا يظلم عنده أحد فهذا حق، فنظرة عاجلة إلى تاريخ أتيوبيا الدينى ترينا أن هذه البلاد لم تعرف العصبية الدينية مطلقا ، فكما اختلفت شعوبها فى عادتها وتقاليدها اختلفت أيضا فى دياناتها ومعبوداتها وطقوسها . فقد دخلتها اليهودية من الشمال فى عصور غير معروفة وإن كانت الأساطير الحبشية تعزوها إلى زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس فى القرن العاشر قبل الميلاد (لتتعلم الحكمة عنه) فاعتنقت هذه الملكة الديانة اليهودية وعادت إلى قومها لتعلمهم إياها وتدعوهم إلى اعتناقها دون ما أكراه فعاشت اليهودية وأنواع الوثنية السابقة لها جنبا إلى جنب دون ماحرج ، وخلفها على العرش ابنها منليك الأول الذى ولدته من سليمان وتاق إلى زيارة أبيه ورؤيته ففرح به هذا وأرسل معه عند عودته إلى بلاده أربعين ابنا لأربعين رجلا من رجال مملكته ليساعدوا ولده على تنظيم مملكته وفقا

للقواعد والنظم التى وجدها فى مملكة أبيه ، وقد احتال منليك حتى استطاع بمعونة رجاله الأربعين أن يسرق تابوت العهد من بيت المقدس ليحمله معه ويحفظه فى عاصمته أكسوم ، وتزيد هذه الأساطير أن منليك عكف بعد عودته من زيارة أبيه على تنظيم مملكته على مثال مملكة أبيه كما شرع القوانين على أساس القوانين الموسوية ولكنه فى نفس الوقت لم يرغم أحدا على اعتناق الدين الجديد. وإذا كانت الأساطير الأتيوبية تصور لنا منليك الأول ملكا شهما عادلا شجاعا استطاع أن يحارب خصومه ويساجلهم ويتغلب عليهم فى حروب متتابعة طويلة إلا أنها لم تصوره لنا بطلا دينيا يحاول أن يرغم شعبه أو شعوب الممالك المجاورة على اعتناق الدين الجديد الذى أتت به والدته من بيت المقدس .

وإذا جاء دور المسيحية . أخذت تدخل هذا الجزء من العالم فى القرن الرابع على يد التاجر المصرى فرومنتيوس [١] كتب عيزانا ملك أكسوم إلى البطريرك المصرى فى الاسكندرية يرجوه رسامة مطران لأتيوبيا كما يرجوه إرسال عدد من رجال الدين إلى مملكته لتعليم رجالهم مبادىء

(١) Budge vol I p. 147

هذا الدين الجديد وطقوسه . فتبعت الكنيسة الأتيوبية الكنيسة المصرية من ذلك الوقت وأخذت المسيحية تنتشر تدريجيا بين سكان المملكة وغيرها من ممالك الهضبة الاتيوبية انتشارا هادئا بطيئا على يد قساوسة من المصريين والأتيوبيين دون أى تدخل من الدولة لإرغام أحد من الناس على اعتناق دين أو مذهب معين . وكما عاشت اليهودية جنبا إلى جنب حتى القرن الرابع الميلادى عاشت هذه الديانات ومعها المسيحية أيضا جنبا إلى جنب والناس أحرار فى اعتناق ما يشاءون .

فالمتتبع إذن لتاريخ أتيوبيا منذ أقدم العصور حتى القرن الرابع عشر الميلادى لا يجد مكانا للعداوة الدينية وما يتبعها من جدل دينى وحروب دينية تقوم على أساس فرض ديانة بعينها أو إرغام فريق من الناس على اعتناق أو ترك أى مذهب من المذاهب وهذا هو ما عناه النبى عليه السلام بقوله إن ملك (الحبشة) ملك (لا يظلم عنده أحد) ولكن من أين عرف النبى ذلك ؟

أرى أن هذه المعرفة ترجع إلى مصادر ثلاثة وهى : —

أولا : من كان بمكة من اتيوبيين . فجميع المصادر تجمع على أن العلاقات بين أتيوبيا والحجاز فى ذلك الوقت كانت وثيقة مستمرة وعاش بمكة كثير من التجار الأتيوبيين الذين استطاعوا أن يؤسسوا تجارة ناجحة وكان النبى عليه السلام فى شبابه عازفا عن معاشرة لداته من العرب ومشاركتهم فيما هم فيه من لهو ومتعة، بل كان يعاشر أهل الكتاب ويسمع منهم ويتعلم . فهل نستبعد أن يكون النبى عليه السلام قد اختلط بمن اختلط بهم من الكتابيين أتيوبيين عرف منهم أمر أتيوبيا وحالها ؟ هذا ! إلى أن إستمرار العلاقات بين أتيوبيا والحجاز وسرعتها حملت إلى تلك البلاد أنباء الدعوة الجديدة فأتى منهم كثيرون يبحثون عن هذا النبى الجديد ليسمعوا منه ويؤمنوا به .

روى البيهقى عن ابن اسحق قال : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا أو قريب من ذلك من نصارى أتيوبيا وهو بمكة وذلك حينما بلغهم خبره فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وتكلموا معه وسألوه عما عنده من المسائل . ورجال من أكابر قريش فى أنديتهم حول الكعبة. فلما عرفوا من سؤالهم رسول الله عما أرادوا دعاهم النبى

إلى الإيمان بالله تعالى وحده وتلى عليهم شيئاً من القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم بالدمع ثم استجابوا لله تعالى وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ماكان يوصف لهم فى كتابهم من أمره فلما قاموا من عنده تعرض لهم أبو جهل فى نفر من كفار قريش الذين كانوا جالسين حول الكعبة وناظرين لما وقع منهم . وقالوا خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسهم عنده حتى تركتم دينكم وصدقتوه . ما نعلم ركبا احمق منكم فقالوا لهم سلام عليكم لا نجادلكم . لكم أعمالكم ولنا اعمالنا » (١) .

فزيارة هذا الوفد كانت — كما يتبين لنا من القصة — إبان اشتداد المعركة بين المسلمين وقريش التى كانت تنزل بأنصار النبى عليه السلام كل اضطهاد وتعذيب فلا يستبعد إذن أن تكون هناك مفاوضات قد دارت بين النبى عليه السلام وأنصاره من جهة وبين أفراد هذا الوفد وامثاله من جهة اخرى عرف فيها النبى عليه السلام حال اتيوبيا ولمس حسن إستعداد اهلها وعاهلها لمقابلة المسلمين والترحيب بهم.

---

(١) الجواهر الحسن ص ١٤٧ .

ثانياً : من كان بمكة من الموالى فقلما كان يخلو بيت عربى من عبد اتيوبى وكان فى بيت عبد المطلب جد النبى عليه السلام واحدة هى أم أيمن وقد اختلط النبى بهؤلاء الموالى كثيراً وآمن بدعوته كثيرون، وقد أمدتنا المصادر الإسلامية بأسماء كثيرين من الموالى الذين عاشوا فى بيوت قريش كما كان معظم جنود مكة المرتزقة من الإتيوبيين المعروفين بالتفانى فى الخدمة ، وكان تجار العرب يستعينون بهم بكثرة فى حروبهم القبلية وفى حراسة قوافلهم وكان يطلق عليهم اسم العسكر تمييزاً لهم عن العرب الوطنيين، وكان رئيسهم فى العادة عربياً يطلق عليه اسم السيد وإليه يرجع فخر الإنتصار فى المعارك التى يخوضونها ، وكانوا يحملون العنزة أو الحربة وهى السلاح المفضل لديهم وقد اختلط هؤلاء الإتيوبيون بالعرب وتزوجوا منهم وأنتجوا نسلا عرف بين العرب بسواد بشرته وشجاعته وأطلق عليه العرب اسم غربان العرب ، واشتهر من هؤلاء قبيل الإسلام عنترة العبسى (١) فليس من المستبعد أن يكون النبى عليه السلام قد وقف منهم

---

(١) Rossini I. P. 515

على الحالة فى اتيوبيا وعرف أنها تصلح أن تكون مأوى المضطهدين من أنصاره .

ثالثاً : أما المصدر الثالث فشخصية اتيوبية أثرت فى حياة النبى عليه السلام تأثيراً مباشراً كبيراً وإن لم يعن بها المؤرخون من هذه الناحية هى شخصية أم أيمن التى يقول فيها النبى (أم أيمن أمى بعد أمى) .

وتجهل المصادر كل شىء عن أم أيمن قبل أن تكون جارية لعبد الله بن عبد المطلب وكل ما نعلمه أنها عاشت فى بيته منذ زواجه وشهدت مولد النبى عليه السلام بعد وفاة أبيه، ثم أرادت آمنة أمه أن تزور اخوالها فى يثرب فصحبتها أم أيمن فى الطريق حتى إذا ماتت قبل أن تعود إلى مكة أصبحت أم أيمن أماً للصبى بعد أمه فصحبته إلى دار جده عبد المطلب ثم عمه أبى طالب تخدمه وتعتنى به فما دامت قد صحبت النبى وأمه إلى يثرب فلا بد أنها لم تكن صغيرة السن .

وكان عبد المطلب كثير الأولاد فليس هناك من عناية خاصة بمحمد بن عبد الله إلا عناية أم أيمن وكان أبو طالب

أيضاً كثير الأولاد ضيق الرزق ، فأم أيمن إذن هى التى تلازم الصبى وتعتنى به وتضفى عليه حنانها وعنايتها حتى شب عن الطوق فهى إذن ملازمته الوحيدة المؤثرة عليه تأثير الأم على ولدها فلا نستبعد أيضاً أن تكون هذه السيدة الإتيوبية قد وعت كثيراً من أخبار وطنها لتلقنه إلى هذا الصبى إذا ما سكن إليها ليلا أو جلس إليها نهاراً لتقص عليه ما يألفه جميع الصبيان من قصص تؤثر فيهم وتطبعهم بطابعها. ولا بد أنها كانت كثيرة الحدب والعطف عليه مما جعله يحبها ويركن إليها حتى إذا كبر وأدرك ما كانت توليه من عناية قال لأصحابه (أم أيمن أمى بعد أمى) . وما كان يعرفه النبى عليه السلام من كلمات (حبشية) يدخلها فى بعض الأحايين فى كلامه ليدلنا على تأثير أم أيمن عليه كما يدلنا على أن هذه السيدة لم تكن صغيرة السن يوم جاءت إلى جزيرة العرب وإلا كانت قد نسيت لغتها .

فإذا نزل بالنبى عليه السلام وأصحابه ما كانت تمطرهم به قريش من اضطهاد وتعذيب تذكر ما كانت ترويه له أم أيمن من أخبار وطنها وإضافه إلى ما عرفه من الموالى الإتيوبيين وزاد عليه ما عرفه من تجارهم وقساوسهم الذين اختلط بهم

بمكة فيما سبق من حياته فنصح أصحابه بالهجرة إلى اتيوبيا حتى تمر هذه العاصفة .

ومن الطبيعى أن ينصح النبى أنصاره بالهجرة إلى اتيوبيا دون غيرها فهى عدوة العرب عامة ومكة واليمن خاصة منذ حاولت غزو الأولى عام الفيل فهزمت ومنذ ساعدت الثانية جيوش الفرس لطردهم منها فمنذ هـــذا اليوم وحالة عدم الصداقة قائمة بينهما فشعر النبى أنه قد يكون فى حاجة إلى قوة تسنده ضد هؤلاء الطغاة المستبدين ولن يجد هذه القوة إلا فى اتيوبيا .

خرج المهاجرون من مكة فى رجب سنة خمس من النبوة وهى السنة الثانية من إظهار الدعوة وكانوا كما مر بنا اثنى عشر رجلا وقيل احد عشر واربع نساء وقيل خمس وفق الله لهم سفينتين للتجار حملوهم إلى أرض (الحبشة) إلى بلدة معدد الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر ثم ساروا إلى بلدة فى تجرى تعرف الآن بأحمد نجاشى .

وتبع هؤلاء كثير من المضطهدين فراراً بدينهم من تعذيب قريش التى سرعان ما تنبهت إلى ما تحدثه هذه الهجرة

من أثر فقد تعطف عليهم قلوباً خارج شبه الجزيرة كما قد توجه نظر النبي إلى الهجرة عامة وإلى اتيوبيا خاصة التى قد يتخذها ملجأ له ولأنصاره فأرسلت فى أثرهم جماعة يحاولون ردهم عما ينوون فلم يدركوهم

وإن هذا الإضطهاد من قريش لمعتنق الدين الجديد وفرار المضطهدين منهم ليذكرنا بظهور المسيحية فى الشرق واضطهاد الدولة الرومانية لمعتنقيها وفى كلتا الحالتين نجد ذوى اليسار والسلطان يخافون على سلطتهم ونفوذهم اللذين أخذا فى الضعف بين الفقراء والمستضعفين فيسرعون إلى اضطهادهم ليفتنوهم عن دينهم ولكن المسلمين قابلوا الاضطهاد بغير ما قابله المسيحيون فبينما عمد المسيحيون إلى الإستخفاء فى مدنهم وإقامة شعائرهم الدينية فى السراديب وخارج المدن لجأ المسلمون إلى الهجرة فراراً بدينهم فأدى اختلاف الوسيلتين إلى اختلاف النتيجة فبينما ابطأت المسيحية فى الإنتشار واخذت اكثر من قرنين او ثلاثة للظهور بشكل محسوس بين الشعوب لم يأخذ الإسلام اكثر من ثلاثين سنة ليغمر شبه الجزيرة العربية وما حاربوها ومن هنا ندرك لماذا تنبهت قريش إلى المهاجرين الأولين

وحاولت منعهم إذ أنها خافت أن يخرج المسلمون بدينهم خارج شبه الجزيرة (١) فيعرفه غيرهم وفعلا حدث هذا بينما ظلت أخبار النصرانية محصورة زمناً طويلا .

ويرى السير وليم ميور أن هذه الهجرة دلت على إخلاص المسلمين لدينهم وعقدهم العزم على إعتناقه وتأهبهم لمقابلة جميع الصعاب فى سبيل الاحتفاظ به وبذلك ضرب المثل الرائع لنكران الذات من المسلمين الذين اعتبروا النفى والتشريد هينا فى سبيل الدين (٢) .

لم يستقر المهاجرون طويلا فى أتيوبيا إذ عادوا مسرعين فى شوال من نفس السنة حينما بلغهم أن قريشاً قد أسلمت حين سجدوا مع رسول الله ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما سمعوه كان باطلا فترددوا فى دخولها إلى حين، وأقاموا فيها متهيئين للهجرة الثانية ولم يلبثوا أن فعلوا وهاجروا هجرتهم الثانية وتبعهم فيها ناس كثيرون متفرقون كل على قدر إستطاعته حتى إكتملوا مائة وعشرين .

---

(١) The Life of Mohamed P. 91.

(٢) Ibid P. 96.

وإنى لا أذهب إلى ماذهب إليه الأستاذ عبدالمجيد عابدين فى كتابه بين (أتيوبيا والعرب)[1] من أن (هذا الفوج الأول لم يكن فى واقع الأمر قوماً قد فروا بأنفسهم إلى (الحبشة) وإنما كانوا بعثة إسلامية أرسلها النبي (صلعم) إلى ملك أتيوبيا للتعرف على مدى رغبة النجاشى وإستعداده لقبول المهاجرين والتمهيد للمسلمين فى البلاط الاكسومى) .

فأمثال هذه البعثات فى العادة لا تصل إلى مثل هذا العدد الضخم الذى تكون منه هذا الرعيل كما أنه لاضرورة لوجود نساء فى وفد كهذا قد يقضى المدة كلها فى سفر .

هذا إلى أن هذه الجماعة قد خرجت من مكة والأزمة بين المسلمين وقريش قائمة واضطهاد المستضعفين بالغ أشده، فإذا كانوا بعثة للمفاوضة والتمهيد فلن ينتظر أفرادها إذا عادوا حالا غير ما تركوه ولكن الرواية تقول أنهم ترددوا فى دخول مكة حتى وجدوا من يخفيهم أو يمنحهم حمايته، أى أنهم فوجئوا بحالة من الاضطهاد لم يكونوا يتوقعونها مما جعلنى أميل إلى الرأى الذى يقول أنهم هاجروا ثم عادوا حينما بلغهم أن قريشاً قد أسلمت وتابعت النبي .

---

(١) ص ٧٧

ويظهر أن الاثنى عشر الأولين وخصوصاً المتزوجين منهم قد لاقوا كثيراً من الصعاب فى هجرتهم الأولى لذلك لم يخرج منهم فى الهجرة الثانية إلا إثنان هما سليط بن عمرو وكان إعزبا فتزوج وعثمان بن عفان وزوجته رقية ولكنهما لم يطيلا مكثهما هناك ، بل عادا وهاجرا إلى يثرب مع النبى عليه السلام وشهد غزوة بدر وصلح الحديبية .

وقد أحسن (النجاشى) لقاء المهاجرين وأغلب الظن أنه وجد فيهم قوة قد تستطيع مستقبلا أن تعوضه ما كان قد فقده من نفوذ كما أنها تستطيع أن تحمى تجارته السائرة صوب الدولة الرومانية الشرقية عن طريق مكة بدليل إستمرار العلاقات الودية وبينه وبين النبى .

والمصادر كلها غامضة عن حياة هؤلاء المهاجرين فى أتيوبيا ولكن يظهر أنهم وجدوا مقاماً سهلا بدليل توالى الهجرة ثم مكثهم ومقام أغلبهم بها مدة استطالت إلى ستة عشر عاماً . ولو كان أحد منهم قد اشتغل فى تجارة أو زراعة لمكث ولم يعد ولكننا نجد أنه لم يتخلف منهم إلا عبيد الله بن جحش الذى تنصر هناك. ولابد أن هؤلاء المسلمين كانوا ضيوفاً على النجاشى الذى أجرى عليهم أرزاقاً سنوية تغنيهم عن العمل .

وخرج من اليمن أيضاً أبو موسى الأشعرى وأبو بردة وأبو رهم فى بضعة وخمسين رجلا اجتمعوا بجعفر إبن أبى طالب ومن معه من الصحابة ولا ندرى السر فى خروجهم من اليمن ولم يكن هناك إسلام يضطهده وأغلب الظن أنهم كانوا بمكة ولكنهم جعلوا اليمن طريق هجرتهم إلى أتيوبيا .

فلما ظهر لقريش أن المسلمين قد اطمأنوا هناك أرسلت لهم فى السنة السادسة من البعثة وفداً من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ومعهما هدايا يطلبان رد المهاجرين فرفض طلبهما وعادا خائبين .

ولم تكن هذه الخيبة لترد قريشاً عن السعى فى سبيل إرجاع هؤلاء المهاجرين للقصاص منهم ولخوفهم من إنتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة فأرسلت وفداً ثانياً من عمرو ابن العاص وعبد الله بن أمية بن أبى ربيعة ومعهما أيضاً هدية إلى (النجاشى) فلم تكن نتيجة سعى هذا الوفد لتختلف عن نتيجة سعى الوفد الأول فاطمأن المسلمون إلى إقامتهم وأخلصو للملك الأتيوبى حتى إذا قامت بينه وبين أحد حكام الولايات الاتيوبية حروب وقفوا إلى جانبه وتمنوا النصر له

ولم تقف مساعدتهم عند حد التمنى بل عرضوا خدماتهم عليه.

ولم يقم كل المسلمين حتى سنة ثمان للهجرة حين عادوا إلى بلادهم بل منهم من عاد قبل ذلك فقد هاجرت زينب بنت جحش الهجرة الثانية مع أخويها عبد الله وعبيد الله ولكنها عادت وتزوجت من زيد بن حارثة ثم طلقت منه وتزوجها النبى عليه السلام سنة ثلاث من الهجرة .

وقد دامت العلاقات الحسنة بين النبى عليه السلام والنجاشى[١] وقد تبودلت بينهما الهدايا، فقد أهدى النجاشى إلى النبى خفين أسودين ساذجين كما أهداه مرة أخرى حلة وخاتماً ذهبياً فيه فص حبشى أعطاه إلى بنت أبى العاص ، كما أهداه أيضاً ثلاث عنزات أو حراب قصيرة احتفظ بواحدة منها لنفسه وأعطى على بن أبى طالب واحدة وأعطى عمر بن الخطاب واحدة ، وكان بلال يمشى بتلك العنزة التى احتفظ بها رسول الله بين يديه فى العيدين حتى يأتى المصلى فيركزها بين يديه فيصلى إليها صلاة العيد، ثم كان يمشى بها بين يدى أبى بكر بعد وفاة النبى ثم مشى بها أيضاً بين يدى عمر

(١) الجواهر الحسان ص ٩٦

وعثمان فى العيدين ، كما أهداه قارورة غالية وهى نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن كما أهداه بغلا (حبشياً) كما أهدى النبى إلى النجاشى جبة سندس .

وفى سنة ست أرسل النبى عليه الصلاة والسلام إلى النجاشى كتاباً يدعوه إلى الإسلام (١) فاستقبله النجاشى إستقبالا حسناً ووضعه على رأسه وأسلم على ما تقول المصـــادر الإسلامية وإن كنا لا نجد لهذا سنداً مطلقاً فى المصادر الأتيوبية، ولكن ما عرف عن الأتيوبيين من تمسك بدينهم يلقى ظلا من الشك على هذه الرواية ، كما أن الرواية توحى بالتكذيب أكثر مما توحى بالتصديق فقد ذكرت أنه أرسل رده مع ابنه (أريحا) ومعه ستون رجلا ركبوا البحر وسارت بهم السفينة حتى إذا توسطت البحر هاج عليها ريح فأغرقها ومن فيها ويظهر أن المؤرخين المسلمين عنوا بإنقاذ الكتاب فأتوا لنا بنصه أكثر مما عنوا بإنقاذ أصحابه .

ولكن الثابت أ أرسل له رداً جميلا كان من شأنه أن استمرت العلاقات الحسنة بينهما حتى إذا تنصر عبيد الله

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٨٨

ابن جحش رمات أرسل إليه النبى عليه الصلاة والسلام سنة سبع من الهجرة ليزوجه من زوجته أم حبيبة كما طلب عودة أنصاره إليه فزوجها له وأركب الباقين من المسلمين — ولم يكونوا يزيدون عن ثمانين — البحر وأرسلهم إلى صديقه، فدخلوا المدينة وقد إنتهى النبى عليه الصلاة السلام من غزوة خيبر سنة ثمان للهجرة وقد أتاه الله بالنصر وكان على رأسهم جعفر بن أبى طالب فجعل النبى لهم نصيباً فى الغنائم كما تزوج أم حبيبة عند عودته إلى المدينة .

ومات النجاشى سنة تسع من الهجرة فسرعان ما علم النبى بالخبر فدعا أصحابه وصفهم خلفه وصلى بهم عليه وهذا هو الأصل فى صلاة الجنازة على الغائب (١) .

(١) الجواهر الحسان ص ١١١

الباب الثانى

دخول الإسلام إلى اتيوبيا
وقيام الدويلات الإسلامية فيها

كانت اتيوبيا تطل على البحر الأحمر بسلسلة من المدن تمتد على طول ساحلها يسكنها خليط من الأتيوبيين واليهود واليونانيين والعرب .

اما الإتيوبيون فقد استقر عدد منهم فى هذه المدن وزاولوا التجارة خاضعين لسلطة ملوكهم ونوابهم .

واما الأجانب فأهمهم اليهود الذين اخذت جماعات منهم تستقر فى هذه الأماكن منذ الأسر البابلى سنة ٥٨٧ ق . م كما ساعد اضطهاد اليهود ايام الدولة الرومانية (٦٦-١٣٢ق.م) على زيادة هذه الهجرة (١) .

---

(١) Harmsworth Universal History vol. VI. P. 3397.

وتبع اليهود اليونانيون الذين أخذوا فى الانتشار فى موانى البحر الأحمر كما انتشروا فى غيرها مكونين جاليات يونانية صغيرة تشتغل بالصيد والتجارة وإصلاح السفن ، ولقد ساعدت إمبراطورية الإسكندر على زيادة عددهم فى الشرق والهجرة منها إلى موانى البحر الأحمر وزاد فى سرعة إنتشارهم أيضاً قيام الدول اليونانية فى الشرق كالبطالمة فى مصر وما كانت تسبغه على هؤلاء اليونانيين من المساعدة التى بلغت فى بعض الأحيان حد تفضيلهم على سكان البلاد الأصليين وكان لولعهم بالبحار ومهارتهم فى ركوبها الفضل الأكبر فيما امتازوا به من السبق فى هذا الميدان .

أما العرب فهم حملة تجارة الشرق من أقدم الأزمنة وموزعوها فى الأسواق ، ولذا ظهرت لنا مدينة عدول ثغر أكسوم فى القرن الثالث الميلادى مدينة مختلطة يسكنها خليط من هذه الأجناس كلها ركز فى يده معظم تجارة اكسوم كما نظم المواصلات بين الساحل والداخل ، فكانت حلقة إتصال بين الخارج وأسواق أتيوبيا ومنطقة النيل الأوسط حيث كانت ممالك النوبة المسيحية ، وما كان وصول فرومنتيوس إلى أتيوبيا إلا نتيجة لتحطيم سفينته التى كانت تسير فى البحر

الأحمر فى رحلة من إحدى رحلاتها صوب هذه المدن النشطة .

وكانت هذه الشواطىء تخضع لسلطة ملوك أتيوبيا فى أكسوم وعن هذا الطريق ارتبطت أتيوبيا المسيحية بروابط الود والصداقة مع الدولة الرومانية الشرقية وزاد من قوتها وحدة المذهب والديانة بين الدولتين حتى إذا صمم الملك كالب (٥٢٤ — ٥٤٢ م) على أن يؤدب اليمنيين جزاء سوء معاملتهم لنصارى نجران اتصل بهذه الدولة واطلعها عن نواياه وطلب منها المساعدة . فلما غزا الفرس اليمن لم يتمكن الأكسوميون من التدخل فأصبح الفرس سادة للشواطىء اليمنية وأصبحوا خطراً يهدد سلامة الشواطىء الافريقية ، ولم يتأخر أمراء اليمن يعززهم الفرس من الاستفادة من الموقف كى يتمموا القضاء على النفوذ الأتيوبى على الشواطىء المقابلة فأصبحت سلطة أكسوم على البحر فى خطر . وكان يجب عليها أن تحاول المحاولة الأخيرة لأن مستقبلها قائم على البحر فهو الطريق التى أتت إليها منه الثروة والمدنية والسلطة والديانة ولكنها لم تفعل ، ويظهر أن الأتيوبيين

لم يقدروا خطورة هذا الموقف بدليل عدم قيامهم بأية محاولة فى هذا الوقت(١) .

وظهر الإسلام فى شبه الجزيرة فظلت العلاقات التجارية بينها وبين أتيوبيا وأفريقيا عن طريق هذه المدن الساحلية سائرة طريقها، ولم يكن ظهور الإسلام ليؤثر فى الموقف كثيراً غير أن العرب الذين كانوا يترددون عليها أصبحوا مسلمين وأول مسلم نسمع عنه مهاجراً ومستقراً فى هذه الأجزاء هوود بن هشام المخزومى وكان ذلك أيام عمر بن الخطاب(٢).

ولقد كان ضعف ملوك أكسوم مشجعاً للقبائل البربرية التى كانت تعيش على حدودها الشمالية والغربية على أن تزحف وتنعم بهذا الخير الذى منعها عن وروده قوة الملوك السابقين . وكانت الموجة الأولى من أهل البجة . فبمساعدة الدولة الرومانية استطاعت دولة النوبة المسيحية أن تهاجم البليميين الذين كانوا يعيشون حول سواكن ويخضعون

---

(١) Lucas dei Sabelli p. 207.

(٢) ceerulli p. 9

لسلطة ملوك أتيوبيا(١) فتفرقت هذه القبائل الأخيرة وانتشرت فى الصحراء فى إنتظار وقت ملائم ، ولم تلبث أن وجدت هى وبعض قبائل البجة والزنافج غير النظامية التى كانت تعيش على الرعى فيما بين الهضبة والبحر الأحمر فرصة هبوط الروح المعنوية فى اكسوم على أثر استيلاء الفرس على الشواطىء وضياع التجارة فدخلت اكسوم من الغرب واندفعت كالتيار الجارف حتى وصلت ارتريا واتجه البدو منهم إلى جهات النوبة وعبروا النيل ووصلوا إلى كردفان(٢).

وبسطت قبائل البجة التى سكنت الساحل سلطانها على كل الساحل الأفريقى واشتغلوا بالقرصنة واصبحوا خطراً يهدد التجارة فى البحر الأحمر وأغاروا كثيراً على مدن هذا البحر بشاطئيه الشرقى والغربى، وفى سنة ٦٣٢ م بعث النبى صلى الله عليه وسلم بفصيلة مسلحة ، لحماية شواطىء الحجاز وفى سنة ١٨ هـ (٦٤٠) أبلغ عمران أن حملة من القرصان أتت من الشواطىء الأتيوبية لمهاجمة الموانى العربية . وفى سنة ٨٥ هـ (٧٠٢) أيام عبد الملك بن مروان هاجم هؤلاء القرصان جـدة

---

(١) Lucas dei Sabelli p. 213

(٢) Ibid p. 212.

وانسحبوا بعد أن أنزلوا بها خسائر جسيمة دون أن يقاومهم أحد . وكان البدو كالأتيوبيين يخافون البحر فلم يضعوا لحماية سواحلهم إلا بضع حاميات تمكنهم من مواجهة الحالة . ولكنهم استطاعوا بعد ذلك ـ بعد أن أصبحت لهم قوة بحرية محترمة ـ أن يهاجموا هؤلاء القرصان فى أوكارهم ويتخذوا لهم قاعدة أمامية يرقبون منها الحالة وهى مجموعة جزر الدهلك التى تقع أمام الميناء الأتيوبى عدول ، ولم يكن تتبع القرصان هو السبب الوحيد الذى دفع بالدولة العربية إلى الاستيلاء على هذه المجموعة من الجزر فقد قامت كثير من الثورات على سلطة الدولة الأموية منذ قيامها فى دمشق فقامت الشيعة والخوارج فى العراق وما وراء النهرين ، وقام الزبيريون فى العراق والحجاز ، ونجح الأمويون إلى حد كبير فى التغلب على الثورات وقتل عدد كبير من القائمين بها ، ولكن كثيرين آخرين نجحوا فى الهرب إلى بلاد بعيدة داخلة أحياناً فى سلطة الخلفاء كخراسان وبلاد المغرب ، وخارجه أحياناً أخرى عن سلطتهم كبلاد أتيوبيا وسواحل إفريقيا الشرقية وقد تتبعت الدولة الأموية بعضهم إلى مهاجرهم واستولت على

بعضها ومنها مجموعة جزر الدهلك واستعملتها كمنفى للمغضوب عليهم[١] .

وقد روى لنا أن عمر بن أبى ربيعة أكثر من التعرض للمحصنات العفيفات من قومه ومن غيرهن ، فكان إذا وافى موسم الحج خرج فى زينة حسنة وقد لبس الحلل الموشاة وركب النجائب المخضبه بالحناء وعليها القطوع من الديباج وارسل لامته ولقى العراقيات والمدنيات والشاميات حيث كن يفدن وتعرض لنساء الاشراف وبناتهم حيث يراهن ويرقب خروجهن للطواف والسعى ويصفهن وهن محرمات واستطار شره وتمادى فى غيه وشبب ببنات السادة والخلفاء حتى غضب علية عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى الدهلك .

وفى أيام هشام بن عبد الملك هرب زيد بن الحسن بن على وبعض انصاره من الزيدية فرارا برقابهم بعد أن فشلت ثورتهم ونجحوا فى الاقامة فى نقطة على ساحل افريقيا الشرقى الجنوبى ولم يلبثوا أن وسعوا رقعة أرضهم بفضل من كان ينوالى عليهم

---

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ١١٤

من المضطهدين الفارين من شبه الجزيرة إلى أن انشأوا مدينة موجاديشو وكبرت هذه المدينة واتسعت حتى اخذت مكان السيادة على ساحل افريقيا الشرقى كله (١) .

ولا بد أن هذه الهجرة التى رواها المورخون لم تكن الا واحدة من هجرات كثيرة بعضها صغيرة وبعضها كبيرة قصد بعض منها سواحل اتيوبيا الشرقية خصوصا وقد تتابعت على الدولة الاسلامية الثورات فالهجرات ، ولاسيما بعد قيام الدولة العباسية التى دأبت على تطهير البلاد من بقايا الامويين والشيعة فى وقت كان فيه المسلمون الذين يعيشون فى سواحل اتيوبيا الشرقية ينعمون تحت حكم ملوك اتيوبيا بكثير من الامن والراحة .

وباستيلاء الدولة الاسلامية على الدهلك تكونت نواة للقوة الاسلامية على الساحل الافريقى للبحر الاحمر ، وقد أضفى هذا الحادث على التاريخ الاتيوبى أهمية خاصة فبدأت الجزيرة العربية حلقة جديدة من حلقات فتوحاتها للتوغل فى افريقيا وقد سبقهم اليمنيون والسبأيون فى الانتشار هناك والتوغل على ساحل ارتريا الحالية منذ مائه وخمسين سنة .

---

(1) Thomas Arnold, Pfeaching of Islam P. 340

وفى خلال القرون التى اعقبت نزول المسلمين إلى الدهلك والموانى القريبة كان النشاط المثمر يظهر فى تجارة الرقيق ولم يكن ذلك شيئا جديدا فقد كان الساميون يعتبرون بلاد السود البلاد المختارة للغنائم من الرقيق ، فقد كانت بغداد حاضرة الخلافة الاسلامية فى ذلك الوقت وغيرها من حواضر الدول الاسلامية قد ذخرت بقصور الخلفاء والوزراء وكبار الدولة ، وافرط القوم فى اللذائذ يتفننون فى الاستمتاع بها وكان كل خليفة يعلو درجة فى سلم الترف عمن قبله واكثروا من الرقيق (١) فألحوا فى طلبه حتى كان البيت الاسلامى وخصوصا بيوت الأغنياء عصبة أمم . فكان للرشيد على ماقيل زهاء الفى جارية ، وللمتوكل أربعة الاف من مختلف الاجناس اغلبها من اسواق النخاسة ، وانتشرت تجارة الرقيق فى المملكة الاسلامية (٢) وكان فى بغداد شارع يسمى شارع الرقيق واشتهر كثير من النخاسين بسبب ما كان لهم من جوار ، واتجه العباسيون إلى تعليم هؤلاء الجوارى اتجاها قويا واكثر عنايتهم كانت بتعليمهن الغناء ، وكان هذا التعليم يعلى من قيمة الجارية اضعاف

---

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٠٤

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٨٣

ثمنها (١) وقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار ، فلما علمها ابراهيم ابن المهدى الغناء عرض فى ثمنها ثلاثة الاف دينار ، وقد بيعت عريب المغنية بخمسة الاف دينار ، واشترى الرشيد جارية من الموصلى بستة وثلاثين الف دينار ، ولم يكن هؤلاء الجوارى بيضا كلهن ، بل كان منهن السود من السودان واتيوبيا فلا عجب اذن أن ساعدت هذه العوامل على نشاط تجارة الرقيق على سواحل البحر الأحمر واصبحت اتيوبيا سوقا من اهم اسواقها .

ولا نستطيع أن نغض النظر عن اثر الرق كعامل له قوته فى تحديد الأختلاط الدينى والسياسى وما ينتجه هذا الاختلاط من تطور فقد ساعد هذا الهجوم الخاطف السريع على انتشار الاسلام انتشارا سريعا فى افريقيا الوثنية على مدى واسع لان القبائل الضعيفة التى كانب عرضه للهجوم المتوالى من جيرانها لم يكن لها من مهرب أمامها الا الارتماء فى احضان الاسلام ، ولم يتأخر المسلمون بدورهم عن أن يبذلوا كل مساعدة ممكنة لكسب هذه الشعوب الغريبة وما وراءها ، وبهذا امتد الكوبرى الذى خلقته الدولة الاسلامية فى البحر الاحمر

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٨٩

ولم يتأخر هذا التوغل عن التحول من توغل دينى إلى اقتصادى وسياسى .

وكانت الدهلك بطبيعة الحال مركز تجارة الرقيق وخاصة بعد أن انشئت فيها امارة لها اسطول تجارى عنى المؤرخون العرب بالتغنى به ، وقد امتد نفوذ حكام اليمن إلى الدهلك واصبحوا يأخذون جزية من وإلى الجزر الف رقيق نصفهم من النساء الاتيوبيات لنحافتهن ورشاقتهن ، وقد لاحاظ كونتى روسينى أن هؤلاء النساء كن يثرن اعجاب الشباب . (فكم فى الحبشان من خود هيفاء بهية الطلعة ، جميلة المنظر ، صادقة المخبر ضحوكة السن ، ناعمة عطرة نزفة ذات انف اشم اقنى ، فيه خزام من الذهب يزيد ناظره سرورا وذات وسام فايق ورضاب رايق وخصر نحيل وكفل ثقيل ولعوط بهج وصوت غنج ناعمة الطرف كثيرة المحاسن والوصف لها القبول التام وطيب المعاش)

وفيهن يقول الشاعر العربى :

عذلونى عن حب بيضاء الثنايا   بفتاه مليحة أمحرية

ليت شعرى أتلك غير حرية   بالتفانى بوصلها أم حرية (١)

أما الرجال فقد استخدموا كمحاربين مما جعل هذه التجارة تتجه نحو النساء والرجال الاشداء دون الاولاد من الرقيق .

وقد سهل انتشار الاسلام بين قبائل الساحل الهجرة لافريقيا ليس فقط لافراد من المخاطرين من اليمنيين والحجازيين، بل لقبائل بأسرها أو لبطون مثل ما كان الحال أيام المعينيين والسبأيين،

وساعدت احداث الدولة الاسلامية على هذه الهجرة وقد هرب مروان الثانى اخر خلفاء الدولة الاموية مع فريق من امراء هذه الدولة واتباعها إلى اعالى النيل عن طريق النوبة .

وقد قص المسعودى عن هذه الهجره أن مروان الثانى قتل فى مصر بينما ذهب اعوانه ومعهم اسرته إلى مصوع، ومنها ابحروا إلى جدة . ولكن الاساطير المحفوظة عن الشعب السودانى تقول أن هؤلاء الامراء استقروا فى النوبة وهم اصل قبيلة الاشراف (٢) ومما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء المهاجرين المسلمين كانت كلها عناصر موجهة تحمل صفات انسانية غنية وان كانت بدائية ليس لها كيان .

---

(١) اعلام الطراز المنقوش ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٤

وكان هذا التوغل الإسلامى فى المنطقة الصحراوية المنبسطه حيث لا يمكن للأتيوبيين أن يتحملوا جوها الحار الثقيل غير الصحى . فكون المسلمون على مدى الزمن سياجا حول الهضبة وعزلوها عن أى إتصال بالعالم الخارجى ، وهنا يجب أن نلاحظ ملاحظة جديرة بالنظر وهى أنه بينما كانت القبائل المتأخرة تسكن هذه المنطقة الصحراوية الفقيرة تمتزج بدماء أرقى منها وهى دماء هذا الجنس العربى الذى قدم إلى هذه البلاد كان الأتيوبيون قد انحصروا وظلوا محصورين تحت ضغط الشعوب السامية الشرقية ولم يكن أمامهم إلا الاختلاط بالعناصر الأفريقية التى تقع فى الغرب فبينما ظهر التفوق فى الجنس عند الصومال والجلا وبنى عامر نتيجة لهذا الاختلاط فاكتسبوا منهم نبل التعبير وحسن المعاملة ظهر عكس ذلك عند الأتيوبيين نتيجة لعزلتهم واختلاطهم بالشعوب الإفريقية .

هناك جانب آخر لتجارة الرقيق وهو أن هذه التجارة وانتشارها قد ساعد على خلق طبقة من التجار الذين أثروا على حسابها ، وكانت تجارة الرقيق تحتاج ـ إلى جانب كثرة الأموال ـ إلى عدد كبير من الحراس والأعوان المسلحين

الذين يقتنصون العبيد من قراهم كما يحافظون عليهم لتسليمهم فى الأسواق فكان أن أصبح هؤلاء التجار فوق غناهم المفرط ذوى أعوان وأنصار حاملين للسلاح مستعدين للنضال متقنين للحرب مبرزين فيه .

ولم يكن الرقيق المصدر الوحيد للتجارة فى هذه الأنحاء ، فبلاد أتيوبيا منذ القدم غنية بمواردها الطبيعية التى تصلح للمبادلة خصوصاً وقد وجدت فى الجانب الآخر من أسباب الحضارة ورقيها مما يدعو إلى نشاط هذه الحركة فقد شهدت بغداد وغيرها من الأمصار الإسلامية الإقليمية حركة هائلة فى التعمير احتاجت إلى كثير من خشب أتيوبيا ومواد البناء ، والحت مظاهر الترف والنعيم التى انتشرت فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية فى طلب كل ما يتفق مع هذه الحياة الجديدة . فأسرفوا فى طلب الشموع لحفلاتهم والعنبر لزينتهم وسن الفيل لتكفيت آرائكهم وباقى أثاثهم والبن لضيوفهم والجلود لصناعاتهم، والبهارات والقمح التوابل لغذائهم وكانت أتيوبيا سوقاً رائجاً لهذا كله، فلا عجب أن عمرت موانى البحر الأحمر ونشطت التجارة فيها وامتلأت أسواقها وازدحمت مواردها بالطالبين وظهرت فيها البيوت التجارية الهامة التى يملكها

تجار أثرياء مترفون يملكون إلى جانب المال وبيوت التجارة عشرات أن لم تكن مئات من القوافل والمراكب وآلاف من الأعوان وعشرات الآلاف من قطع السلاح والذخيرة .

وإلى جانب تجارة أتيوبيا احتكر سكان السواحل نقل تجارة الشرق الأقصى إلى موانى البحر المتوسط فكونوا بالإشتراك مع البنادقة خطاً ممتداً بين الهند وموانى أوروبا لنقل التجارة الهندية إلى أسواق العالم الغربى ، فبينما كانت سفن البنادقة تسيطر على موانى البحر المتوسط بفضل الحماية التى كان يسبغها على سفنهم أباطرة الدولتين الرومانية الشرقية والغربية لقاء مساعدتهم إياهم(١) . وبفضل خبرتهم البحرية ومهارتهم فى التجارة ومركزهم الممتاز بين الشرق والغرب كان العرب

---

(١) فى سنة ٥٨٤ م دعاهم إمبراطور الدولة الرومانية الغربية إلى إعلان ولائهم لها فى سبيل منحهم إمتيازات تجارية كبيرة وعندما أغار اللومبارد على إيطاليا واستقلوا بشمالها حصلت البندقية على استقلالها . وعندما أغار شولمان على إيطاليا وأخضعها عام ٧٧٤ م أدعوا سيادة الدولة الرومانية عليهم ولكنه حاربهم وحين انتصروا عليه اعترف باستقلالهم سنة ٨١٠ م .

قد سيطروا على موانى البحـــر الأحمر والخليج الفارسى وبحر العرب والمحيط الهندى ، فلا غرابة إذا وجدنا دولة إسلامية تقوم فى وسط أتيوبيا فى بقعة من أخصب بقاعها هى مملكة شوا الإسلامية (بضم الشين) ولقد كان أمر هذه المملكة الإسلامية مجهولا لدى المؤرخين حتى اكتشف أمرها المستشرق الإيطالى شيرولى فى سنة ١٩٢٦ ومكنته فرصة الحرب الأتيوبية الإيطالية فى سنة ١٩٣٥ ثم إستيلاء إيطاليا على أتيوبيا وضمها إلى أملاكها فى سنة ١٩٣٦ من أن يستكمل بحثه ويفاجأ العالم بنبأ اكتشافه وكان هذا الاكتشاف مبنياً على وثيقة كتبها مؤرخ مجهول عاصر الأحداث التى حدثت لهذه الدولة فى نهاية أيامها بين سنتى ٦٢٩ — ٦٨٨ ﻫ (١٢٣١ — ١٢٨٩) حينما سقطت هذه الدولة بحكم شيخوختها تحت ضغط الثورة الداخلية من جهة وضربات سلطته إيفات الناشئة من جهة أخرى حتى استطاع سلاطين هذه الدولة الأخيرة أن يضموها إلى أملاكهم نهائياً فى تلك السنة .

وهذا هو نص الوثيقة :

(ذكر التوايخ) . وكان موت الملكة بديت (بفتح الباء) بنت مايا سنة خمس وخمسين واربع مائه (١) وكان اسلام جبة (٢) فى زمان السلطان حربعر (٣) (بفتج الحاء وسكون الراى وفتح الباء وكسر العين) ، يوم الجمعة عشر ليلة مضت، من شهر جمادى الاولى سنة اثنتين وخمسمائه (٤) وكان انهزام امحر (بسكون الميم وفتح الحاء) من أرض ورجح فى شهو صفر سنت اثنتين وعشرين وخمسمائه (٥) وقتل السلطان مالمعى (٦) فى جبة سنة تسع وسبعين وخمسمائه (٧) وكان ولاية السلطان حسين سنت خمس وسبعين وخمسمائه (٨) وكان ولاية السلطان عبد الله سنت تسعين وخمسمائه (٩) وكان وقع القتال فى مدجة (بفتح الميم وسكون الدال وفتح الجيم) سنت تسع

---

(١) تنحصر هذه السنة بين ٤ يناير و ٢٤ ديسمبر ١٠٦٣

(٢) gablab .

(٣) ١٦ ديسمبر سنة ١١٥٨ م

(٤) حرب ارعد

(٥) من ٥ فبراير إلى ٤ مارس سنة ١١٢٧

(٦) mâlrεsma :

(٧) ٢٤ اغسطس سنة ١١٨٣ م

(٨) ٨ يونيو ١١٧٩ إلى ٢٧ / ٥ / ١١٨٠

(٩) من ٢٧ / ١٢ / ١١٩٣ إلى ١٥ / ١٢ / ١١٩٤

وعشرين وستمئة فى شهر عاشورا (١) وامسك السلطان
عبد الله فى جداية (٢) بعده بسنتين الا قليل ومات سنت
اثنتين وثلاثين وستمائه لعشرين ليلة مضت من رمضان (٣)
وكان ولاية السلطان محمد بن حسين تلك السنة فى شوال وكان
ولاية ابنه السلطان مالزرة (٤) فى شهر ذى الحجة سنت ست
وثلاثين وستمائه (٥) وكان تزويجه الملكة فاطمة بنت
ايدارجن (٦) من زملة سنة ثلاث واربعين وستمائه (٧) وكان
احراق ولله (بفتح الواو واللامين) بيد جنبة (بفتح الجيم
وتشديد النون وفتحها وفتح الباء) فى شهر جمادى الاخر
سنت سبع واربعين وستمائة (٨) واحرق التجنة (٩) بعده
بسنتين وامسك حمنه (١٠) فى حرة (١١) بسنت ومات مالزرة

---

(١) من ٢٩ / ١٠ إلى ٢٧ / ١١ / ١٢٣٩

(٢) gidayah .

(٣) ٢٠ / ٥ / ١٢٣٥

(٤) Malzarah .

(٥) من ٥ / ٧ إلى ٢٤ / ٨ / ١٢٣٦

(٦) Aydargun ؛

(٧) من ٢٩/٥/١٢٤٥ إلى ٢٨/٥/١٢٤٦ ؛

(٨) من ١١/٩ إلى ٩/١٠/١٢٤٨ ؛

(٩) al-Tagrah .

(١٠) Hammah ؛

(١١) Harrih ؛

رحمه الله بسنت وكان ولاية السلطان جنبة فى شهر ربيع الاخر
سنة خمسين وستمائه (١) وفى تلك السنة كان الجوع المعروف
باسة وكان موت الفقية ابراهيم بن الحسن قاضى قضاة شوا
يوم الاحد لعشر ليال خلت من رمضان سنة ثلاث وخمسين
وستمائة (٢) وفيها كان تلف عراق بيد التتار وقتل خليفته
رحمه الله وكان الجوع المعروف بفسس (بفتح الفاء وتشديد
السين وفتحها) سنت سبع وخمسين وستمائة (٣) وكان السلطان
جنبة يوم الخامس من شهر ربيع الاخر سنة ستين وستمائة (٤)
وكان ولاية جرام جزى (٥) يوم الحادى والعشرين من ربيع
الاخر من تلك السنة (٦) وكان (حبسيتا) وطاعونا كبيرا
وكان قتال فى جبر (٧) فى وند لحرة (٨) فى شهر ذى الحجة
سنت احدى وستين وستمائة (٩) وكان قتال لب (١٠) فى

---

(١) من ١١/٦ إلى ٩/٧/١٢٥٢ ؛

(٢) ١٣/١٠/١٢٥٥ .

(٣) من ٢٩/١٢/١٢٥٨ إلى ١٧/١٢/١٢٥٩ ؛

(٤) ٢٧/٢/١٢٩٢ .

(٥) Ijiram-gazi ؛

(٦) ١٦/٣/١٢٦٢ .

(٧) Djabar ؛

(٨) Wandalharah .

(٩) من ٦/١٠ إلى ٤/١١/١٢٦٣ .

(١٠) Lub ؛

حسة (١) مع عمر بن محمد بن طجالة (٢) أول يوم من صفر سنة اثنين وستين وستمائة (٣) واعطى الدولة لاخيه الكبير دلجامس (٤) يوم الثالث من صفر تلك السنة (٥) وقتل صاحب مورة (٦) سنت ثلاث وستين وستمائة (٧) واستوت له البلاد سنت خمس وستين وستمائة (٨) ورجع الوزراء والامراء والسلاطين وقتل صاحب جدايةاجن (٩) سنة ست وستين ستمائة (١٠) شهر شعبان وكان قتاله مع أهل اجن (١١) يوم الجمعة فى شهر عاشوراء سنت ثمان وستمائة (١٢) وكان ولاية السلطان دلمارة (١٣) بن مالزرة يوم الثالث من صفر

---

(١) Hamsah.

(٢) Togalag.

(٣) ١٢٦٢/١٢/٤.

(٤) Dilgames.

(٥) ١٢٦٣/١٢/٦.

(٦) Morah.

(٧) من ١٢٦٤/١٠/٢٤ إلى ١٢٦٥/١٠/١٢.

(٨) من ١٢٦٦/١٠/٢ إلى ١٢٦٧/٩/٢١؛

(٩) Ggan:

(١٠) من ٤/١٦ إلى ١٢٦٨/٥/١٤.

(١١) Degon.

(١٢) من ٨/٣١ إلى ١٢٦٧/٩/٢٩.

(١٣) Dilmarah.

من تلك السنة (١) وكان موت لب تلك السنة فى ربيع الأول (٢) وكان خروج إبراهيم بن حسين على دلمارة سنت تسع وستين وستمائة (٣) فى شهر شوال وفيها كان قتاله مع جبرجى (٤) وجرام جزى فى وسله وكان تزويجه بنت والى اسمع فى دجن فى شهر صفر سنة سبعين وستمائة (٥) وكان دخول على جورت وإنتقاله إلى دلجامس وقتاله فى وحج (٦) كان تلك السنة وكان القحط المعروف بهجلة (٧) سنت أحدى وسبعين وستمائة (٨) والطاعون الذى فنى فيه كبراء ولله وسلاطينهم كان سنة ثلاث وسبعين وستمائة (٩) وكان وقعة ابت (بضم الهمزة وفتح الباء) وإمساك دلجامس مع جميع إخواته وعسكره فى آخر عاشوراء سنة خمس وسبعين وستمائة (١٠)

---

(١) ١٢٦٩/١٠/٢.

(٢) من ١٠/٢٩/ إلى ١٢٧١/١١/٢٧.

(٣) من ٥/١٣ إلى ١٢٧١/٦/١٠.

(٤) Gabar—gé.

(٥) من ٩/٨ إلى ١٢٧١/١٠/٦؛

(٦) Wahg.

(٧) Waglah،

(٨) من ٧/٢٩ إلى ١٢٧٢ إلى ١٢٧٣/٧/١٧.

(٩) من ١٢٧٤/٧/٧ إلى ١٢٧٥/٦/٢٦.

(١٠) ١٢٧٦/٧/١٤.

وفيها كان قتاله مع جمرار (١) فى هكلة (٢) فى آخر ربيع الأول (٣) وفيها كان أول مجىء والى اسمع إلى شوا وإنتصاره على احرصح فى شهر رجب (٤) وهربه من جداية فى شعبان (٥) وكان احتراق ولله بيد على بن والى اسمع فى ربيع الآخر سنت ست وسبعين وستمائة (٦) وفيها كان وقعة ابحل (٧) مع أهل دجن فى جمادى الأولى (٨) وكان إنتقال دلمارة من ولله وولاية دلجامس ثانية فى ربيع الأول سنت سبع وسبعين وستمائة (٩) وفيها كان نهب المحررة (١٠) بيدجازنان (١١) ثم ذهابه إلى متى (١٢) ثلاث ثم رجوعه خائبا وإنتقال دلمازة إلى الحطى آخر يوم

---

(١) Gamarar .

(٢) Waklah .

(٣) ١٢٧٦/٩/١١ ،

(٤) من ٧٦/١٢/٩ إلى ١٢٧٧/١/٧ ،

(٥) من ١/٨ إلى ١٢٧٧/٢/٥ ؛

(٦) من ١/١ إلى ١٢٧٧/٩/٢٩ .

(٧) Abbal .

(٨) من /٩/٣٠ إلى ١٢٧٧/١٠/٢٩ ؛

(٩) من /٧/٢٣ إلى ١٢٧٨/٨/٢١ .

(١٠) Almaharrah .

(١١) Gàznàn .

(١٢) Mq

من شعبان (١) وكان تاتى على ودلجاس فى زوحر (٢) ليلة عاشوراء سنت ثمان وسبعين وستمائة (٣) وكان فيها الوقعة فى دونل (٤) وولاية عبد الله بن جناح فى شهر عاشوراء وإحراق ابت فى أثرها سنت ثمان وسبعين وستمائة وكان فيها ارتداد والى اسمع وفيها كان مجىء على مع دلجامس الى اهل (٥) ونهب وحر وطلة (٦) وخرج فى شهر رمضان وفيها كان دخول دلمارة الى ابت فى شهر ذى الحجة (٧) وكان دخول والى اسمع إلى شوا والتولى فيها فى ذى الحجة لاحد عشر ليلة بقين منها . وقعد فى مدون (بياض) فى جنحسر يوم الجمعة لخمس ليال بقين منها (٨) (بياض) أول يوم من صفر سنت إحدى وثمانين وستمائة (٩) وكان دخوله مع موخ (١٠)

---

(١) ١٢٧٨/١٢/١٨

(٢) Zawaher

(٣) ١٢٨٧/٨/٣٠

(٤) Dunwal

(٥) Hl.

(٦) Wagara — Talah.

(٧) من ٤/٣ إلى ١٢٨٠/٥/٣ .

(٨) ١٢٨٠/٤/٢١ .

(٩) ١٢٨٠/٤/٢٥ .

(١٠) Muha .

سنت اثنين وثمانين وستمائة(١) فى المحرم وفيها كان إمساك
دلمارة وقتله رحمه الله فى صفر(٢) وكن فناء حبد(٣) فى جبل
حاميلة وكباد فيها وكل حنبسة وكرور(٤) وحيب(٥) ورجار(٦)
فى ابوت فيها ، وفيها كان تدمير طاشيمة(٧) بأسرها فى ذى
الحجة(٨) وكان نزول والى اسمع فى جبن عين ونهب هب
امج(٩) وتدميرها إلى آخرها ونهب على حجما(١٠) وعطقوطا(١١)
والتقى عسكرها فى بوس(١٢) وغزوة منها ألى حادية فى ربيع
الآخر سنة أربع وثمانين وستمائة(١٣) وعلى رجوعه منها
وعزل ملوك شوا ونزولهم عن آخرهم الى حفر مع أهلهم

---

(١) من ١/٣٠/٤/١٢٨٣ .
(٢) مايو سنة ١٢٨٣ .
(٣) Habd .
(٤) Karor .
(٥) Hib .
(٦) Wagar .
(٧) Tàsimah .
(٨) من فبراير إلى مارس ١٢٨٤ .
(٩) Ainag .
(١٠) Hahma .
(١١) alqute .
(١٢) Busa .
(١٣) من مايو إلى يونيو سنة ١٢٨٥ .

فى آخر جمادى الأول وولى مخز(١) وبلغنا أنهم من أولاد
ود بن هشام المخزومى وكان خرج فى زمان عمر بن الخطاب
ومن تولى من أولاده فى شوا ملكها سنت ثلاث وثمانين
ومائتين الى السنت المذكورة وذلك ثلاثة مائة وتسعون
سنت وكان مخالفة مخر فى رمضان تلك السنة وكان غزو والى
اسمع اليه يوم النحر تلك السنة(٢) وفيها كان استئصال شوا
وجداتها الى حد مورة والأكثرون فتح فى حاديته وعليها
راح إلى كرور فى تلك السنة خمس وثمانين وستمائة وكانت
الوقعة العظيمة فى شمسه وطلوعه منها إلى جداية وتخريب
(بياض) جى فى المحرم سنت ست وثمانين وستمائة وكان
غزوة إلى مدرة وعدل وقتل صاحبها فى جمادى الآخر سنت
سبع وثمانين وستمائة(٣) وفيها مات الحطى يخنت(٤) فى جمادى
الأولى (بياض) وكان عمر والى السمع الى هوبت وافنائها(٥)
فى الشهر ذى القعدة (بياض) وفيها أحرق الزناتير وصحى(٦)
وصلى(٧) ومجية كالجور(٨) فى شهر ذى الحجة سنت ثمان

---

(١) Mehez .
(٢) ١٠ ذى الحجة يناير ١٢٨٧ .
(٣) من يونيو إلى يوليو سنة ١٢٨٨ .
(٤) Yhnt .
(٥) واحتلالها .
(٥) Shy-alzat .
(٧) Sly .
(٨) Kalgar .

وثمانين وستمائة(٨) .

وليس من السهل أن نتبين أين قامت هذه الولاية أو السلطنة أو المملكة ولكننا نعرف فى نفس الوقت أن إسم شوا يطلق من قديم على جزء من الهضبة الحبشية الوسطى التى تقع فى جنوب جبل دورسال الذى يطلق عليه الآن إسم تارمابار وهو متسع من الأرض العالية يسيطر من ناحية على سهل الصومال القليل الإرتفاع ومن الناحية الأخرى على المنطقة التى تمد الجزء الأوسط من النيل الأزرق بالمياه .

وجبل تارمابار هذا ينحدر انحداراً تدريجياً ناحية الجنوب الغربى حيث يوجد خط تقسيم المياه بين النيل وأواش عند مرتفعات أنطوطو . وهذا السهل الذى يتراوح ارتفاعه بين ٢٥٠٠ و ٣٧٠٠ متراً خصب يشتغل أهله بالزراعة والرعى ويحد من الغرب بوادى ماجار ويتصل من الشرق اتصالا مباشراً بإيفات .

فخصوبة هذا الإقليم واعتدال مناخه وتوفر وسائل المعيشة به كلها تشجعنا على الظن بقيام مملكة شوا فيه حيث تقطن حتى الآن جماعات إسلامية كثيرة ولا يبعد أن

(٥) ديسمبر سنة ١٢٨٩ .

تكون جماعات إسلامية قد هاجرت إليه فى أعداد يسيرة على دفعات كثيرة واستطاعت أن تتجمع وتتكون منها هذه المملكة الإسلامية واتخذت مدينة ولله عاصمة لها ، وإذا كان من العسير تحديد مكان شوا الإسلامية فمن العسير أيضاً تحديد مكان هذه العاصمة خصوصاً فى هذه المنطقة التى شهدت كثيراً من التغيير بسبب كثرة الغزو .

وكان على رأس هذه الدولة سلطان ينتمى إلى قبيلة مخزوم التى إشتهرت بمعارضتها لبنى أمية منذ أيام الإسلام الأولى فلقب بالمخزومى(١) .

وقد حكمت هذه الأسرة شوا فى الفترة التى تقع بين سنتى ٢٧٣ و ٦٨٤ ه أى أنها حكمت مدة أربعة قرون نكاد نجهل تاريخها كل الجهل . ويظهر أنها كانت فى هذه المدة مقطوعة الصلة بالعالم الإسلامى كله حتى أننا لا نجد لها ذكراً فى سجلات أى دولة من الدول الإسلامية الاقليمية المعاصرة ، فلم تكن لها علاقة بالدولة الأموية فى الأندلس أو أى دولة إسلامية أخرى من الدولة التى قامت فى عهد الدولة العباسية سواء فى مصر أو فى المغرب أو للشام أو المشرق حتى مصر نفسها

(١) Cerulli P. 15 .

التى استمرت علاقاتها الدينية بأتيوبيا طوال الحكم الاسلامى لاتجد بين أوراقها ذكرا لعلاقة بين سلاطينها الطولونيين أو الاخشيديين او الأيوبيين او مع الخلفاء الفاطميين اى علاقة او صلة ولا تستطيع تعليل هذه الظاهرة إلا بأن سكان هذه المملكة الاسلامية اشتغلوا بالرعى والزراعة فى منطقتهم الخصيبة فكفت حاجتهم وأوصلتهم إلى ماكانوا يبتغونه من عيش هادىء آمن فى حدود ظروف إقتصادية محدودة فقنعوا بها واستغنوا عن كل علاقة خارجية ، وشجعهم على ذلك طبيعة بلادهم وماكان يحيط بها من جبال عالية تجعل اتصالهم بالعالم الخارجى يكاد يكون متعذراً ، حتى إذا سقطت الخلافة العباسية فى بغداد على يد التتار سنة ٦٥٦ هـ واهتز العالم الاسلامى لهذا الحادث هزة عنيفة لم تجد هذه الفاجعة صدى فى نفوس سكان هذه المملكة الإسلامية البعيدة فلم يذكرها المؤرخ هناك بأكثر من عبارة عادية لا يؤرخ بمثلها لاتفه الحوادث ولم يعلق عليها بأكثر من قوله (وفيها — أى من حوادث سنة ثلاث وخمسين وستمائة فكان تلف عراق بيد التتار وقتل خليفته رحمه الله) حتى لقد أخطأ فى السنة التى وقعت فيها هذه الحادثة الخطيرة فى التاريخ الاسلامى .

وكانت حياة سكان هذه المملكة تقوم على أساس الاشتغال بالرعى والزراعة وهما المهنتان اللتان تهيأت لهما طبيعة بلادهم ذات المطر الموسمى الغزير حتى إذا نقصت كمية المطر فى سنة من السنين اعتور البلاد قحط كبير اضر بالسكان ومواشيهم وزراعتهم وتسبب فى مجاعات ورد ذكرها كثيراً من الوثيقة التى بين أيدينا فى سنين متقاربة ويظهر أنها بلغت من الكثرة أن أطلقوا على كل واحد منها إسماً من الأسماء تمييزاً له فيقال جوع أسة خلال سنة ٦٥٠ هجرية وجوع فسس سنة ٦٥٧ هـ وجوع هجلة سنة ٦٧١ هـ وليس هناك من تعليل لهذه الأسماء يمكن أن نستريح إليه سوى أن تكون هذه الأسماء لأماكن كان وقع المجاعة فيها أشد منه فى أى مكان آخر .

ويبدو أن نساء هذه الدولة كن يلعبن دوراً هاماً فى حياة هذه المملكة ولم يكن محرومات من حق اعتلاء العرش فقد جاء فى الوثيقة التى بين أيدينا ذكر لحوادث تتعلق بملكات لم يعن المؤرخون المسلمون عادة بتسجيل ما يماثلها فى الدول المعروفة لدينا . فهو يذكر لنا وفاة الملكة باديت بنت مايا فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ولا تذكر الوثيقة شيئاً عن هذه

الملكة فربما كانت ملكة عاملة معتلية العرش أو أنها زوجة لملك ولكنها كانت تلعب دورا هاماً ، حتى إذا ماتت كانت وفاتها شيئاً يستحق التسجيل كما ذكرت أيضا زواج السلطان مالزره بالملكة فاطمة بنت ايدرجن فى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) كما ذكرت أيضا زواج السلطان دلمارة بابنة ولسمع سلطان ايفات فى صفر سنة ٦٧٠ هـ (أكتوبر سنة ١٢٧١) وفى وثيقة أخرى من سلطنة ايفات ذكر للسلطانة ماتى ليلى من أسرة ولسمع التى حكمت سنتين وهى التى خلفت على العرش صبر الدين أيام الملك عمداً صيون وكان حكمها خلال السنوات الأولى من القرن الرابع عشر .

وما يجب أن نلاحظه أن المؤرخ استعمل لفظة ملكة عند الكلام على باديت ابنة مايا ولفظة سلطانة عند الكلام على ماتى ليلى مما يؤكد لدينا حق اعتلاء النساء للعرش بهذه الولايات الإسلامية كما يؤكد أيضاً أن عادة اعتلاء النساء لم تكن شيئاً غير مألوف فى حالة هاتين الملكتين (١) ولو كانت كذلك لعنى المؤرخ بأن يذكر شيئاً يدل على الاستهجان لهذه الحادثة كما كانت

---

(١) Cerulli p. 12

النساء تصحب الجيوش فى الحروب (٢) وهو الشيء غير المألوف فى الدول الاسلامية وربما كان مرجع هذه العادة هو خوفهم عليهن من اغارة الاعداء ووقوعهم فى الاسر وسبيهن فى الاسواق .

وقد كانت هذه الولايات ايضا على شيء ليس باليسير من التنظيم القضائى فقد كان بها منصب قاضى القضاة وقد عنى المؤرخ بتسجيل وفاة الفقيه ابراهيم بن الحسن قاضى قضاة شوا فى رمضان سنة ٦٥٣ هـ (١٣ اكتوبر سنة ١٢٥٥) ولا بد أن هذا التنظيم كان قائما على الدين الإسلامى كما كان للعلماء والفقهاء مركزهم المعتاد كقادة للرأى العام (٣) فقد كان الحكام يقربونهم ويعتمدون على مشورتهم عملا باحكام الشرع واشراكا لهم فى المسئولية كما كانوا يتدخلون لفض المنازعات التى تقوم بين الأمراء والسلاطين وحقنا للدماء (٤) .

ولقد قاست مملكة شوا فى الخمسين سنة الاخيرة من حياتهما (٦٣٢ — ٦٨٤ هـ) احداثا هائلة ادت إلى انهيارها

---

(١) Ceruelli p. 12 .

(٢) فتوح الحبشة ص ٢٧ .

(٣) فتوح الحبشة ص ٧ .

(٤) فتوح الحبشة ص ١٣ .

وتسليم مقاليد السيادة فيها إلى مملكة ايفات الناشئة فقد تداول العرش فى هذه الفترة اربع اسرات ما كانت واحدة منها لتهنأ به وتنصرف إلى ما فيه مصلحتها ومصلحة الشعب الا لتقوم عليها أحدى الاسرات الاخرى، هذا فى الوقت الذى كان يهددها فيه من الخارج سلطان إيفات ويغزوها المرة تلو المرة حتى استطاع اخيرا أن يضمها إلى سلطنته .

كان على عرشها فى سنة ٦٣١ (٢٢٤) عبد الله المخزومى حينما ثار عليه من يدعى مالزرة، وقبض عليه وسجنه واغتصب منه العرش ثمانية عشر عاما ، خرج عليه فى نهايتها السلطان جنبة واستولى على العرش سنة ٦٤٩ ه (١٢٥٢ م) ، وقد استطاع هذا الاخير أن يقبض على ناصية الحال ويورث عرشه للسلطان جيرام غازى ولا ندرى علاقة هذا السلطان بمن سبقه، ولكن عدم قيام ثورات ضد السلطان جنبة تؤكد وجود علاقة ما بين المورث والوراث وخلف السلطان جيرام غازى اخوه دلجامس ولكن يظهر انه لم يكن فى كفاءة اخيه فقد خرج عليه عبد الله بن جنبة واستطاع أن يكون صاحب سلطة لبضعة شهور وما كاد السلطان دلجامس يفرغ من ثورة عبد الله حتى كانت قوته قد انهكت واستطاع دلمارة أن يتولى

العرش فى صفر سنة ٦٦٣ فهرب دلجامس وأثار البلاد على هذا السلطان المغتصب ، واستطاع أن يعود إلى العرش للمرة الثانية فى شوال سنة ٦٦٩ ه (يوليو ١٢٧١ م) ليحكم البلاد مدة لاتزيد عن ست سنوات ، تنتهى بتشريده من جديد لمدة عامين يتولى فيهما عبد الله بن جناح ، ثم يعود إلى العرش بمساعدة النجاشى الذى أعاده فى سنة ٦٧٧ ليحكم البلاد إلى سنة ٦٨٧ ه ، وثار عليه خلال هذه العشر سنوات عبدالله بن جنبة فى محرم سنة ٦٧٨ فظل مبعداً عن العرش إلى رمضان من نفس السنة ، ثم دلمارة من جديد فى ذى الحجة سنة ٦٧٨ (مايو ١٢٨٠) ليبعده مرة أخرى مدة ثلاث سنين ٦٨٢ ه (إبريل ١٢٨٣) ، ثم يعود دلجامس ليسلم البلاد إلى أسرة ولسمع التى تحكم ايفات فى ٦٨٧ (أغسطس ١٢٨٥) .

إلى جانب هذه الحروب الداخلية التى استمرت فى مملكة شوا ، شغلت أسرة مخزومى والأسرات الأخرى التى تداولت العرش هذه المدة اليسيرة فى صد غزوات الطامعين من سلاطين الدول الأخرى التى كانت تبطن الحسد لها ، فبينما كانت مملكة شوا فى سنينها الأخيرة تعانى هذا الأنهيار كانت

هناك مملكة أخرى تنمو وتتسع لتحتل مكان السيادة من الولايات الإسلامية كلها ، وهى مملكة ايفات التى حاول سلطانها أن يغزو شوا أربع مرات كانت الأولى منها سنة ٦٧٥هـ فى عهد صهرة دلمارة الثانى القصير ، وكانت الثانية فى رمضان سنة ٦٧٨ فى عهد دلجامس الثالث الذى استمر عشرة سنوات من ٦٧٧ إلى ٦٨٧ ، وثار عليه فى اثنائه عبد الله بن جنبة وكانت الثالثة فى ربيع الآخر سنة ٦٨٤ (يوليو ١٢٨٥) ، إذ انتهز فرصة الحرب بين دلمارة ودلجامس فاستطاع أن يقتطع من حدودها الشرقية هدية وعطقوطا وجداية ، وكانت الغزوة الرابعة والأخيرة سنة ٦٨٧ حينما استطاع صبر الدين بن سلطان ايفات أن يتغلب عليها ويخضعها ويضمها إلى املاكه ويحتل مكان السيادة من الولايات الإسلامية كلها .

وايفات هذه إحدى سبع ولايات إسلامية يحدثنا عنها ابن فضل الله العمرى ، ثم نقل عنه كثير من المؤرخين مثل المقريزى بأنها كانت فى شرق أتيوبيا وجنوبها الشرقى وإنما كانت خاضعة لإمبراطور أتيوبيا الذى يولى عليها حكاما من قبله ، ولما كان ما جاء (بمسالك) بن فضل الله العمرى عن هذه الولايات كثير وبه تفاصيل كثيرة

مما لا تعنينا فإننا نكتفى هنا بما كتبه المقريزى .

(وأول هذه السلطنات أوفات والعامة تسميها أوفات (بفتح الألف وسكون الواو) ويقال لها جبرة والنسبة إليها جبرتى . وموقعها بين الأقليم الاول وخط الاستواء والقياس أنها خط الطول سبع وخمسون درجة والعرض ثمان درجات . وطولها خمسة عشر يوما فى عرض عشرين يوما كلها عامرة بالقرى والأسعار بها رخيصة وغالب أهلها شافعية المذهب، يتكلمون الحبشية ويجلس ملكها على كرسى ويركب بالجبر والطبل والزمر ومن بلادها الزيلع وبينها وبين أوفات عشرون مرحلة وأهلها مسلمون ويشتغلون بالتجارة)[1] .

(أما دوارو فهى تلى اوفات وطولها خمسة أيام فى عرض يومين وأهلها يتبعون المذهب الحنفى ومثلها السلطنة الثالثة ارابينى[2] وجاء فى الإلمام أن طولها أربعة أيام فى عرض أربعة ايام وهى تلى دوارو) .

(أما مملكة هدية فطولها ثمانية أيام فى عرض تسعة ايام وملكها أكثر الجميع عسكرا ويقدر عددهم بأربعين ألف فارس

---

(١) صبح الاعشى ٥ ص ٣٢٥

(٢) يسميها ابن فضل الله العمرى ارابينى

سوى المشاة الذين يبلغون ضعف هذا العدد(١) وزيهم كزى أهل ارابنى وسكانها انشط سكان الساحل فى تجارة الرقيق وكان النجاشى يحاول دائماً منع هذه التجارة بالتضييق على التجار ومنعهم من خصيهم فكانوا يقصدون قرية اسمها وشلو اهلها من الهمج الذين لا دين لهم حيث يخصون العبيد ثم يحملونهم إلى هدية).

(اما مملكة شرخا فطولها ثلاثة ايام فى عرض اربعة وعسكرها ثلاثة آلاف فارس)(٢).

(اما بالى فهى إلى الجنوب الغربى عن شرخا واوفات يشتغل اهلها بالزراعة لخصب ارضها ومساحتها عشرون يوما فى عرض ستة ايام).

(اما دارة فطولها ثلاثة ايام فى مثلها وهى اضعف هذه الممالك).

ولم يكن اهل هذه البلاد يتكلمون لغة واحدة ولكنهم كانوا يكتبون لهجاتهم بالكتابة الحبشية.

---

(١) نفس المصدر ج ٥ ص ٣٢٥

(٢) الالمام ص ٦

وبالنسبة لأهمية هذه الناحية التجارية تمتع ولاتها بنصيب كبير من القوة كما وكل إليهم أمر حماية هذه المدن من المهاجمين من القرصان وكان يطلق على ولاة هذه البلاد بهرنجش (بسكون الهاء والرأى وفتح النوى والجيم) أى ملوك البحر ولم يكن هؤلاء دائماً من الأتيوبيين أو المسيحيين فملوك اتيوبيا الذين لم يعرفوا التعصب الدينى لم يكونوا يترددون فى إقامة ولاة من المسلمين الذين اشتهروا بالشجاعة والبطولة.

(وأول مسلم اقامة النجاشى حاكما لأقليم من هذه النواحى رجل اسمه عمر ويقال له ولسمع ولاه النجاشى فى اواخر القرن السابع الهجرى مدينة ايفات فحكم بها مدة طويلة وصارت له شوكة قوية(١) ويقال على رواية انه من نسل عقيل بن ابى طالب ومن نسل الحسن ابن على بن ابى طالب على رواية اخرى(٢) وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من ان هذه البلاد كانت ملجأ للهاربين من ظلم الدولة الأموية الراغبين فى الابتعاد عن مواطن الاضطهاد والعنف.

وكان لهؤلاء الولاة الحق فى أن يقسموا بلادهم إلى ولايات يولون عليها من قبلهم من يشاءون على أن يكون

---

(١) الالمام ص ٩

(٢) Cerulli P. 9

هؤلاء الولاة الصغار مسؤولين أمامهم عن كل ما يتعلق بولاياتهم الصغيرة (١) وكما ارتبط البحـرنجش برباط الولاء والجزيه السنوية مع الإمبراطور ارتبط هؤلاء الأمراء بأسيادهم (٢) وكان لهم الحق أن يورثوا ولاياتهم أولادهم إذاماوافق الإمبراطور على ذلك(٣) ولهؤلاء الأمراء الحق فى غزو البلاد الخارجية وضمها الى أملاكهم دون إذن من السلطان أو الإمبراطور (٤)

ولم يكن هؤلاء الولاة جميعاًمخلصين لسادتهم دائماً فكثير ماثاروا عليهم وتعددت ثوراتهم فى بعض الأوقات بتعـدد أسبابها (٥) وبلغ من شدة هـذه الثورات فى بعض الأحيان أن اضطر الولاة الى الهـرب والإلتجاء إلى الإمبراطور طالبين المساعدة(٦) فكان هذا لايتردد فى بذلها فى حدود طاقته (٧)

---

(١) الإلمام ص ١٠
(٢) الإلمام ص ٩
(٣) الإلمام ص ٩
(٤) فتوح الحبشة ص ١٣
(٥) فتوح الحبشة ص ٥
(٦) Cerulli, p. 18
(٧) الإلمام ص ١٠

وقد تتابع أولاد ولسمع على عرش (ايفات) وكانوا أربعة آخرهم هو صبر الدين الذى يحدثنا عنه صاحب الإلمام (أنه ملك فى حدود سنة سبعمائة من سنى الهجرة). وخلفه على منصب السلطنة ابنه على، ويظهر انه أتى ما اغضب الإمبراطور فقبض عليه وسجنه ثمان سنين، أقام بدله فى اثنائها ابنه احمد، ولكنه أعاده ثانية إلى مكانه وسار احمد إلى الإمبراطور ومكث فى خدمته مدة انجب فى اثنائها ثلاثه اولاد. ويظهر أن على بن صبر الدين قد اعتلت صحته فاشرك معه فى السلطة ولده اصفح الذى يبدو انه كان يميل إلى الإشتغال بالعلوم الدينية فلقبه الناس بالملا، وكان أصغر بنيه وأحبهم إليه(١) فاغضب ذلك حق الدين الإبن الأكبر لأحمد وكان قد تركه اخوه فى ايفات حينما سار إلى الإمبراطور حين امره بذلك فانصرف إلى العلم حتى صارت له مكانه عظيمة .

ويظهر أن حق الدين أبدى ما أغضب عمه ملا أصفح، فشكاه إلى ابيه على بن صبر الدين فأرسله جـده لجبايه مال بعض النواحى ، والزم والى تلك الجهة ان ينهره ويستخدمه فامتثل للأمر حتى جمـع مالا كثيراً وخرج على عمه ملا

---

(١) الإلمام ص ١١

أصفح والتف حوله ناس كثيرون فكتب هـــذا إلى الإمبراطور الذى يلقبه المسلمون بسيف أرعد وتلقبه المصادر لاتيوبية بنوايا مريم (١٣٧٢ – ١٣٧٢) يخبره الخبر ويطلب النجدة والمساعدة ولكن رغم هذه المساعدة استطاع حق الدين ان يتغلب على عمه ويقتله، وسار إلى إيفات وفيها جده على وقد إشتد حزنه على ولده ملا اصفح ، فخنق على حفيده وأمر بطرده من البلاد ، فسار إلى شوا واقام فى مدينة تدعى وحج وانزل بها من تبعه من اهل إيفات ، فنبه شأن شوا من جديد تحت حكم حق الدين واخذ فى مناوءة إيفات واغراه انتصاره عليها على مناوءة من ينصرها وهو النجاشى حتى مات سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤) ايام حكم الملك داود (١٣٨٢ – ١٤١١) . فخلفه فى مركزه سعد الدين ابو البركات محمد، فحكم البلاد ثلاثين سنة دأب فيها على توسيع نفوذه بأخضاع المقاطعات الجنوبية من اتيوبيا وجعلها بعيدة عن سلطة النجاشى حتى مات سنة ٨٠٥ (١٤٠٣) .

وكان الملك داود قد سجن أباه احمد بن على وجده على بن صبر الدين حاكم إيفات جزاء تمرد حق الدين وولى عليها فرعاً آخر من اسرة سعد الدين هم اولاد ازر بن أبى بكر

ابن على بن صبر الدين . فحكموا إيفات وقد عاد إليها الهدوء والاستقرار بموت سعد الدين وهروب اولاده العشرة من البلاد إلى اليمن حيث اكرمهم ملكها الإشرف الناصر احمد ابن اسماعيل وأعانهم وهيأهم للرجوع إلى بلادهم، واستطاعوا ان ينزلوا البلاد برئاسة اكبرهم صبر الدين سنة ٨١٥ هـ وتجمع الناس حولهم لاسترداد ما فقدوه، وظلوا فى جهادهم حتى مات صبر الدين سنة ٨٢٥ (١٤٢٢) فخلفه اخوه منصور وعضده اخوه محمد ومات الأثنان فى سجن النجاشى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٥) .

فخلفهما اخوهم الرابع جمال الدين محمد بن سعد الدين فضم إليه بالى وهدية اللتين كانتا تخضعان للنجاشى وتدفعان له جزية سنوية فازدهرت فى ايامه تجارة الرقيق مما كان يغنمه فى غزواته على البلاد المسيحية فأمتلأت اسواق الهند واليمن والحجاز ومصر والشام والروم والعراق وفارس برقيق اتيوبيا الذين سباهم .

وكان جمال الدين يصحب الفقهاء واهل الفقر من الصالحين وينشر العدل فى اعماله حتى فى اهله وولده، ولقد بلغ من عدله ان لعب بعض صغار ولده ذات يوم مع إنداده واترابه من

الولدان فضرب صغيراً منهم فكسر يده ، ولم يبلغ ذلك جمال الدين حتى مضت مدة ،فاشتد فى الإنكار على خدمه أن لم يعلموه وطلب اولياء الصغير الذى كسرت يده وعاتبهم على إخفاء هذا عنه وجميع اهل دولته ، وطلب ابنه الجانى على الصغير فى كسر يده ليقتص منه فقام أمراء الدولة وامراؤهم بين يديه يضرعون إليه فى العفو وانهم يرضون اولياء الصغير فلم يفعل ، وأبى إلا إحضار ولده فلما قدمه ليقتص منه ضج الجميع بالبكاء وقام أولياء المكسور وعفوا، فلم يرجع إلى أحد وقدم إبنه إليه وأخذ يده بيده ووضعها على حجر وضربها بحديدة وكسرها وهو يصيح ، ثم اغمى عليه واصوات ذلك الجمع على كثرته قد ارتفعت بالعويل والبكاء رحمة بالصغير فكان امراً مهولا وجمال الدين مع ذلك ثابت وقال لولده ذق كما أذقت ولد الناس (١) فكان من أثر ذلك أن أستتب الامن فلم يتجاسر بعد ذلك أحد من أهل الدولة ان يمد يده لمال أحد بغير حق ، ولا استطاع بعد جليل أو حقير أن يجنى على غيره وبلغ من شدة مهابته أنه إذ أمر بشيء أو نهى عن شيء لا يتعداه احد من امرائه بل يقف الجميع عند

---

(١) الإلمام ص ٣٤

امره ونهيه فى جميع اعماله خوفاً من شدة سطوته .

وكانت ايفات فى ذلك الوقت تمر بفترة طويلة من الاضطراب والفوضى ساعدت شهاب الدين احمد بن بدلاى على أن يثأر لاخيه ، فقتل السلطان محمد بن آزر بن بكر بن سعد الدين سنة ٨٣٠هـ وخلفه صهره محمد بن ابى بكر بن محفوظ وملك سنة ، قتله بعدها ابراهيم بن احمد صاحب أبت وملك ثلاثة أشهر قتله على أثرها عامل من عمال الحكومة الاتيوبيه وهو الجرد (القائد) محفوظ ولكن زميلا له هو الجرد منصور بن محمد قام عليه وقتله بعد ثلاثة أشهر أخرى فأرسلت اليه الحكومة المركزية جيشا بقيادة الجرد أبون استطاع التغلب عليه وقتله بعد أن ملك البلاد خمسة أشهر ، ففى هذه الفوضى الشاملة كان من السهل على شهاب الدين احمد بن بدلاى أن يدس انفه ويحرك بعض عوامل الفتنة انتقاما لأخيه .

وقد استطاع الجرد أبون بقوة جيشه ومعونة رجال الحكومة أن يقبض على الحال ويقضى على الفوضى (فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقتل قطاع الطريق وأبطل الخمور واللعب والرقص والطبول حتى عمرت البلاد وأحبه الاشراف

والفقهاء والمشايخ) .

ولكن هذه الفترة من الهدوء والراحة انتهت بقيام أبي بكر بن السلطان محمد بن ازر الذى جمع حوله جموعا من الصومال والمفسدين وقطاع الطريق وحاربوا ابون وانتصروا عليه فمات شهيدا فى احد الوقائع .

تولى السلطان أبو بكر فخربت البلاد فى عهده واستيقظ قطاع الطريق الذين اختفوا فى عهد سلفه ، واغاروا على المسافرين يؤذونهم كما ظهر المنكر فانكر المشايخ والاشراف ذلك ، فالتفوا حول قائد من قواد أبون الذين كانوا تحت يده والذين أحبهم وقربهم إليه لما كانوا يبدونه من الشجاعة والبراعة فى القتال هو احمد بن ابراهيم الملقب بالاشول الذى أحبه الناس لتدينه وصلاحه وورعه فلقبوه بالإمام (١) وما زالوا به حتى خرج من البلاد معلنا الثورة على السلطان ومعه جند الحاكم السابق أبون واجتمعوا فى أبت فى شوا وأمروا عليهم الجرد عمردين اعلانا عن ولائهم للامبراطور وخضوعهم له (بأيدا مريم (١٤٦٨ — ١٤٧٨) فكتب السلطان

(١) فتوح الحبشة ص ٦

أبو بكر إلى النجاشي يطلب المساعدة ، فأمده بجند من الصومال وكان السلطان قد أعلن ولاءه للامبراطور بخطاب أرسله اليه (١) فتعقب جيوش الخارجين ولكنه هزم ، فعول على إعادة الكرة عليهم وتتبعهم إلى هرر حيث سار الإمام احمد بجيوشه فهزمهم، وقتل أميرهم عمر دين وهناك اجتمع الفقهاء والعلماء واصلحوا بين الإمام والسلطان فتم الصلح بينهما على أن يرضى السلطان عن الإمام ويعود الأمام احمد بن ابراهيم الذى أصبح يلقب بالغارى جنديا من جنود كل من السلطان والامبراطور ولكن هذه الهدنة لم تستمر طويلا اذ كان السلطان يضمر العداوة للأمام الذى احس بذلك فهرب والسلطان يتعقبه فينتصر الإمام عليه هذه المرة ويعود إلى هرر ولكن المشايخ والأمراء والعلماء يتدخلون للمرة الثانيه ويعقدون الصلح على أن يخضع الإمام للسلطان مقابل توليته إقليم هرر .

ولكن السلطان يحاول للمرة الثانية أن يخضع هذا الثائر فتنشب الحرب بينهما من جديد ولكن الإمام يتمكن من قتله وبذلك تقلص سلطان أتيوبيا المسيحية من هذا الجزء من للبلاد إلى حين .

(١) نفس المصدر ص ٧

ومن هذا التاريخ يبدأ عصر جديد من الصراع بين الولايات الإسلامية والامبراطور ، فقد اتخذ له الإمام رايه وجعل يتصرف تصرف الملك المستقل فمنع الجزيه، كما حرض غيره من أمراء المسلمين على عدم دفعها وعاقب من خالفه وإلى هنا يحسن أن ننتظر إلى حين ، ومن ثم نستطيع أن نقسم هذا العهد إلى أربعة عصور ظاهرة .

(١) العصر الأول وهو بدء ظهور الإسلام فى اتيوبيا واشتغال المسلمين بأعمالهم كغيرهم من رعايا الامبراطور دون أن يكون لهم كيان سياسى .

(٢) العصر الثانى وهو عصر سيادة شوا وهو ما نجهل أغلبه ولا نقف ألا على حوادث الثمانين سنة الآخيرة منه .

(٣) العصر الثالث وهو عصر سيادة إيفات ويبدأ باستيلاء صبر الدين على شوا حتى خروج الإمام احمد وهو العصر الذى تخلله خروج حق الدين ونسله فى شوا .

(٤) عصر سيادة هرر تحت قيادة احمد بن ابراهيم .

الباب الثالث

العوامل التى أدت إلى انتشار الإسلام فى اتيوبيا[1]

نواجه أتيوبيا جزيرة العرب ولا يفصل بينهما إلا البحر الأحمر الضيق الهادىء ويضيق هذا البحر عند الجنوب حتى يكاد يلتقى ساحلاه عند مضيق باب المندب أما فى الشمال فيتصل الساحلان الأسيوى والأفريقى .

والملاحة فى البحر الأحمر سهلة طول العام فلا تهب به زوابع وأعاصير إلا بضعة أيام فى السنة ولا تستمر هذه الرياح طويلا .

فقيام علاقات بين ساحلى البحر الأحمر أو بين الجزيرة العربية والبلاد الأفريقية الواقعة على ساحله الغربى أمر طبيعى جداً منذ أقدم الأزمنة .

فبينما كانت أفريقيا مغلقة من الغرب لوجود المحيط الأطلسى الواسع المضطرب كان الساحل الشرقى يكاد يكون

متصلا بآسيا كما رأينا ومن هذا الطريق الوحيد كانت أفريقيا مطمعاً للآسيويين فمنه عبرت أقوام فى عصور غير معروفة واختلطت بمن قابلها من السكان الأصليين وكذلك فى عصور متقدمة عبرت مثل هذه الأقوام وانتشرت على طول الساحل الأفريقى حيث استقرت وأدخلت معها حضارتها وسيادتها(١) ومنه تطرقت إلى الداخل .

وظروف الحياة فى جزيرة العرب قاسية ، فهى بلد صحراوى يعتمد أهله على الرعى ونقل التجارة وكثيراً ما تقسو الحياة على السكان إذا ما انقطع المطر أو نزل السيل فاكتسح كل ما أمامه وحطم ما أقاموه من سدود مؤقتة فيحل بهم الجدب فيذهب بحياة كثير منهم ومن إبلهم ومواشيهم فيضطر الباقون إلى الهجرة فارين بحياتهم من خطر الموت بينهما كانت الحياة على الساحل الغربى أنعم وأهدأ وذلك لخصب الأرض وكثرة المطر واشتغال عدد كبير من السكان بالزراعة .

من ذلك نستطيع أن ندرك أن أتيوبيا كانت منذ أقدم الأزمنة المهجر الطبيعى لسكان الجزيرة العربية .

---

(١) Basil Warsfold; Universal History Vol VI p. 3397

ولعل مناخ كل من الجزيرة العربية وأتيوبيا أكبر مشجع على ذلك فمناخ الأولى قارى شديد الحرارة صيفاً والبرودة شتاء بينما يعتدل مناخ الثانية فى أكثر أيام السنة .

والحروب التى كثيراً ما تقوم بين قبائل الجزيرة العربية تنتهى بوقوع المغلوب فى أسر الغالب أو هجرته إلى حيث الأمان والحرية . فيمكننا إذن أن نتصور قيام هجرات مستمرة متعددة الأسباب من الجزيرة العربية إلى الشاطىء الأفريقى

ولما كان العرب يشتغلون بنقل التجارة بين الأسواق المختلفة ، كانت أتيوبيا أحد هذه الأسواق التى يقصدونها لحمل التجارة منها أو إليها فازدحم البحر الأحمر بالسفن التى تنقل تجارة أتيوبيا إلى المراكز التجارية العربية وكانت اليمن أهمها ومنها تنقل التجارة عبر الجزيرة العربية إلى الشام والعراق وفارس والهند .

ولعل أهم سلع التجارة وأروجها وأدرها ربحاً هى الرقيق التى كانت مطلباً من أهم مطالب الدولتين الرومانية والفارسية فازدحمت كل من دولتى الفرس والروم بالرقيق كما ازدحمت

به الجزيرة العربية نفسها وكان سكان الهضبة الحبشية وسكان سهول النيل الأبيض وكردفان مادة هذه التجارة(١) .

ولقد كان الرقيق (الأحباش) أحب أنواعه إلى العرب لشجاعتهم وأمانتهم وإخلاصهم فى العمل وأحاديث النبى عن (الأحباش) معروفة مأثورة(٢) .

ومن المعروف أن تجارة الرقيق تستلزم استعداداً هائلا. ففضلا عن العدد الكبير من السفن والعدد الكبير من المحاربين الأشداء والكميات الهائلة من الأسلحة والذخيرة فانها تحتاج أيضاً إلى عدد كبير من المراكز التجارية الكبيرة التى تنقسم بدورها إلى عدة مراكز صغيرة متقدمة يعيش فيها عدد من المحاربين الأشداء مهمتهم الهجوم على القرى الآمنة من وقت لآخر وتصيد العبيد وحبسهم فى هذه المراكز إلى وقت وصول (البريد) أوقيام واحد من الأعوان بعدد من العبيد لإيصاله إلى المراكز الخلفية .

وتجارة الرقيق وما تدره من أرباح تفوق حد التصور

---

(١) Luca dei Sabelli I-p. 215

(٢) (من أدخل فى بيته حبشياً أو حبشية أدخل الله فى بيته بركة) .

تغرى كثيرين على احترافها ، ولذا اشتغل بها عدد كبير من العرب . فيمكننا إذن أن نتصور العدد الكبير من العرب الذى اشتغل بهذه التجارة وكون المراكز التجارية الكبيرة والصغيرة واستقر فى هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق أفريقيا صغيرها وكبيرها .

حتى إذا ظهر الإسلام وأنزل العرب الاضطهاد والأذى بمن اعتنقوه فكر النبى فى الهجرة إلى حيث كانت تسير أقدام العرب منذ عشرات السنين، وإلى حيث استقر إخوان لهم من قبل يشتغلون بالتجارة ويصيبون حظاً من الثراء ليس باليسير ، وينعمون بالهدوء والراحة فهاجر إليها المسلمون الهجرتين وأغرت الثروة والراحة أحدهم فنبذ إسلامه واستقر هناك بين إخوانه واشتغل معهم فيما يشتغلون .

ولم يمنع الاسلام من اعتنقوه من تجار العرب عن مزاولة حرفهم الأولى فكانت قوافلهم التجارية تسير إلى حيث كانت تسير من قبل ؛ فقد أجمعت المصادر الإسلامية على أن عبد الرحمن بن عوف كان يدبر المال ويثمره ويحرص عليه كأحسن ما يكون التدبير والحرص، ومضى طلحة بن عبيد الله فى تجارته بعد إسلامه لم يصرفه عنها إلى ما كان من شهوده

الغزو مع النبي، وكان عفان بن أمية صاحب تجارة وترك لإبنه عثمان ثراء فاحشا ، وذهب عثمان مذهب أبيه بل مذهب قومه جميعا فى التجارة فأفاد منها مالا كثيرا .

فالهجرة إلى اتيوبيا والعلاقات التجارية التى كانت قائمة قبل الإسلام بينها وبين جزيرة العرب استمرت من بعده وحمل المهاجرون والتجار الجدد إسلامهم معهم ومن ثم ابتدأ الإسلام يظهر فى اتيوبيا ويتغلغل فيها بمقدار مايتغلغل هؤلاء التجار ويستقر فيها بمقدار ما يستقرون .

ولكن الإسلام وحد بين العرب وحد من خصوماتهم وأوقف غزواتهم التى كانوا يشنونها على بعضهم ، كما حرم ان يسترق مسلم مسلما وبذلك إنقص مورد من موارد الرقيق الذين كان يعتمد عليهم العرب فى حراسة قوافلهم وزراعة ارضهم وخدمتهم ، فلا بد إذن من تعويض هذا المورد الذى قطعه عنهم إسلامهم، وليس هناك من مكان يستطيع ان يسد هذا النقص سوى الساحل الافريقى للبحر الأحمر وما يسكنه من مورد لاينقطع من شعوب سوداء فلا بد إذن من ان تنشط تجارة الرقيق بعد الإسلام عما كانت قبله وان يشتغل بها عدد كبير وان تحتاج إلى عدد ضخم من الأعوان والمعاونين .

وهذه التجارة وإن نشطت بمقدار أيام النبي عليه السلام، وأيام الخلفاء الراشدين ، فهذا النشاط لا يقاس بما نشطته بعد ذلك حين ألح الخلفاء والوزراء والأمراء أيام الدولتين الأموية والعباسية فى طلب الرقيق .

ولم يكن هناك من مخرج أمام أفواج الرقيق وسكان الصومال واتيوبيا والسودان الذين تعرضوا دائما لغزوات هؤلاء التجار إلا الارتماء فى أحضان الإسلام الذى يمنع عنهم ذل الأسر ويقيهم مهانة الرق والعبودية فأخذ الإسلام يظهر بينهم بتزاوجهم مع بعضهم ومع العرب والمسلمين النازلين بينهم .

وتقدمت الحضارة وازدهرت فى الدولة الإسلامية تحت حكم الأمويين والعباسيين الذين ألحوا فى طلب مختلف الأشياء التى تنقصهم والتى تتوافر فيما يحيط بهم من بلاد منها اتيوبيا ، فنشطت الحركة التجارية ونشطت المراكز التجارية وازدحمت بالعرب النازلين فيها والذين توغلوا فى الداخل فى طلب مواد التجارة . فأخذ عدد المسلمين يزداد وكلهم ذو ميسرة . فشجع ذلك عدداً آخرا على أن يلحق بهم طلبا للثروة وبحثاً عن المال . وإذا ما ضعفت الدولة الإسلامية وانقسمت إلى عدد من الدويلات التى تحكمها بيوت، مالكة نشطت الحركة

التجارية نشاطاً ملحوظا لتسد مطالب هذه البيوت المالكة الجديدة وكلما اسرف فى الترف والنعيم واشتد فى طلب الرقيق ومواد التجارة المختلفة. فقد كون أحمد بن طولون جيشاً من السود(١) واشتد محمد بن طغج الاخشيد فى طلب (السودان) الذين تنعموا فى ظله حتى وصل أحدهم إلى منصب الإمارة(٢).

كل هذه الأسباب المختلفة تكون عاملا مهما من عوامل انتشار الإسلام فى اتيوبيا ومن ثم إلى ظهور الولايات الإسلامية فيها.

وثمة عامل مهم أدى إلى انتشار الإسلام فى اتيوبيا وظهور الولايات الإسلامية فيها، هو هذه السلسلة من الأحداث المتوالية المتعاقبة التى حدثت فى الدولة الإسلامية سواء كانت أحداثا سياسية أو اقتصادية دعت الناس إلى الهجرة.

وأول هذه الأحداث التى تعرضت لها الدولة الإسلامية فى بدء تكوينها هى حركة الردة.

ولقد أجمع المؤرخون على أن من قاموا بهذه الحركة هم الذين رفضوا الخضوع لقريش ونظروا إلى الإسلام على

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢

انه دين لادولة(١) ولم يروا الخضوع لأبى بكر بعد موت النبى عليه السلام، فامتنعوا عن دفع الزكاة ولكنهم لم يمتنعوا عن القيام بما فرضه عليهم الإسلام من فروض دينية أخرى.

فلم تكن الحروب إذن لأجل الدين بل كانت من أجل الكفاح فى سبيل السيادة السياسية، لاسيما وقد بدأت المعركة قبل ذلك بقليل وكان ميدانها الحقيقى يوم انتخب أبو بكر وفهمت قريش بانتخابه ان الأمامة حق لها لا ينبغى ان يعدوها إلى غيرها ونشأت على أثر انتخابه الارستقراطية القرشية وكانت ارستقراطية قد غلط بها أراد بها أبو بكر الامامة فى المهاجرين ما وجد بينهم الكفؤ القوى على النهوض بها فخولت قريش ذلك إلى عصبيتها ومنافعها(٢).

ولذا لا تجد بين المرتدين قرشيا واحدا وإن كثر بينهم من قبل الإسلام على كره بل كانت الثورة مركزة فى طى وغطفان والبحرين وعمان واليمن وحضرموت وسيرت إليهم الجيوش الإسلامية وأرغمتهم على الخضوع للدولة ودفع ما أبوا أن يدفعوه من قبل، ولكن حملة حربية أو أكثر

---

(١) Cambridge Medieval Hist. vol. II. p. 335.

(٢) الفتنة الكبرى ج ١ ص ٣٧

لا تجعلهم يقتنعون بما لم يقتنعوا به من قبل ، وقد تكفى هذه الحملة لأن تجعلهم يخضعون للدولة الإسلامية ولكنها لا تكفى لأن تجعلهم يعتقدون بسيادة قريش عليهم وأحقيتها فى هذه السيادة، فلم يكن أمام هؤلاء الناس إلا أن يخضعوا أو يهاجروا إلى حيث لا يمتد نفوذ قريش وسبيل الثانية على صعوبته أهون عليهم وعلى نفوسهم من الاولى على سهولته ويسره فكلنا يعرف العصبية العربية الجاهلية وعنفها وتفضيلها أن تركب الزلل والصعب والخطأ على أن تخضع لغيرها فلم يكن أمام هذه القبائل أو القوى منها على الأقل إلا الثانية وهى الهجرة .

فإذا استعرضنا أمامنا كل البلاد التى قد يخطر بالبال أن يهاجر إليها هؤلاء القوم فلن نجد أقرب إليهم من شرق افريقيا عامة ومن اتيوبيا خاصة ، حيث كانت تسير أقدامهم وأقدام أسلافهم من قبل وإلى حيث يعيش إخوانهم ينعمون بالحرية والجاه والثروة لا يخضعون لسلطان قريش ولا لغير قريش من القبائل العربية الأخرى الضاربة فى شبه الجزيرة، فأخذت أفواج منهم تعبر البحر وتترك بلادها التى خضعت لسلطان قريش وحملت اسلامها معها ولم ترتد عنه مما يدل على أن ثورتها الأولى لم تكن ضد الإسلام باعتباره ديناً من الأديان ولكنها

كانت ضد السيادة القرشية والدولة القرشية التى لم يتصوروا أن يكون خضوعهم لها نتيجة حتمية لاعتناقهم الإسلام، فكان اليمنيون والحضارمة أول هؤلاء المهاجرين وأسبقهم، ولا غرابة فى ذلك فهم اقرب الناس إلى اتيوبيا واكثرهم خبرة بهذه الرحلة واشد القبائل العربية عصبية وعداوة لقريش وسلطان قريش .

وبعض هذه القبائل التى بقيت رضيت ان يحكمها ابو بكر فالشيخ كبير السن لا ينساق إلى الخصومات . ولكنها لا ترضى ان يحكمها غيره فما كاد عمر يتولى ويأخذ الناس بسياسة تخالف سياسة ابى بكر حتى بدأت هذه القبائل تشعر بشدة وطأته عليها فقبيلة مخزوم التى كان عمر يناصبها للعداء منذ ايام النبى وابى بكر ويتحين الفرص للإيقاع بخالد بن الوليد ويمنعه الشيخ من ان تمتد يده إلى سيف الله المسلول شعرت بأن ايامها قد ولت فما كاد الشيخ يودع دنياه حتى استقبلت مخزوم مع عمر شراً، فعزل خالد من رئاسة الجيش ولا بد انه اتبع هذه البداية بأشياء اخرى حى رأينا ود بن هشام المخزومى برأس قبيلته وهى تودع الحجاز وتتجه إلى اتيوبيا لتستقر هناك فى منطقة من اخصب مناطقها وهى منطقة شوا (١)

(١) Cerulli p. 9.

وفى أثناء حكم الشيخين كان آل البيت يبيتون على آمالهم التى يرونها منهارة أمامهم ولكنهم يتحينون الفرص لإنعاشها، فما كاد عمر يلحق بسلفه حتى انتعشت أمالهم ورأوا فى ترشيح على للخلافة بوادر هذا الأمل ولكن خلافة عثمان قطعت عليهم أحلامهم، فلم يجدوا بدا من أن ينضموا إلى الناقمين على عثمان انتظاراً ليومهم، وما كاد على يعتلى منصب الخلافة حتى رأوا الطامعين يمنعونهم ثمرة صبرهم الطويل . فقام الزبيريون وعلى رأسهم فاطمة ينازعونهم الأمر ويحولون بينهم وبينه. وما كادوا ينتهون منهم ويشعرون أن الأيام قد أقبلت عليهم حتى قام الأمويون يحولون بينهم وبين ما ينشدون ، فصبروا حتى يأتى يوم يشعر فيه المسلمون بحقهم ويسلمون لهم به ، ولكنهم وجدوا آمالهم قد أنهارت إلى غير رجعة . وذهب الأمر من يدهم حين تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه . هنا طاشت أحلامهم ورأوا فى الانتظار هدما كاملا لآمالهم فقاموا بزعامة الحسين بن على مطالبين بحقهم مناضلين دونه ولكن الأمويين ومعهم فريق كبير من العرب ما كانوا يعرفون لقرابة النبى عليه السلام حقا ورأى الأمويون فى قيام هذه الفتنة أضعافاً لهيبتهم وسلطانهم ومحاولة لإخراج الأمر من

يدهم بعد أن تعبوا فى الحصول عليه وبذلوا له ما بذلوا فقابلوا خروجهم بشدة ما بعدها شدة وعنف ما بعده عنف ولم يرعوا مكانتهم من المسلمين ولا قرابتهم من النبى .

وإذا كانت مذبحة كربلاء قد اسلمت الأمر إلى الأمويين إلا أنها أشاعت فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية شعوراً بالفزع (١) وصبغت العداوة بين الأمويين والطالبيين بالدم فأيقنت القبائل العربية كلها أن لا سبيل إلى الحياة الحرة الأبية تحت ظل الدولة الأموية كما أيقن الطالبيون أن أية محاولة جديدة لن تزيدهم إلا فناء، فأخذوا يتفرقون فى البلاد ويمعنون فى الهرب والاختفاء وتقصد جماعات منهم إلى حيث لا يمتد سلطان الأمويين . فقصدت جماعة منهم شواطىء إفريقيا الشرقية تتبعهم جنود الدولة الأموية وإذا كان التاريخ لم يسجل لنا إلا هرب زيد بن الحسن بن على وبعض أنصاره من الزيدية بعد أن فشلت ثورتهم أيام هشام بن عبد الملك واستقرارهم على نقطة فى ساحل إفريقيا الشرقى الجنوبى وتوسيع رقعتهم بفضل من كان يتوالى عليهم من المهاجرين من شبه الجزيرة إلا أن استيلاء بنى أمية على مجموعة جزر الدهلك يدلنا على

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى ج١ ص ٤٢١

اتجاه موجات أخرى من الهاربين، فلابد أن جماعة أكبر من الأولى قصدت أتيوبيا ووجهت إليها الدولة الأموية الجزء الأكبر من قوتها وجعلت همها أن تراقبهم مراقبة دقيقة فاستولت على مجموعة الجزر لتتمكن من ذلك على أتم وجه(١).

ولم يكد يزيد بن معاوية يستريح من ثورة الشيعة تتابعه نقمة المسلمين عامة والشيعة خاصة حتى خرج عليه الحجاز(٢) فلم يكن العنف الذى قابل به هذه الثورة الجديدة بأقل من العنف الذى قابل به الثورة الأولى، فأرسل إليهم مسلمة بن عقبة ففعل فى المدينة ما لا يفعله مسلم، فقتل أغلب من بقى من المهاجرين والأنصار، وانتهكت حرمة المدينة وانتهبت(٣) وافتضت فى المدينة ألف عذراء، فاصطبغت عداوة الحجاز بالدم كما اصطبغت عداوة العراق من قبل، ولم ينم الحجاز على الضيم فخرج للمرة الثانية على الأمويين وبايع عبدالله بن الزبير، واستطاع هذا أن يضم إليه الكوفة والبصرة وخراسان، وقوى أمره واشتد حتى استطاع أن يخمد ثورة المختار ويقتله(٤)

(١) Arnold, Thomas p. 352

(٢) الكامل حـ ٤ ص ٤٨

(٣) نفس المصدر ص ٥٦

(٤) نفس المصدر ص ٧٣

ومن معه من الشيعة ومنهم عمر وعبد الله أبنا على بن ابى طالب، وظلت ثورته فى الحجاز تسع سنوات يناضل أثناءها الامويين ويتغلب عليهم حتى حصره الحجاج بن يوسف الثقفى بمكة سنة ٧٣ وقتله.

ولقد قام المسلمون القاطنون على الساحل الغربى للبحر الأحمر بنصيبهم فى الحروب خير قيام، فلديهم المراكب العديدة والثروة الكبيرة والرجال المسلحون الناقمون على بنى أمية فامدوا ابن الزبير بما يلزمه من المؤونة والسلاح حتى استطاع أن يصمد هذه المدة الطويلة ولا نستطيع أن نعلل بغير ذلك الحملة البحرية التى قام بها عبدالعزيز بن مروان والى مصر بقيادة البغيث(١).

ولم تكن ثورة عبد الله فى الحجاز ثورة شخص ولا هزيمته هزيمة قبيلة أرادت أن تستولى على الخلافة. ولكنها ثورة هذا الإقليم مبعث النهضة والإيمان الذى رأى سيادته قد ولت(٢) ورئاسته قد أدبرت. ثورة هذه القبائل التى تسكنه والتى رأت نفسها وقد أصبحت تابعة بعد أن كانت

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٧٣ .

(٢) تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ ص ٤٥٩

متبوعة. كما أنها كانت ثورة القبائل الأخرى التى هزمتها قريش فى الردة وأملت عليها أرادتها وسيادتها فقد كان معظم المناصرين لعبد الله من اليمنية الذين أوقدوا نار الحرب الأولى(١).

فلا عجب اذن إذا فر أهل المدينة لينجوا بحياتهم إلى الاقطار النائية(٢) التى لا يصل إليها سلطان الأمويين، وإذا عنى المؤرخون بتسجيل فرار أهل المدينة فلانهم أهل البلد المفضل ولكن لابد أن هجرة اليمنيين كانت أسرع وأعنف ويكفى للتدليل على كثرة المهاجرين أن نذكر أن المدينة والحجاز بعد هذه الثورة أصبحت كأنها مدينة لا ماضى لها. أو مدينة ذات ماض مجهول حتى أن المنصور ثانى الخلفاء العباسيين حين زارها حاجا احتاج إلى مرشد ليهديه إلى الاماكن التى كان يعيش فيها السابقون من أبطال المسلمين(٣) ولم يثر الحجاز بعد ذلك قط، وأغلب الظن إن رؤوسه قد اكتسحها الحجاج ومن بقى منها هاجر إلى حيث الأمان والدعة أما أواسط الناس فأنصرف إلى التجارة يعوض بما يجنيه منها ما تعذر عليه

(١) نفس المصدر ص ٤٢٩
(٢) نفس المصدر ص ٤٢٥
(٣) نفس المصدر والصفحة

من سيادة سياسية. وأهملت الجزيرة العربية بعد ذلك من الأمويين اهمالا شنيعا فلم يكن يولى على الحجاز أو اليمن الا كل طاغية يمعن فى اذلال القوم والتنكيل بهم، كمحمد بن يوسف الثقفى عامل صنعاء الذى كان يسب على بن ابى طالب على المنابر. وعثمان بن حيان على الحجاز وفى ذلك يقول عمر بن عبد العزيز (الحجاج بالعراق وأخوه محمد باليمن وعثمان بن حيان بالحجاز والوليد بالشام، وقرة بن شريك فى مصر. امتلات بلاد الله جورا(١)).

ولم يكد عمر بن عبد العزيز يتولى أمارة الحجاز مدة يسيرة ليبدأ فيه عهداً من الاصلاح حتى يعزله الوليد بن عبد الملك بخالد القسرى(٢).

وبلغ من أهمال القوم لهذا المصر أن طمست الآبار حتى أصبحت مكة قليلة الماء وخيف على الحجاج العطش(٣) وفى سنة ٨٠ هـ أصابها سيل الجعاف الذى هلك فيه خلق كثير من الحجاج وغرقت بيوتها وبلغ السيل الركن(٤).

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢٣
(٢) نفس المصدر ص ٢٤٨
(٣) نفس المصدر ص ٣٢٣
(٤) نفس المصدر ص ٣٠٠

كل هذه العوامل مجتمعة دفعت بالكثير من أهل الحجاز واليمن إلى الهجرة إلى حيث كان يهاجر أسلافهم وإلى حيث لا تمتد إليهم أيدى الولاة الجفاة أو الخلفاء (الظالمين) وإلى حيث يصيبون حظاً من الثراء وكانت هذه الجماعات فى هجرتها تقصد الساحل إلى حيث المدن الساحلية الآهلة بالسكان المزدحمة بعروض التجارة ، أو إلى الشريط الصحراوى الذى يلى الساحل حيث يشتغلون بالرعى على نحو ما كانوا يشتغلون فى بلادهم أو إلى الداخل حيث الخصوبة ومراكز تجارة الرقيق وأسواقها[1] .

وكثرة قيام اليمنيين على الحكم الأموى تعبر أبلغ تعبير عن مقدار سخطهم عليه وعما كانوا يلاقونه فى ظل هذه الدولة ، فقد انتهزوا فرصة إنشغال الدولة بحرب العباسيين فخرجوا بقيادة طالب الحق وأستولوا على مكة وهزموا جيوش الأمويين وثنوا بالاستيلاء على المدينة ، ووصل طالب الحق من اليمن فى ثلاثين ألفاً وظل يحارب الدولة فى أكثر من موقعة حتى هزم وقتل ومعه نحو ألف حضرمى[2] .

---

(١) Luca dei Sableli p. 217

(٢) الكامل جـ ٥ ص ١٥٨

وفى سنة ١٣٢ جاء دور الأمويين الذين حلت بهم الهزيمة وشردوا فى الأرض ليشربوا من الكأس التى طالما سقوا منها الآخرين فخرجت جيوش العباسيين والشيعة من الشرق يقودها كبير دعاتهم أبو مسلم الخرسانى[1] وأوقعوا بجيوش نصر بن سيار عامل الأمويين على خراسان وفر مروان (الحمار) إلى مصر فدخلها لثمان بقين من شوال سنة ١٣٢ أيام ولاية عبد الملك بن مروان[2] فوجد أهل الحوف الشرقى واهل الأسكندرية والصعيد قد سودوا فعبر إلى الجيزة ومعه عبد الملك وغيره من حواشيه وأمرائه وأقاربه من بنى أمية فلقيه صالح بن على ببوصير وقاتله حتى قتل فهرب من معه إلى الصعيد وأوغلوا فى الهرب جنوباً حتى وصلوا إلى النوبة وأستقر عدد منهم هناك وواصل بعضهم السير إلى أعالى النيل وذهب آخرون إلى مصوع وعبرت قلة منهم البحر إلى جدة من جديد[3] وواصل أبو العباس سياسة القتل والتشريد فيمن بقى من الأمويين حتى استقر عبدالرحمن الداخل فى الأندلس فلا نستبعد أن يستقر أخوان لهم فى أتيوبيا أو شرق إفريقيا .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٥٣ .

(٢) Lncadei Sabelli p. 207

ولم يكد العباسيون ينتهون من بنى أمية حتى التفتوا إلى الشيعة الذين أفاقوا إلى ماوقع منهم من غفلة فقاموا ينازعون العباسيين الأمر فخرج فى الحجاز محمد بن عبد الله بن الحسن ابن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية(١) ولكنه قتل وحمل رأسه إلى المنصور . وخرج أخوه إبراهيم فى العراق(٢) وكان مصيره كمصير أخيه . واستمر النزاع بين العلويين والعباسيين طول العصر العباسى فكلما قام عباسى ، قام علوى يدعو إلى نفسه ويقاتل ويقتل فلما تولى الهادى (١٧٠ — ١٩٦) خرج عليه الحسين بن على بن الحسن (٣) فقتل وحمل رأسه إليه وخرج على هارون الرشيد يحى بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية (٤) ولكنه قتل فى السجن بعد أن أمنه الرشيد .

ولما حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون رآها العلويون فرصة سانحة فخرج محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن بن الحسن بن على أبى طالب(٥) ولكنه مات أثناء

(١) الكامل جـ ٥ ص ٢١٢

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢١٦ .

(٣) الكامل جـ ٦ ص ٣٢ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٤٤ .

(٥) الكامل جـ ٦ ص ١٦٢ .

القتال واستمرت الفتنة وقضى عليها أيام المأمون بعد عناء.

وفى عهد المعتصم خرج محمد بن القاسم بن الحسين بن على (١) فهزم وأودع السجن حتى تمكن من الفرار والاختفاء .

وفئة أخرى ناصبت الدولتين الاموية والعباسية العداء وامضت فى محاربتها فى سبيل القضاء عليها وهى الخوارج فثاروا فى الجزيرة أيام المنصور لكن قتل قائدهم قضى على حركتهم وفرقهم فى البلاد حيث حاولوا النجاة برقابهم .

كل هذه الثورات المستمرة كانت موردا لا ينضب لافراد مهزومين يهاجرون إلى البلاد البعيدة حيث لا تمتد إليهم أيدى الخلفاء . وأتيوبيا بموقعها الجغرافى وخصبها ووفرة مواردها كان فيها ولا شك اغراء كبير على أن تقصدها اعداد كبيرة من هؤلاء الفارين .

إلى جانب هذه الاحداث السياسية العنيفة كانت هناك أحداث أخرى ولكنها لا تمت إلى العنف بصلة ولم تكن لتقل عن الاحداث الأولى أثراً فى توجيه العرب والمسلمين وجهات معينة .

فقد ظهر فى الدولة الاسلامية منذ أيام أبى بكر وعمر

(١) الكامل ص ١٦٤

طبقة من الأستقراطية الذين أثروا مما كان يصيبهم من غنائم وأسلاب فى الحروب الكثيرة التى قامت بها الدولة فى هذا الوقت المبكر من تاريخها ، كما أثروا من من التجارة أو غيرها من الأعمال ، كما كانت لهم مكانة عظيمة فى نفوس المسلمين لقربهم من النبى ومن رجال السلطة فى المدينة فأمسكهم عمر المدينة ولم يأذن لهم أن يتفرقوا فى الأرض [1] خوفا على المسلمين أن يفتتنوا بهم، وخوفا منهم من أن يتدخلوا ويسيئوا استعمال سلطتهم فيما يعود بالنفع عليهم والضرر على غيرهم . فلما تولى عثمان أفسح لهم الطريق كما وصلهم بالصلات الضخمة من بيت المال . [2] فنقم على ذلك فريق من المسلمين . ولعل أباذر يمثل هذه الطبقة من الناقمين [3] حتى كانت من العوامل التى أدت إلى الثورة على عثمان . ولابد أنه كان يوجد بجانب أبى ذر فريق يشاركه رأيه ويرى ما يراه ولكن ما نزل بأبى ذر وأشباهه من اضطهاد أوقع الرعب فى قلوب أفراده وجعله يتبع طريقا غير الذى تبعه أبو ذر ولم يكن هذا الطريق غير طريق السكوت على الضيم أو الهجرة إلى حيث

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٤

(٢) نفس المصدر ص ١٣٤

(٣) الطبرى ص ١٣٧

يحاولون ولوج باب الثروة وكانت أتيوبيا أحدى ميادينها ومن هؤلاء الناقمين عمار بن ياسر الذى غضبت له مخزوم حينما أراد عثمان أن يلحقه بأبى ذر [1] ومخزوم ناقمة منذ أيام عمر وقد خرج منها فريق إلى أتيوبيا برئاسة ود بن هشام المخزومى كما رأينا .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة فى التاريخ الاسلامى فقد امتلأت الكتب بأخبار الهبات التى كان يسبغها الخلفاء على أعوانهم مما كان يبعث الرضى إلى نفوسهم ويخلق السخط فى نفوس آخرين . وهذه الثروات الضخمة التى أصابت أفرادا فى الدولة الإسلامية وهذا الثراء العريض الذى كان من نصيب قلة من الناس إلا يدفع بآخرين من الطبقة الوسطى إلى ولوج باب المخاطرة طلبا للثروة من أصعب وجوهها وهو الهجرة إلى البلاد البعيدة أو القريبة طلبا للجاه والغنى ؟

ولكن هذه العوامل التى كانت تدفع بالعرب إلى الهجرة إلى ساحل افريقيا الشرقى عامة وإلى أتيوبيا خاصة لم تكن لتصل إلى غايتها مالم تقابلها من الناحية الأخرى عوامل

---

(١) الفتنة الكبرى ص ١٦٥

أو ظروف من شأنها أن تشجع هؤلاء القادمين على الاستقرار .

كانت أتيوبيا تحت حكم الامبراطور الذى يعيش فى أكسوم ويسيطر على الجزء الشمالى من الهضبة الحبشية وسيطرته على الأجزاء الأخرى كانت تمتد وتنكمش تبعا لقوته ، فالطبيعة فى أتيوبيا لاتساعد على انتشار النفوذ إلا بقوة الجيوش القادرة ويحكم الأجزاء الأخرى ملوك أوأمراء يمتد نفوذهم إلى أقصى مايستطيعون أيضا وقد يخضعون وقد لايخضعون للامبراطور تبعا للظروف الخاصة بكل منهم وقد ذكر أحمد بن على بن عبد القادر المقريزى فى الألمام (ولكل إقليم من هذه الأقاليم الأثنى عشر ملك ولكل من تحت يد الحطى (الأمبراطور) وتحت يده تسعة وتسعون ملكا وهم تمام المائة)(١) . وجاء فى صبح الأعشى(٢) أن (فى بلاد الحبشه سبعة ملوك مسلمين لهم سبع ممالك كل مملكة منفردة بملك وبها الجوامع والمساجد ينادى فيها بالأذان وتقام بها الجمع والجماعات وهم مع ذلك تحت إمرة صاحب أمرا ملك

(١) ص ٣

(٢) جـ ٨ ص ١١

ملوك الحبشة يختارلولاية ملكهم من شاء توليته ولايردون ولا يصدرون إلا من أمره) .

وقد يمتد نفوذ بعضهم إلى أكثر من بلاد أتيوبيا فقد شملت مملكة عيزانا حمير وريدان وأتيوبيا وسابا وصالحين وسيامو وبيجا وكاسو(١) كما استطاع الملك كالب أن يغزو اليمن ويخضعها ومعها نجران لنفوذه(٢) .

وقد أطلقت الأسرة الحاكمة فى أتيوبيا على نفسها اسم الأسرة السليمانية نسبة إلى الأسطورة التى يدعيها ملوكها من أنهم من نسل سليمان ملك بيت المقدس .

وكان تعيين هؤلاء الأمراء بيد الأمبراطور ولكن هذا لايحدث إلا إذا كان الامبراطور قويا وسلطته على هؤلاء الأمراء تامة . ولكننا نستطيع أن نقول أنهم كانوا خاضعين له من الوجهة النظرية وهو الذى يعينهم أو يقر تعيينهم وكان من حق هؤلاء الأمراء أن يعينوا أمراء من دونهم خاضعين لهم وما دام الأمراء خاضعين للأمبراطور فلابد أنهم يرتبطون معه برباط الولاء . فهو يساعدهم فى حروبهم . التى يشنونها

(١) Budge Vol.I p149

(٢) المصد رالسابق ص ٢٦١

أو التى يشنها الخارجون عليهم من أمرائهم. على أن يساعدوه هم أيضاً إذا طلب منهم ذلك. وأن يدفعوا له جزية سنوية(١) وهو نظام بدا لبعض الكتاب الأوروبيين مثـالا للنظام الاقطاعى فى أوربا فاطلقوا عليه هذا اللفظ متناسين ما بينهما من فروق أصيلة. أو أن قلة دراستهم للنظام الأتيوبى جعلتهم لا يفطنون إلى ما بينهما من فروق ومن هنا لابد لنا أن نأتى بكلمة قصيرة لنظهر هذا الفرق.

من المعروف أن النظام الإقطاعى قام فى اوربا نتيجة لضعف الملكية وعجزها عن أن تضفى حمايتها على اطراف الدولة. فلجأ الناس إلى الاشراف الذين رتبوا على حمايتهم لهؤلاء الناس حقوقا عليهم. ثم التزامات على الملك الذى أعطاهم الأرض(٢) ومن ثم أصبح النظام الإقطاعى هو تقسيم الملك لدولته إلى اقطاعات يعين لكل منها أميرا يتولى حماية أهلها نيابة عن الملك على أن يرتب على هؤلاء الأهالى حقوقا خاصة نظير هذه الحماية. وحقوقا أخرى تجاه الملك نظير هذا الإقطاع. ولما كانت الزراعة هى أساس الحياة الاقتصادية

(١) فتوح الحبشة ص ٣٨

(٢) Thorndike. p222

والاجتماعية فى اوربا فى هذا العصر ارتبط الإقطاع بالأرض(١) وبذلك أصبح الشعب فى جميع الإقطاعات طبقة محمية والنبلاء فى جميع الإقطاعات طبقة خاصة حامية. فانقسم المجتمع الأوروبى إلى طبقتين. طبقة متبوعة من الاشراف تقوم مهمتها على حماية الأهالى وهى فى نفس الوقت تابعة للملك الذى يملك حق سلب النبيل إقطاعه. إذا اهمل أو قصر فى القيام بالتزاماته وطبقة تابعة لا تملك إلا هذه التبعية.

وكانت هبة الملك الأرض للنبيل التابع له لا يترتب عليها أية حقوق قضائية كحق البيع أو التصرف فى الأرض على أى وجه كان (٥).

وكان هذا المالك الجديد يملك الأرض ومن عليها من الناس كلهم يعمل لمصلحته. وكان جميع الذين يعيشون على هذه الأرض فناله يعمل فى أرضه لمدة معينة كل عام بل يستطيع النبيل التصرف فيهم بالبيع. وإن كان لا يملك حق بيع المرأة دون زوجها أو الابنة دون والديها ولكن الحال لم يكن كذلك فى أتيوبيا فقد ترتب

(١) Jbid p, 227

(٢) Jbid p, 22 g,

على قوة أحد الملوك وضعف الولايات الأخرى خضوعها لهذا الملك القوى الذى استطاع فرض سلطته بحد السيف طالما تمكنه قوته من هذا التسلط وطالما كان ضعف التابع يحول دون تحرره . وترتب على هذا الخضوع توقيع شروط أو التعارف على شروط تبيح لكل من التابع المتبوع بعض الحقوق على الآخر(١) ولدينا مثل من هذا النظام فى الاتفاق الذى عقده (الإمبراطور) نجوس نجست يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥) مع ملوك لاستا من الأجويين عن طريق الانبا تكلاهيما نوت (٢) فقد نص هذا الاتفاق على أن يكون التاج ولقب ملك الملوك من حق الإمبراطور يكونوا أملاك . وأن يحتفظ ملك لاستا بولايته (مملكته) وأن يحمل لقب نجوس وأن يجلس على عرش ذهبي مماثل لعرش الإمبراطور وأن تكون له شارات ملكية مصنوعة من الفضة . وكذلك سنان رمحه وطبوله محلاة بالفضة أيضاً .

وكان جميع من يعيشون فى مملكة الملك الاتيوبى من الأحرار كل يعمل لمصلحته الخاصة وهو وإن كان لا يملك

---

(١) Morie T. 11. P. 183

(٢) Conti Rossini, Revue Seme tique, Octobre 1902

الأرض فملكية الملك لها من الوجهة النظرية فقط فهو لا يبيعها ولا يتنازل عنها .

ولنعد الآن إلى موضوعنا فنقول أن المهنتين الأساسيتين لجميع السكان هما الرعى والزراعة والمدن منثورة على الهضبة نثراً خفيفاً والمدينة لا تعدو بضعة أكواخ من القش لا تزيد على عدد محدود مهجورة أغلب النهار يحيط بها سور من النباتات الجافة أو الأشواك .

ولقد قلنا قبل ذلك أنه يظهر أن هزيمة الجيوش الحبشية بمكة عام الفيل كانت ساحقة إذ أخذت أتيوبيا بعدها تتراجع إلى حدودها فلم تستطيع التدخل حينما غزا الفرس اليمن وأصبحوا سادة للشواطىء اليمنية كما أصبحوا خطراً يهدد الشواطىء الإفريقية وأخذت نزعتها الجبلية تتغلب عليها فضعفت سلطتها على السواحل الشرقية وإن ظلت خاضعة لها وأخذ التجار اليمنيون يغزونها يؤيدهم الفرس وأخذت أتيوبيا بعد ذلك تدخل فى دور من التقهقر والاضمحلال سببه الأكبر ولا شك ضعف السلطة المركزية أو سلطة ملوك أكسوم فقوى الإشراف وأخذوا فى قتال بعضهم بعضاً .

وفى سنة ٦١٥ حدثت الهجرة الأولى فى الإسلام أثناء حكم الملك أرماه الذى يطلق عليه المسلمون اسم النجاشى .

فى الوقت الذى أخذت فيه الدولة الإسلامية تتكون وتدخل فى سلطتها الشام وفارس ومصر وغيرها من بلاد الشرق كانت أتيوبيا تجتاز دوراً من الانحطاط والتقهقر استمر طوال القرنين الثامن والتاسع كثرت فيهما الحروب بين الأمراء وانتشرت المجاعات والأمراض التى قاسى منها الأهالى الشىء الكثير (١) .

ولقد عثرت البعثة الألمانية التى تشتغل فى أكسوم على وثائق تزيد هذه الحقيقة وضوحا فأولى هذه الوثائق كتبها الملك دانيل يصف فيها هجومه على القبائل المعادية فى كسلا واستيلاؤه على غنائم وفى الثانية يصف هجوم أهل ولكايت على أكسوم ونهبهم اياها فهزمهم وغنم منهم غنائم كثيرة وفى الثالثة يصف فيها الملك رجوعه منتصراً إلى أكسوم ثم تنصيبه ملكا عليها ، هذا بينما أسرع الملك الشرعى إلى أكسوم ليجد دانيل متملكا اياها فوضع فى السجن دون أن تسفك قطرة

Budgə Vol 1; P, 267 (١)

دم . كل ذلك دون أن يشعر دانيل أن هناك سلطة للحكومة تستطيع أن تقاومه (١) .

وفى أواخر القرن العاشر استطاعت أسرة جديدة هى أسرة الأجويين (نسبة إلى إقليم أجوا) أن تتغلب على ملوك أكسوم وتأخذ منها مكان السيادة على بقية الأمراء وتقول المصادر الأتيوبية أن هذه الأسرة كانت يهودية وأول ملوكها الملكة استر Esther أو جوديت Juaith ملكة سمن التى حكمت أربعين سنة استطاعت فيها أن تتعقب المسيحية فى أكسوم وما حولها ثم تذكر الأساطير أن من جاء بعدها من الملوك تبينوا أن معاداة المسيحية واقتلاع جذورها وتحويل اعتقاد النفس عنها إلى اليهودية أمر مستحيل فاعادوا الديانة الأصلية وأرسلوا إلى مصر يطلبون مطرانا جديداً وقيام هذه الأسرة يدل على ماكان عليه ملوك أكسوم من ضعف استطاعت معه هذه الأسرة أن تتغلب عليها وتأخذ منها العرش ولكن قصة ديانتها اليهودية واستطاعتها أن تمحو أثر المسيحية فى أكسوم وما حولها ثم عودة خلفائها بعد ذلك إلى المسيحية قصة أظن أن حقيقتها تنحصر فى أن أسرة

Budge Vol I P 375 (١)

اجوا حينما أرادت أن تتولى العرش استغلت العناصر المغلوبة ومنها اليهود وأنصار الديانات القديمة على نحو ما استغل العباسيون الفرس والشيعة فكون اليهود جزءاً من الجيش المحارب استطاع أن يهدم الكنائس ويخرب البيع المسيحية اينما حل (١) حتى إذا استتب الأمر لهم كما استتب للعباسيين بعد أيام الخليفة الأول لم يعد الملوك فى حاجة إلى أصطناع اليهود فاظهروا حقيقة سياستهم كما أظهر العباسيون جلية الأمر للشيعة .

ويقول كتاب كبرانجست كما تقول الأساطير أن ملوك أسرة الأجويين كانوا أحدعشر ملكا وأن حكمهم استمر ٣٤٢ سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وتقول الأساطير الأخرى أنهم تسعة فقط وتعطينا كل من الأسطورة والكتاب ثبتا بأسماء ملوكهم .

ومعلومات المؤرخين عن العصر لا تعدو بضعة حوادث متفرقة أهمها أيام حكم الملك السابع لا ليبالا Lalibala مما يجعلنا نعتقد أن سلطة ملوك هذه الدولة لم تكن تختلف كثيراً

(١) Budge Vol 1 P 124

عن سلطة من سبقها من الملوك فكانت لا تتعدى منطقة العاصمة وما حواليها أما غير ذلك فنهب بين الأمراء الذين يقضون وقتهم فى الحروب المستمرة لعدم وجود سلطة مركزية تكبح جماحهم أو تدخلهم تحت طاعتها والناس أثناء ذلك غير مطمئنين إلى أرزاقهم لا يملكون من الأمر شيئا فهم يشاهدون حقولهم تخربها الحرب ومحصولاتهم تنهب ومواشيهم تساق أمام أعينهم ليغتصبها الجنود النازلون عليهم نزول البلاء ، وفى ظل حالة كهذه لا يمكن أن يستقيم أمن أو تسير تجارة فعمد الفلاحون وسكان القرى إلى ان يكفوا أنفسهم بأنفسهم . ولكن تجارة واحدة زادت وأزدهرت نتيجة لهذه الفوضى وهذه الحروب تلك هى تجارة الرقيق فطالما كانت الفوضى هى السائدة والأمراء وأتباعهم منهمكون فى الحروب احتاجت مهنتا الزراعة والرعى إلى الايدى العاملة وليس هناك من مورد لها إلا الرقيق الذى يسبى فى الحروب أو يشترى بالمال ولا بد أن عدد الرقيق الاول كان كثيرا جداً إذا قيس بعدد الرقيق المشترى بالمال .

هذا بينما كانت مصر وبلاد المشرق والدولة الاسلامية تخضع لحكومة منظمة تسعى فيما فيه خير للشعبين من تحسين

للزراعة والتجارة والصناعة(١)

ومن حوادث أسرة الأجويين أن مجاعة حدثت فى مصر أيام الخليفة المستنصر بالله أستمرت سبع سنين فاعتقد المصريون أن أتيوبيا قد حولت مجرى النيل فارسل الخليفة وفدا ومعه هدايا كثيرة طالبا أعادة النيل إلى مجراه القديم (٢)

وأهم ملوك الاجويين سابعهم لاليبالا (١١٨٠ - ١٢٢٠) الذى أتخذ لقب جبرا ماسقال الثانى فقد رفعه الاتيوبيون بعد موته إلى مرتبة القديسين وأحاطوا مولده وحياته بمجموعة كبيرة من القصص والخرافات لجماعة من النحل كانت تحوم حول رأس أمه أثناء ولادته ولم يكن هذا النحل سوى ملائكة تسبح بحمد الله وتغنى للأم التى كانت تعانى الآم المخاض. كما أنه حمل إلى السماء على أجنحة الملائكة لمشاهدة الله وأن أعدائه دسوا له السم أكثر من مرة ولكنه كان ينجو رغم أكله الطعام المسموم. وسر هذه الأقاصيص ظاهر فقد أهتم لاليبالا أثناء حكمه بتعمير الكنائس القديمة وبناء كنائس

---

(١) كان العالم الاسلامى يخضع فى ذلك الوقت للدولة العباسية فى بغداد بينما قامت فى مصر الدولة الفاطمية فالآيوبية فالماليك

Budge vol. I. P 277 (٢)

جديدة ويقال أنها كانت عشرا ولقد اشتغل فى بناء هذه الكنائس عدد من الصناع المصريين الذين هربوا من مصر وربما تعزى هذه الأقاصيص ايضا إلى رغبة أنصاره فى احاطة اسمه بهالة من التقديس لظهور أمراء منافسين أقوياء يريدون الاستيلاء على السلطة .

وتولى العرش بعده نكويتا لآب Nekueta Laab وهو أمير مسيحى من لاستا Lasta ولا ندرى علاقته بلا ليبالا وأغلب الظن أنه أمير غريب شعر فى نفسه القوة فتقرب إلى القبائل المعادية لقبائل أمهره كانت تعيش فى شرق أتيوبيا وجنوبها (٣) وتمكن بمساعدة هذه القبائل أن يستولى على العرش ويعيش معيشة بوهيمية يطارد النساء أينما كن فجعل يطارد جوديت أبنة لاليبالا وهى تهرب منه حتى لم تجد مفرا إلا الانتحار فأثر ذلك فى نفسه وأعاد اليه عقله وندم على ما فعل حتى لقد فضل أن يترك العالم ويتعبد فى دير تحت تأثير رئيس الاسافقة عليه وما زال تأثير هذا الأسقف يزداد حتى يصبح المحرك الوحيد لسياسة الملك فأتفق معه على أن ينزل عن العرش لاحد أفراد الاسرة السليمانية القديمة

Budge Vol. p. 131. (٣)

التى كانت تحكم فى شوا ولكن رغم هذا الاتفاق حكم ثلاثة ملوك أجويين آخرين ارتقى بعدهم العرش يكونو أملاك (١٢٧٠ - ١٢٨٥) أول ملوك الأسرة السليمانية .

ويرى روسينى أن لقصة ارتقاء يكونو أملاك العرش نتيجة اتفاق القديس تكلا هيمانوت مع اخر ملوك اجوا اتفاقا سلميا نصيبا من الخيال كبيراً بل يرى أن يكونو أملاك كان مطالبا بالعرش يسنده رجال الدين فى شوا وعلى رأسهم ابونا تكلا هيمانوت، وعمد هو إلى تأليف جيش من ست ولايات تنصره وتؤيد دعواه وأستطاع بهذه الجيوش أن يهزم أسرة اجوا ويطارد ملوكها ونرى أخبار هذه المطاردة مذكورة فى الوثيقة العربية التى أتينا بها فى الباب الثانى حين يقول المؤرخ (وكان انهزام أمحر من أرض ورجح فى شهر صفر سنة أثنين وعشرين وخمسائة) وهى التى تعادل فبراير سنة ١١٢٨ وهذا يؤيد رأى روسينى فى أنه لم يكن هناك أتفاق سلمى بين (القديس) تكلا هيمانوت وملوك أسرة اجو ولكن الأمر لا يعدو أن يكون تأييدا منه ومن رجال الدين ليكونو أملاك . ومقابل هذه المساعدة وهب رجال لدين ثلث أراضى الدولة وأرسل إلى مصر وفدا يطلب

مطرانا وكان ذلك أيام الظاهر بيبرس أحد سلاطين دولة المماليك الأولى ولكنه رده خائبا .

وخلفه أبنه يجبياصيون (١٢٨٥ - ١٢٩٤) الذى أثر عنه أنه أتصل بالسلطان قلاوون يطلب مساعدته على أرسال هدايا إلى الرهبان الأثيوبين المقيمين ببيت المقدس وكان لهذا الملك خمسة أولاد أتفق معهم أبوهم قبل موته على أن يحكم البلاد كل واحد منهم سنة بالتناوب وليس هناك من دليل على ما كانت عليه البلاد من فوضى وضعف أبلغ من هذا الدليل ولكن خامسهم وهو ودم أرعد استطاع أن يحكم خمسة عشر عاما متوالية ولا أظنه أستطاع ذلك إلا بعد إيقاعه باخوانه واحدا إثر واحد فى حروب مستمره لا بد أنها أدت إلى كثير من الفوضى وسفك الدماء بالأضافة إلى الحروب التى دارت بينه وبين مسلمى أيفات وتبعه أبنه عمداصيون الأول الملقب بجبرا ما سقال الثالث فحكم ثلاثين سنة (١٣١٢ - ١٣٤٢) نصفها الأول غامض لا ندرى عنه شيئا ونصفها الثانى أشد غموضا لانه شغل نفسه فى محاربة صبرالدين صاحب عدل بعد أن أنضم اليه على بن صبر الدين وهو رابع ولد من أولاد عمر ولسمع الذى ولاه الامبراطور هذه الولاية وأسبغ عليه من حمايته ما مكنه من أن

يستولى على مملكة شوا ويضمها إلى أملاكه سنة ٦٨٧ (١٢٨٨) كما تقدم .

وأن من يقرأ أخبار هذه الحروب وما كان يحدثه كل فريق فى أرض الآخر من نهب وسلب وتخريب وأحراق يمكنه أن يتصور أن ماقاساته أتيوبيا فى تلك الفترة كان سببا فى أنهاكها حتى استطاع الامبراطور أن يتغلب على خصمه ويهزم جيوشه هزيمة منكرة يكون من أثرها أن يتقدم صبر الدين اليه مقدما فروض طاعته .

وخلفه أبنه نوايا كرستوس (١٣٤٤ - ١٣٧٢) وفى عهده قبض على التجار المصريين وأرسل جنوده لتنهى القوافل المصرية من دخول أتيوبيا حينما سمع أن السلطان فى مصر تشدد فى طلب الضرائب من مسيحييها وسجن بطريركهم الانبا مرقص الرابع فاصيبت التجارة بين مصر واتيوبيا بضربة شديدة حتى ارتفعت أصوات المصريين بالشكوى ونسبوا ماأصابهم من شر إلى طمع السلطان وسياسة وزيره، فلم يسعه إلا اطلاق سراح البطريرك وأرسل من يحمل إلى الأمبراطور نبأ هذا الاطلاق لتعود التجارة إلى ما كانت

عليه من الرواج[١] .

ويظهر أن قوة هذا الامبراطور مكنته من أخضاع الأمراء والقبض على الثائرين منهم وورث أبناه نوايا مريم وداود (١٣٧٢ - ١٣٨٢) و (١٣٨٢ - ١٤١١) هذه القوة فاستطاعا أن يتغلبا على الثائرين بين الأمراء وأن يقيما عهدا من السلام تمتع به تيودور الأول الذى حكم لمدة ثلاث سنوات (١٤١١ - ١٤١٤) كانت كلها سلما متصلا وأرسل إلى السلطان برقوق اثنى وعشرين حملا محمله بالهدايا .

وفى عهد الفوضى الذى سبق تولى السلطان برقوق عرش مصر تفرق المماليك فى طول البلاد وعرضها هربا من أنصار السلطان الجديد وهرب حكام الصعيد إلى الجنوب كما هى عادتهم فوصل أتيوبيا منهم أثنان استخدمهما الملك اسحق (١٤٦٤ - ١٤٢٧) فى تدريب جنوده على استعمال النفط وكان أحدهما يدعى طنب اغا حاكم أحدى مديريات الصعيد وبهذا السلاح الجديد استطاع داود أن ينتصر على الثائرين من أمرائه ويرغمهم على الفرار أمامه أو ترك

---

١ Budge Vol. I. p. 299.

البلاد[1] ولكن هذه الحروب التى استمرت طوال عهد أسحق تقريبا لم تكن إلا لتزيد ارهاق الأهالى وتخريب أملاكهم ونهب مقتنياتهم بواسطة اى الفريقين المتحاربين ولذا كانت اتيوبيا طوال هذه الفترة فى حالة يرثى لها من الفقر والاضطراب والفوضى وزاد من سوء هذه الحالة قصر مدة الملوك الذين تبعوا اسحق الذى قتل فى الحرب سنة ١٤٢٧ فتبعه ابنه اندراوس فلم يحكم إلا نصف سنة ليخلفه عمه تكلا مريم ليحكم ثلاث سنوات ثم يخلفه سرو ياسوس أبنه ليحكم ثمانية أشهر واخوه عمدا ياسوس ليحكم ثمانية أشهر اخرى قاست أتيوبيا خلال هذه المدة كثيراً من عدم الاستقرار فلا عجب ان شعر زره يعقوب الأبن الرابع لداود وشقيق كل من تيودور واسحق وتكلامريم ان بلاده فى حاجة شديدة إلى كثير من التنظيم فاقدم على أحداث طائفة من الاصلاحات التى رفعته إلى مصاف عظماء الملوك فى تاريخ اتيوبيا

فمن الناحية الدينية جعل نفسه رأس الكنيسة الأتيوبية وجعل أملاكها تحت إشرافه المباشر كما نظم جملة تنظيمات دينية فيما يتعلق بالمعتقدات والأعياد فنص على تقديس يومى

(١) الالمام ص ٤

السبت والأحد من كل أسبوع والتاسع والعشرين من كل شهر تذكارا لميلاد المسيح والثانى عشر من كل شهر تذكارا لعيد ميلاد الملاك ميخائيل .

وسافرت فى أيامه بعثتان دينيتان الأولى برئاسة الأب اندرواس الأنطونى من مصر والأخرى برئاسة الشماس بطرس وراهبين أتيوبيين من دير القديس أنطونيوس إلى مجمع فلورنسا الدينى سنة ١٤٣١ وهناك شرحوا للمجتمعين أن عقيدتهم الأرثوذكسية والعقيدة الكاثوليكية متفقتان إلا فى بعض نقط بسيطة وقد خلدت هذه الوفادة فى صورة مازالت محفوظة فى الفاتيكان وهى الدليل الوحيد الباقى على أن هذه البعثة قد أرسلت فعلا .

وعين زره يعقوب موظفا خاصا مهمته تعقب غير المسيحيين والتبليغ عنهم لمحاكمتهم ويذكرنا ذلك بصاحب الزنادقة الذى عينه المعتصم لتعقبهم وإبلاغ الحكومة أمرهم لمحاكمتهم .

وعين زره يعقوب إلى جانب الأمراء موظفين خاضعين له مباشرة لحكم المقاطعات وتلقى أوامر الحكومة وتنفيذها وليرفعوا إليه كل ما يرونه مخالفا لهذه الأوامر وأطلق على هؤلاء الموظفين اسم جراد وكانوا من الطبقة العسكرية ووضع

فى سلطتهم حق مصادرة أملاك من لايخضع لأوامرهم (١) .

وأن هذا التنظيم ليذكرنا أيضاً بمافعله لويس الرابع عشر حينما أراد أن يحد من سلطة الإشراف فعين معهم موظفين لتلقى أوامر الحكومة وتنفيذها وليكونوا عيونا للملك عليهم فنستطيع أن نسجل هنا أن أتيوبيا قد سبقت أوروبا فى نوع الخطوات التى اتخذتها للحد من سلطة الإشراف والقبض على السلطة وجعلها مركزه فى يد الملك .

وكان من الطبيعى أن لاتقابل هذه الخطوات بالرضى من كافة الطبقات ولا سيما من هؤلاء الأمراء الذين أرغموا على الرضوخ لأوامر الملك وعلى دفع الأموال فى مواعيدها فالتفوا حول ابنه باأيدا مريم ووالدته ماجوسا ورفعوا راية العصيان فى وجه الملك وكان على رأس الثائرين ماهيكو نائب الملك فى هدية فبادر الملك بالقبض على كل من زوجته وولده وزج بهما فى السجن وظل يعذبهما حتى ماتت زوجته واشرف ابنه عل الهلاك فتدخل رجال الدين وتوسطوا فى إطلاق سراحه (٢) على أن يضمنوا ولائه للملك وأسرع الملك بجيشه

---

(١) Budge, Vol. I. 310

(٢) Budge, Vol. I. P. 312

إلى هدية فأسرع أهلها وقدموا ولاءهم له ، وفر زعيم الثورة إلى عدل فتبعه جند الملك فقتلوه ومن معه وعلقوا رؤوسهم على أبواب المدينة .

ولأول مرة فى تاريخ أتيوبيا أصبح الملك مصدر السلطة وتجمعت فى يده القوة كلها وخضع جميع رعاياه له سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين وأطلت أتيوبيا مرة أخرى على البحر الأحمر بقوة حقيقية .

وثار عليه أروبدلاى بن سعد الدين شقيق حق الدين بن أحمد وأرغم نائب الملك الجديد فى هدية وكان مسلما يسمى محمداً أن ينضم إليه فتظاهر بالانضمام إليه بينما كتب إلى الملك ينبئه الخبر فأرسل إليه الملك أن يظل كما هو مظهرا الولاء لبدلاى حتى تصله جيوش الملك التى تقدمت حتى وصلت هناك وانضم إليها محمد وتمكنوا من هزيمة جيش الثائر والقبض عليه فقتل وقطع جسمه ووزع على مدن اتيوبيا المهمة لتكون عبرة لمن تحدثه نفسه بالثورة على الملك وعومل محمد معاملة منطوية على العرفان بالجميل فخلعت عليه ألقاب التمجيد والتشريف ووزع كل ماعثر عليه فى معسكر بدلاى من نفائس على الكنائس .

ومات زره يعقوب بعد أن ترك سيرة حسنة حتى لقبه الأتيوبيون بسليمان الثانى (١).

وخلفه ابنه بإيدا مريم (١٤٦٨ - ١٤٧٨) ولا ننسى أنه كان على رأس الثائرين ضد أبيه فبادر بمجرد جلوسه على العرش بالعفو عن جميع المعتقلين كما أعاد تقسيم الدولة القديم وعين حكاما جددا على جميع المقاطعات فكان ذلك إيذانا بنمو سلطة الأمراء من جديد محاولين استرداد امتيازاتهم القديمه التى تمتعوا بها قبل أبيه ، فكان من أثر ذلك ان قضى الملك جل حياته وهو يقضى على ثوراتهم مهملا شئون رعيته حتى سمع الملك ان شعبه متألم لأنه يقضى حياته على ظهور الجياد ويترك شئون الدولة مهملة فقبض على المتآمرين ووضعهم فى السجون ولكن ذلك لم يحل دون استمرار الشكوى من الأهالى خصوصاً وأن التجارة السائرة إلى مصر قد تعرضت لنهب القبائل الساكنة فى إقليم دوبيه فحمل عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً (٢) وأرسل إليه محمد بن بدلاى وفدا يحمل الهدايا طالبا الإمان مقابل أداء جزية سنوية كما أرسل

(١) Budge, Vol. I. P. 312

(٢) يقع هذا الاقليم فى غرب أتيوبيا

إليه سلطان الدناكل رسالة يعلن فيها ولائه واستعداده لأن يقف بجانبه فى حروبه فرد عليه الملك رداً جميلا .

وتبعه بعد ذلك اسكندر أو قسطنطين الثانى (١٤٧٨ - ١٤٩٤) ثم نوايا امبسابزر (١٤٩٤ - ١٥٠٦) ثم لبنا دنجل الملقب بداود الثانى (١٥٠٨ - ١٥٤٠) وكانت قوة هذا الملك أثناء هذه الفترة مقسمة بين القضاء على الأمراء المسيحيين المناوئين له وعلى مسلمى الولايات الشرقية بعد أن اغيروا سياستهم مع ملوك اتيوبيا وأصبحوا يقفون منهم موقف المناوؤ والعدواة الصريحة بزعامة الإمام أحمد بن إبراهيم المقلب بالأشول تدفعهم يد أجنبية تريد الاستفادة من الموقف فلم يجد الملك بداً من الاستعانة بالدول الأجنبية فأرسل فى سنة ١٥١٦ إلى السلطان الغورى وفداً يطلب منه المساعدة(١) ولكن السلطان مات فى نفس السنة فى موقعة مرج دابق فولى ملك أتيوبيا وجهه شطر ملك البرتغال ولكنه مات دون أن يعرف نتيجة سعيه وترك البلاد فى حالة من الفوضى لم تشهدها فى كل أدوار تاريخها وتبعه ابنه جلاوديوس الذى

(١) Budge ,Vol I. P. 318 . ذكر ابن اياس أن هذا الوفد اقتصر على طلب السماح له بالسفر إلى بيت المقدس .

استطاع بمعونة البرتغاليين أن يقضى على قوة المسلمين وأن يعيد البلاد إلى حالة الاستقرار والهدوء ومن هذا الوقت بدأت أتيوبيا عهداً جديداً من تاريخها يختلف عما قبله من وجوه كثيرة يستطيع معها المؤرخون أن يطلقوا عليه اسم أتيوبيا الحديثة .

والحالة الدينية فى كل من مصر وأتيوبيا واضطرابها وتدهورها كانت أيضاً من الأسباب التى هيأت للإسلام أرضاً صالحة وأدت إلى ظهور الولايات الإسلامية فيها .

دخلت المسيحية أتيوبيا فى القرن الرابع الميلادى ومنذ ذلك الحين تبعت الكنيسة الأتيوبية الكنيسة المصرية التى تولى مطرانها فيشرف على الناحية الدينية فيها .

ولما انقسمت الكنيسة إلى شرقية وغربية تبعت الكنيسة الأتيوبية الكنيسة الشرقية بحكم تبعيتها لكنيسة الإسكندرية فقامت علاقات الود والصداقة بينها وبين الدولة الرومانية التى أصبحت ومعها مصر مصدرين هامين يمدان أتيوبيا بالثقافة الدينية . وفى القرن الخامس الميلادى قدم أتيوبيا تسعة من المصريين الرهبان لتعليم الاتيوبيين العقيدة

الأرثوذكسية (١) ولنشر الدين بين أهلها فكان على هؤلاء أن ينقلوا إلى اللغة الاتيوبية الأسفار المقدسة وكتب الطقوس وغيرها من الكتب الدينية التى احتاجوا إليها لفهم الدين والقيام بالعبادات كما انشأوا الأديرة للرهبان الذين أخذ عددهم فى الازدياد حيث وجدت الرهبنة أرضاً صالحة فترعرعت وانتشرت .

وبظهور الإسلام تلقت الدولة الرومانية الشرقية ضربة قاضية ففقدت فلسطين وسوريا ومصر كما فقدت شواطىء البحر الأحمر التى كانت حلقة اتصال بينها وبين اتيوبيا فتأثرت أتيوبيا بهذه الضربة وانقطع ما كان بينها وبين الدولة الرومانية من اتصال ثقافى وتجارى وأخذت تتراجع من عالمها ومن كنيستها ومن حركة تفكيرها وأخذ هذا التراجع يزداد شيئاً فشيئاً حتى نسيت أوروبا وجود هذه الدولة المسيحية فظلت قروناً لا تستطيع تحقيق مكانها بالضبط (٢) .

---

(١) Budge ,Vol I. P. 152

(٢) Luca dei Sabelli P. 205

ولقد كانت الكنيسة المصرية قبل الفتح العربى تعانى اضطهاداً مراً فإن الارثوذكس الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان عوملوا معاملة مجحفة حتى بذرت فى نفوسهم بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم (١) ولكن الفتح الإسلامى كفل لهؤلاء المسيحيين الحرية الدينية التى لم ينعموا بها من قبل فلم يضع عمرو بن العاص يده على شىء من ممتلكات الكنائس ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب ولكن أخذ عدد كبير من المسيحيين يتحول إلى الإسلام بدليل أن خراج مصر نقص فى أيام معاوية ابن أبى سفيان إلى خمسة ملايين دينار بعد أن كان اثنى عشر مليوناً فى عهد عثمان (٢) وأخذ عدد المسيحيين فى النقص والمسلمين فى الازدياد نتيجة لإعفاء من يسلم منهم من الجزية والخراج فقد ذكروا أن حفص بن الوليد الذى ولى مصر سنة ١٠٨ هـ (٧٤٤) لما وعد بإعفاء جميع الذين دخلوا فى الإسلام من الجزية انتحل هذا الدين عدد بلغ أربعة وعشرين ألفاً . وفى خلافة أبى العباس السفاح أنكر كثير من الأغنياء

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٩٥

(٢) نفس المصدر ص ٩٣

دين المسيح (١) ولم يكن جميع الولاة المسلمين متسامحين فقد بليت مصر بفريق من الولاة الظالمين الذين أخذوا فى هدم الكنائس للاستيلاء على ما بها من أعمدة كما أخذوا فى تحقير المسيحيين وفرض الضرائب القاسية عليهم مما دفعهم إلى الثورة فى سنة ٦٤٦ م وطرد العرب من الاسكندرية إلى حين ولم تكن هذه الثورة إلا الحلقة الأولى من سلسلة الثورات والفتن التى أثارتها الضرائب الفادحة

ورغم هذا الانتصار الذى حازه الإسلام فى مصر فإنه لم يستطع التوغل فى الجنوب فظلت ممالك النوبة مسيحية وكلاهما خاضع للكنيسة المصرية ورئيسها فى مصر وعندما نشبت الحرب بين ملكى أتيوبيا والنوبة فى سنة ٦٤٦ استطاع الأنبا اسحق البطريرك بنفوذه أن ينهى حالة الحرب (٢).

ولكن استمرار العلاقات الدينية بين مصر وأتيوبيا لا تعنى وجود هذه الرابطة المستمرة بينهما ولا وجود رأس الكنيسة الأتيوبية المرسل من مصر فى عاصمة أتيوبيا بصفة

---

(١) نفس المصدر والصفحة

(٢) Coulbeaux T. 1. P. 176

مستمرة فقد كانت هناك عوامل كثيرة أدت فى الغالب إلى عدم استمرار هذه العلاقة .

فبعد بلاد أتيوبيا عن مصر وصعوبة المواصلات بينهما كانت عاملا ولا شك له أثره فى عدم استمرار الاتصال بينهما (١) فقد كانت وفاة المطران فى الغالب تقرن بقيام وفد اتيوبى إلى مصر يحمل إلى البطريرك النبأ مع رجاء تنصيب مطران آخر وكان الوفد يحمل معه مبلغاً من المال كهدية تبلغ فى العادة عشرين أو ثلاثين ألف ريال وألفاً أوقية من العاج والمسك وفريقا من العبيد (٢) فيستضيف البطريرك الوفد مدة يقضيها فى اختيار مطران جديد من بين الرهبان .

وإذا ماتم اختياره رسم واستعد للسفر ولا نظن هذه الإجراءات تتم فى أقل من عام وإذا راعينا ضرورة اختيار المطران من الشيوخ المتقدمين فى السن كى يكون متعمقا فى دراسة الدين أمكننا أن ندرك أن هذه الإجراءات كانت تتكرر كثيراً فى أوقات متقاربة .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٢

Bulletin de la Société e'Archeologie Copte Vol IY p, 116

وصعوبة المواصلات فى داخل أتيوبيا واتساع الامبراطورية لم تكن تتيح له فرصة الاشراف على مايستلزمه هذا المنصب من إشراف على كل صغيرة وكبيرة من الأمور الدينية هذا إلى ما كان يسببه كثرة خلو المنصب من تراكم الأعمال وتعطيلها لاسيما مايتعلق بتنصيب القسس وغيرهم من أصحاب المناصب الدينية . مما كان يؤدى إلى شغور مناصب دينية كثيرة لمدة طويلة وإلى أرتباك الأهلين فى حياتهم الدينية . هذا من عدم وجود تعليم منظم أدى إلى أن يكون القادة الدينيون أنفسهم من أجهل الناس باصول دينهم وابعدهم عن الصلاحية لامثال هذه المناصب التى من شأنها أن تستلزم درجة من التفوق الذهنى والثقافى .

كذلك كانت الأحوال السياسية فى اتيوبيا سببا فى عدم استمرار العلاقات الدينية بين مصر واتيوبيا من الوجهة العلمية فقيام الأسرة الاجوبة فى أواخر القرن العاشر أدى إلى قطع هذه العلاقات مدة أربعين سنه (١) حتى إذا تولى العرش الملك جبرا ماسقال وتبين له صعوبة الحكم فى اتيوبيا مع الابتعاد عن الرئاسة فى مصر بادر بطلب وساطة الملك

---

(١) Coulbeaux T. L. P 236

جورج ملك النوبة لدى الانبا فلتاؤس البطريك فى القاهرة للتفاهم بارسال مطران فأرسل الأنبا دانيال .

ويظهر أن هذه القطيعة بين الكنيستين المصرية والأتيوبية لم تكن الأخيرة أثناء حكم الأجويين بدليل أن لاليبالا لما أرسل إلى مصر أيام الملك العادل فى طلب مطران ، ووصل المطران إلى اتيوبيا استقبله الأتيوبيون استقبالا حافلا فى العاصمة(١) .

ولما تولى العرش يكونو أملاك سنة ١٢٧٠ أول ملوك الأسرة السليمانية بادر بارسال وفد إلى مصر(٢) سنة ١٢٧٤ بطلب تعيين مطران جديد وتتبين من كتابه إلى السلطان فى مصر ومن الكتاب الذى أرسله بجبياصون فى سبتمبر سنة ١٢٩٠ (رمضان ٦٨٩) (٣) إلى السلطان قلاون أن هذه العلاقة كانت قد توقفت منذ وفاة الأنبا يؤنس فى ١٢٥٠ أى لثمان عشرة سنة خلت وأن المطران السريان الذى عينه يكونو أملاك قد سبب كثيرا من بلبلة الأفكار والاضطراب فى الدولة(٤) .

(١) نفس المصدر ص ٢٦٤

(٢) صبح الاعشى ج ٨ ص ١٣٠

Bulletin C opte Vol iv P. 120. (٢)

Leonibeaux T. I. (٤)

وقد أمضى عمدا صيون AmdaSion مدة حكمه مختلفا مع رجال الدين وعلى رأسهم المطران بسبب سلوكه المشين فقد عاشر خايلات أبية واختيه مما آثار عليه سخط رجال الدين فحرموه ، فلم يأبه بهم وقبض على المطران وشهر به فى الشوارع وفى الليل اشتعلت العاصمة نارا واتهم رجال الدين بأشعالها فبدأ معهم سلسلة من الاضطهادات حتى اخرجهم إلى دمبية وبيجامدر وهرب عدد كبير منهم إلى أدرة بحيرة طانا(١) .

هذا إلى أن التنافس بين غير واحد من الأمراء على العرش كان يؤدى فى الغالب إلى انضمام المطران ومعه رجال الدين إلى احدهم وفى حاله انهزامهم يصب جام غضبه عليه وعلى انصاره وربما طرده أو قتله ومعه عدد كبير من رجال الدين ويرسل إلى مصر فى طلب مطران جديد أما إذا كان المنصب شاغرا فيسارع كل واحد من المتنافسين فى طلب مطران فيجد البطريرك نفسه فى حرج يضطر معه إلى تأخير تعيينه وقد استمر هذا المنصب شاغرا فى القرن التاسع عشر بسبب التنازع على العرش مدة خمس وخمسين سنه .

Budge vol I P. 288 (١)

وفى العهد الإسلامى كان كثير من الولاة يحولون دون استمرار العلاقات بين مصر واتيوبيا إلى مدة كبيرة . حقيقة أنه كان هناك ولاية فهموا حقيقة هذه العلاقات وأفادوا منها وشجعوا على استمرارها ولكن كان هناك آخرون عملوا على عكس ذلك ، فقد رفض السلطان بيبرس أن يابى طلب يكونو أملاك فى تنصيب مطران مصرى (١) ، وكان من العادات المتبعة أن يكتب البطريرك مرتين فى العام إلى ملك اتيوبياوظلت هذه القاعدة متبعـــة إلى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى حينما وصل الية خطاب من ملك اتيوبيا يطلب فيه حسن معاملة الرعايا المسيحيين فاستدعى الخليفة البطريرك وسبه واهانة وأمره أن تكون هذه المكاتبات مستقبلا عن طريق الخليفة (٢) وكان بعضهم يشتط فى معاملة البطريرك والمسيحيين ويفرض عليهم الضرائب ويخاف أن يعلم عنه ذلك فى الخارج ، فقدروى السخاوى (٣) (أنه فى يوم الاثنين والعشرين من شعبان سنة ٨٥٢ عقد مجلس بين السلطان يوسف بن برسباى جقمق بالقضاةالاربعة وغيرهم منهم الشيخ

(١) Bulletin de la Société d'aeheologie Copte P118

(٢) Coulbe aux T. I. P. 287

(٣) التبر المسبوك ص ٢١٠

بدر الدين العينى نسيب بطريرك النصارى اليعـاقبة وكان السلطان قـد غضب عليه وضربه وحبسه فى سجن المقشرة وأخذ منه مالا كثيراً فامر بكتابة أشهاد عليه إلى أن لا يكتب إلى ملك اتيوبيابنفسه ولا بوكيله لا ظاهرا ولا باطناولا يولى احدا على بلاداتيوبيا لاقسيسا ولا أعلى منه ولادونه إلا باذن من السلطان ووقوفه على كتابته وانه متى خالف ذلك وانتقض عهده ضربت عنقه وحكم قاضى المالكية بذلك ونفذ بقية القضاة ثم قرىء الاشهـاد بين يدى السلطان والجماعة ورسم بكتابة خمس نسخ منه ليكون عنده وعند كل واحد من القضاة نسخة وانفض المجاس على ذلك) .

هذا إلى أن المطارنة المصريين كانوا دائما راغبين فى جعل الاتيوبيين يعيشون معيشة مسيحية حقيقية ، فهم وأن كانوا اعتقدوا المسيحية فمازالوا يتمسكون بالعادات التى كانوا يتمسكون بها أيام وثنيتهم أو يهوديتهم كعادة الزواج بأكثر من واحدة وتقديم الذبائح عند بناء الكنيسة، فكان المطران يكثر من لومهم على ذلك وتوصية البطريرك على المطارنة باستعمال الشدة فى هذه الناحيه فهمت خطأ وفسرت على أنها تدخل من المطران فى الشؤن الخاصة فتقاعدوا كثيرا فى طلب المطارنه

كلما هم واحد منهم بزيادة حملته على هذه العادات وأمثالها كالم يلجأوا إلى الكنيسة لعقد زواجهم مما أشاع الاضطراب فى علاقاتهم الزوجية .

وكثيرا ما أهين الإطران إذا ما جرأ على تنبيه الملوك إلى ما يقترفونه من أثام وأعمال منكرة كما كان رجال الدين الذين يرسلون من مصر فى بعض الأوقات مثالا سيئا من حيث تصرفاتهم الشخصية أو أعمالهم العامة التى تتعلق بوظائفهم فقد عاش الأنبا سمعان معيشة اثارت عليه كل من اتصل به حتى إذا ما أظهر الملك أو غيره اشمئزازهم من ذلك لم يتردد المطران فى الإنضمام إلى أعداء الملك وحرمانه .

فكان من أثر هذه الحالة أن ترك مسيحيو اتيربيا فى حالة يرثى لها من الانهيار الدينى وتركوا وحدهم دون راع أو سلطة ترعى مسيحيتهم حق الرعاية ليتلقوا وحدهم ضربات الإسلام فكان جهل رجال الدين الاتيوبين وجهل الشعب وعدم وجود الرعاية اليقظة المستمرة لهم سببا فى اعتناقهم للإسلام الذى أخذ ينتشر بينهم كما أن ظهور الزعماء المسلمين الأقوياء وتمكنهم من التغلب على الملوك المسيحيين جعل

الاتيوبين يبادرون بترك مسيحيتهم والدخول فى دين المنتصر إذا ما وجدوا هذا الاعتناق يقيهم من الاسترقاق ويصون أموالهم من النهب ونسائهم وأولادهم من السبي والقتل .

هذا إلى أن وجود الإسلام كديانة رسمية فى مصر كان له أثره فى انتشار العقيدة الإسلامية فى شرق أفريقيا . فقد كان الشبان الذين يظهرون ذكاء من أهلها يرسلون إلى الجامع الأزهر أو الجامع الأموى بدمشق لاتمام تعليمهم وقد خصص قسم فى الجامع الثانى لأهل زيلع وهى المدينة التى ظلت مسيحية حتى القرن العاشر فأصبحت مركزا من أهم المراكز التى دخلها الإسلام مما أدى إلى اعتناق أهل سيد امو والصومال وكذلك البجة والدناكل للإسلام خلال فترة يسيرة ، وقد توغل الإسلام فى الداخل نحو شوا الجنوبية ومملكة سيدامو عن طريق المسالك الطبيعية التى كان تسلكها التجارة بين ثغرى تجوبرا وزيلع .

إذا اجتمعت كل هذه الأسباب جميعا وأضيفت أشياء أخرى لا تقل عنها أهمية كنزعة الاتيوبيين الجبلية وكرههم للبحار وخوفهم من التوغل فيها إلى عدم إستطاعتهم تحمل

الحر الشديد مما يؤثر تأثيرا سيئا فى صحتهم، أدركنا لماذا تراجعت اتيوبيا ومعها المسيحية مختارة عن الساحل الأفريقى وما يليه من شريط صحراوى جاف حار ، وما يليهما معا من مناطق الهضبة الحبشية المنخفضة واخلت كل هذه الأجزاء ليحتلها المسلمون وفهمنا أيضا سر ظهور الإسلام فى اتيوبيا ومن ثم نشأة الولايات الإسلامية فيها .

الباب الرابع

بين المسلمين والمسيحيين

ذكرنا فى الباب السابق أن مسلمى أتيوبيا تألفوا من المهاجرين العرب الذين عبروا البحر فى أوقات مختلفة تحت ضغط ظروف مختلفة ومن انضم إليهم من الشعوب الأفريقية التى رأت فى الإسلام منقذا لها من الرق والوقوع فى ايدى النحاسيين وتجار الرقيق بالإضافة إلى من اعتنق الإسلام عن رضى وعقيدة من سكان البلاد ومن الطبيعى أن لا يتأتى وجود هذين النوعين الأخيرين إلا إذا وجد الفريق الأول أولا ، فلنحاول الآن أن نعرف اين نزل هؤلاء المهاجرون من العرب وحينئذ نستطيع أن نعرف اين انتشر الإسلام فى اتيوبيا وما هى علاقة المسلمين بالدولة المسيحية والمسيحيين فيها .

وقد ذكرنا أيضا أن هؤلاء المهاجرين العرب تكونوا من مختلف الطبقات فكان منهم زراع اليمن كما كان منهم تجار حضر موت وعمان والحجاز . كما نجد بينهم الأغنياء الذين

أرادوا أن يزيدوا مالهم من الأشتغال بالتجارة بعد أن امتلأت ايديهم بالمال وبعد أن رفضوا الخضوع لسلطان قريش ، وكذلك كثيرون من أفراد الطبقة الوسطى الذين أرادوا أن يسعوا إلى الثراء فى هذه المهاجر بعد أن امتنع عليهم فى أوطانهم الأصلية ، وكذلك الفقراء الذين تبعوا اسيادهم بحكم الولاء كما سعوا إلى الثورة التى سعى إليها غيرهم.

أما الذين احترفوا التجارة والذين قصدوا هذه الأرض الجديدة ليستأنفوا ما كانوا يشتغلون به فسكنوا الساحل وانضموا إلى من كان به أو توغلوا إلى حيث يجدون مصادر التجارة .

ولكن أى أجزاء الشاطىء كان معرضا أكثر من غيره لهؤلاء القادمين . لابد أنهم يقصدون المراكز العامرة أولا ثم يسيرون إلى غيرها من الأجزاء وأكثر هذه الأماكن عمرانا الجزء الشمالى حيث مصوع الحالية وحيث قامت ميناء عدول (ادوليس) القديمة وحيث تقترب اطراف الهضبة الحبشية من الساحل فتكون الظهير الذى يمونها بالسلع التجارية وما تحتاج إليه من مورد غذائى لأجل القاطنين فيها .

أما فيما بين هذا الجزء وبوغاز باب المندب فقفر تصعب

الحياة فيه صحراء الدناكل تمتد من الشاطىء مباشرة إلى مسافة كبيرة فى الداخل والهضبة بعيدة كما تنحدر انحدارا شديدا ناحية الشرق مما يجعل الصعود إليها صعبا .

ثم نشاهد منطقة أخرى تبدأ من شمال بوغاز باب المندب بقليل وتمتد على الساحل الجنوبى لخليج عدن حيث يقع حاليا الصومالان الفرنسى والبريطانى وحيث توجد موانى جيبوتى فزيلع وبربرة الحالية وهى منطقة تمتاز بقربها الشديد إلى الجزيرة العربية كما أنها أقربها مدخلا إلى الهضبة الحبشية عامة وإلى منطقة تعد من اخصب مناطقها وهى منطقة هرر خاصة .

أما الرعاة فقد وجدوا ضالتهم التى كانوا ينشدونها على سفوح الهضبة الشمالية حيث تقوم ارتريا الحالية وإلى حد ما فى صحراء الدناكل التى تمتد بمحاذات الساحل وكذلك على سفوح الهضبة الشرقية من جهة الجنوب وهى المنطقة المحيطة بهرر وكذلك فى صحراء الأوجادين التى تقع خلف المثلث المحصور بين خليج عدن والمحيط الهندى .

أما الزراع فلن يجدوا مأربهم فى الساحل ولا فيما وراء ذلك من صحراء جرداء قليلة المطر فلابد إنهم أخذوا يتسللون

إلى حيث مناطق الخصب والمطر فقصدوا شمال الهضبة ووسطها ومن ثم نستطيع أن نذكر أن أجزاء الهضبة التى قصدها هؤلاء المهاجرون أكثر من غيرها وهى :

(١) المنطقة الشمالية الساحلية حول مصوع الحالية وما وراءها من حواف الهضبة التى يطلق عليها اسم ارتريا .

(٢) منطقة تمتد من شمال بوغاز المندب بقليل إلى جنوبى خليج عدن ومنطقة الحافة الشرقية للهضبة التى تلى هذه المنطقة ويطلق عليها اسم منطقة هرر الحالية .

(٣) المنطقة التى تشمل موجاديشو الحالية والجزء الواقع جنوبيها بقليل.

ومن هذه المناطق الثلاث أخذ الراغبون فى الدخول إلى الهضبة فى التسرب إليها فالتجار لا يقنعون بمنطقة الساحل الذى لا يعدو أن يكون مدخلا أو مخرجا لتجارتهم ولكن المهم لديهم هو الأسواق التى توجد فيها السلع التجارية التى تحملها سفنهم .

أما المنطقة الأولى فمتصلة بالهضبة الحبشية اتصالا مباشرا ولكن غنى المنطقة بالسلع التجارية يقنع التجار بها ويجعلهم ويجعلهم راغبين عن التحول عنها إلى غيرها كما أن وجود

مملكة أكسوم فيما وراء هـــذه المنطقة المباشرة من ناحية الجنوب الغربى يقف حائلا دون هذا التوغل إذا رغبوا فيه ولكنه لا يمنع أن يتوغل فريق إلى الداخل ملتفا حول أطراف الهضبة الشمالية حيث عثروا على منطقة خصبة غنية يجد فيها التاجر والزارع كل ما يتمنى المهاجر وهى منطقة سنار التى لجأ إليها بعض المسلمين الذين أنحدروا من مصر فأفلحوا — مجتمعين فيها فيما بعد منتهزين فرصة ضعف ملوك النوبة المسيحيين فى أقامة مملكة سنار المسلمة وهى للتى أصبحت نواة دولة الفونج السودانية .

والمنطقة الثانية قريبة الاتصال بالهضبة الحبشية من ناحية الشرق وصحراء الدناكل التى تفصل الساحل عن الهضبة ضيقة فى هذا الجزء كما أن وادى نهر أواش يتيح لهم ممرا طبيعيا يقود بهم إلى المنطقة الوسطى من الهضبة حيث هضبة شوا وهى منطقة معتدلة المناخ غزيرة المطر تصلح لكل من الرعى والزراعة .

والمنطقة الثالثة بعيدة نوعا ما عن الهضبة الحبشية إلا أن واديى نهرى وبى شيلى وجوبا يقودان بسكانهما إلى المنطقة

الجنوبية الشرقية من الهضبة الحبشية حيث يقوم إقليم بالى الخصيب .

ولم تكن هجرة هؤلاء القوم فى أعداد كبير فلقد رأينا فى الباب السابق أنها كانت تحدث بصفة مستمرة وفى أعداد يسيرة وأن هذة الهجرة السلمية كانت تحدث – إلى حد ما – عقب كل حادثه من الحوادث السياسية أو ثورية الحكومة الحبشية البعيدة فى اكسوم أو الأمراء المحليين حيث أنها لم تأخذ شكل الغزو ، كما أن سلطة الحكومة أخذت تتراجع عن هذه الأجزاء منذ أن هزمت جيوشها فى مكة عام الفيل وأخذت فارس تسبغ على هؤلاء المهاجرين نوعا من الحماية . وبعد الاسلام تراجعت كل من الفرس واتيوبيا وأصبحت هذه الاجزاء – كما رأينا فى الباب السابق – تخضع لسلطة امبراطور اتيوبيا الذى يولى عليها حاكما من هبله ولكن سلطته عليها تكاد تكون اسمية .

واستمرت الهجرات طول القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادى أى الأول والثانى والثالث الهجرى وكان هؤلاء المهاجرون يفدون على هذه الأماكن ويقطنونها ويشتغلون فيما يشتغل فيه أهلها فى هدوء وسلام واخذ

المتوغلون يتخذون طريقهم إلى الداخل فى هدوء وسلام أيضا والدولة الحاكمة لاتهتم بهم لمسلكهم السلمى ولأنها قدبلغت من الضعف مبلغا هائلاحتى إذا قامت أسرة الأجويين سنة ٩٩٠ م لم تكن قوتها تختلف كثيرا عن قوة من سبقتها وأنا اتخذ من هرب بقايا الأسرة المالكة القديمة إلى منطقة شوا وأقامتها هناك بعيدا عن سلطة أكسوم دليلا على ما كانت عليه سلطة الحكومة من ضعف أتاح لهؤلاء المهاجرين التوغل إلى حيث يريدون خصوصا فى المنطقة الوسطى والجنوبية .

فعلاقة هؤلاء القادمين بالاهالى ما داموا قددخلوا البلاد دخولا سلميا يريدون الاستقرار لايطمعون فى أخذ ما بيدهم علاقة سليمة فهم – لا يمنعونهم النزول أو يتحرشون بهم ويكون موقفهم منهم سلبيا محضا . وإذا ما تبينوا نيتهم الحسنة سرعان ما تقوم العلاقات بينهم على أساس من الود والصداقة طالمايجدون أن التقرب من هؤلاء الناس ومصاهرتهم يصد عنهم غزوات تجار الرقيق ، ووجد أهل البلاد فى هؤلاء القادمين نوعا من الحماية فازداد تقربهم اليهم واندماجهم فيهم حتى أخذ عدد المسلمين يكثر طورا بالمهاجرين الذين يتوالون على اسلافهم وطورا بالوثنيين الذين ارتبطوا معهم برباط

المصاهر ووجدوا فى اعتناقهم الاسلام حماية لهم . ولا نستبعد أن يرتبط هؤلاء برباط المصاهر مع هؤلاء القادمين أيضا بعض المسيحيين واليهود . فجاء نتاج هذا الزواج جيل اسلامى جديد أخذ يكثر بتوالى الزمن وينضم إليهم من يعتنق الاسلام عن رضى وعقيدة لما يبيحه لهم هذا الدين الجديد من الاحتفاظ بعاداتهم الاجتماعية التى قد تحرمهم منها المسيحية والتى ينشط رجال الدين المسيحيين فى تأنيبهم عليها ومنعهم من اتيانها كما أن غياب الرئاسة الدينية ـ كما ذكرنا فى الباب السابق ـ وضعفها حرم هؤلاء المسيحيين من رعاتهم الدينيين الذين يوجهونهم التوجيه الدينى الصحيح .

ولم تكن العلاقة مع هؤلاء المهاجرين بالحكومة المسيحية تعدو فى هذا الطور علاقة الخضوع للأمراء الذين يحكمون هذه الاجزاء كما يخضع أهل البلاد . وكلما كانت سلطة الملوك والأمراء محترمة انصرف السكان إلى أعمالهم فى هدوء . يدفعون الضراب ويظهرون كما يظهر غيرهم من الموظفين بمظهر الولاء لهؤلاء الحكام (١).

أما مملكة شوا الإسلامية وعلاقتها بمسيحيي اتيوبيا

(١) Luca dei Sabelli P, 228

وملكهم . فنحن نجهل تماما كيفية قيام هذه الدولة كما نجهل كل شىء عنها . إذا استثنينا ما جاء بالوثيقة التى عثر عليها المستشرق شيرولى سنة ١٩٢٦ وهى تلقى بعض الضوء على الخمسين سنة الأخيرة من تاريخ حياتها فنحن لانستطيع إذن أن نعطى فكرة صحيحة عن علاقة هذه الدولة بالحكومة فى اكسوم كما أن المصادر الاتيوبية تكاد تجهل كل شىء عن هذه الدولة أيضا .

ومن هذه الوثيقة نقف على ثلاث حقائق خاصة بالحكومة الاتيوبية أو بمعنى أصح بامبراطور اتيوبيا الحقيقة الأولى هى (هرب امحر من أرض ورجع فى صفر سنة ٥٢٢) (فبراير ١١٢٨) ومن المرجح أن يكون المقصود بكلمة امحر هو الامبراطور . ولكن الوثيقة لاتبين أين هرب هذا الطريد ولو كان قد هرب إلى مملكة شوا لاجنا لبين المؤرخ ذلك دون تردد . فأغلب الظن أن يكون أحد الأمراء قد هاجم الامبراطور وهزمه واستولى على مقاليد السلطة مما اضطر هذا الامبراطور إلى الهرب إلى جهة لايعرفها المؤرخ . وسنة ١١٢٧ تقع فى النصف الثانى من أسره الاجويين وهى الفترة التى يجهل المؤرخون كل شىء عن حوادثها جهلا تاما فهل

كان هذا المهاجم الذى اضطر الامبراطور إلى الهرب أمامه أحد الأمراء الذين يحكمون فى شوا وينتسبون إلى الأسرة السليمانية ؟

قد يكون ذلك صحيحا وقد يكون غير صحيح ايضا فهذه الحادثة على كل حال لاتبين أية علاقة بين مملكة شوا الإسلامية والسلطة الحاكمة فى اكسوم أوغيرها من الولايات المسيحية.

الحقيقة الثانية هى (هروب دلمارة فى شعبان سنة ٦٧٧ (ديسمبر ١١٧٨) إلى الحطى).

فهنا تظهر علاقة ما بين دلمارة أحد السلاطين السابقين لشوا الإسلامية والامبراطور ما جعل الأول يلجأ إلى الثانى عقب اخفاق ثورته على دلجامس. فهل كانت هذة العلاقة علاقة صداقة فقط جعلت السلطان المسلم يلجأ إلى صديقه الامبراطور ؟ أم كانت علاقة تبعية أى أن سلطان شوا كان تابعا للامبراطور كغيره من سلاطين الولايات الاسلامية الشرقية فلجأ إليه يطلب منه العون خصوصا واننا نرى أن دلمارة هذا قد عاد إلى العرش مرة ثانية فى ذى الحجة سنة ٦٧٨ (مايو ١٢٨٠) وظل فيه حتى المحرم سنة ٦٨٢ (ابريل ١٢٨٣) وكلا الأمرين جائز وسنة ١٢٧٩ م تقع أثناء حكم

الامبراطور يكونو أملاك أول ملوك الأسرة السليمانية الجديدة وملوكها كانوا يحكمون فى شوا الغربية بينما كانت تقوم المملكة الإسلامية فى شوا الشرقية (١).

فهل كانت جيرة المملكتين سببا فى قيام صداقة بينهما مما دفع بملك شوا الإسلامية إلى صديقة عندما اضطر إلى ترك العرش ؟ أو أن مملكة شوا الإسلامية كانت تابعة لملوك اكسوم وعندما غلبتهم الأسرة السليمانية وأخذت منهم العرش تبعت مملكة شوا الأسلامية هذا الامبراطور الجديد بحكم تبعيتها القديمة لملوك اكسوم ؟

أما أنا فأرجح الأمر الأول فملوك الأسرة الاجوية كانوا ضعافا وسلطتهم لم تكن تعدوما حول عاصمتهم ولاليبالا تاسع ملوكهم لانكاد نعرف منه أكثر من اهتمامه ببناء الكنائس . وإذا فرضنا القوه فى ملوك هذه الدولة واستطاعتهم فرض سلطتهم على اجزاء أخرى من الهضبة . فمما لاشك فيه أن وجود الأسرة السليمانية فى شوا يدل على أنه لم يكن هنالك أثر مطلقا لنفوذ ملوك اكسوم على الأقل فى هذا الجزء من اتيوبيا فلدى ملوك شوا الإسلامية الفرصة

(١) Lnca dei Sabelli p. 25

السائحة كى يكونوا مستقلين تمام الاستقلال بجيرانهم ملوك الأسرة السليمانية . هذا مع فرض تبعيتهم السابقة لملوك اكسوم فإذا قام يكونو أملاك بعد ذلك وقبض على السلطة وورث الأسرة الاجوية كان عليه أن يخضع هذه المملكة الإسلامية لسلطانه ولو فعل لأرخها هذا المؤرخ العربى ولضمن وثيقة أخباره هذه الغزوة .

ولم لا يكون من الجائزان يكون ليكون أملاك يد فى كل أو بعض هذه الثورات المتلاحقة التى عكرت الخمسين سنة الأخيرة من تاريخ هذه المملكة الإسلامية .

والحقيقة الثالثة هى (موت الحطى فى جمادى الأول سنه ٦٨٧ (يوليو ١٨٨) واسم هذا الحطى طنت ويرى روسينى أنه تحريف ليكونو الملاك الذى مات ـ استنادا إلى وثائقنا المعروفة ـ فى سنة ١٢٨٥[1] وهذه الحقيقة لانستطيع أن نقف منها على شىء من العلاقة التى كانت بينهما .

فأغلب الظن أن هذه المملكة الإسلامية قامت فى سنة ٨٢٣ ه (١٣٨٨٩ م) فى وقت كانت فيه دولة اكسوم فى حالة من الضعف لا تمكنها من أن تتدخل فى شىء من

(١) Cerulli P 12

الحوادث التى تقع إلى القرب منها . فتاريخ أكسوم منذ انتهاء حكم الملك كالب فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى حتى انتهاء أسرة الاجويين فى أواسط القرن الثالث عشر يتلخص فى ضعف السلطة المركزية وزيادة قوة الأمراء واستمرار الحروب بينهم واضطراب لحبل الأمن وانتشار للفوضى فى أقصى حدودها .

فمن المرجع أن يكون أحد المهاجرين من شبه الجزيرة والذين استقروا فى هذا الجزء من أرض أتيوبيا واشتغلوا بالزراعة قد تبع أميراً من الأمراء فاقطعة أرضا فاستطاع بفضل شجاعته وأخلاصه أن يصل إلى أحد مناصب الأمارة تابعا لأميرها . ثم استطاع أن يجمع حوله من الأتباع وخصوصا المسلمين سواء من المهاجرين أو ممن اعتنق الإسلام من أهل البلاد ما مكنه من أن يفرض سلطته على غيره من الأمراء التابعين من أمثاله وفى هذه الحالة تكون هذه الأمارة بمثابة المغناطيس الذى يجذب إليه المهاجرين الجدد أو المهاجرين القدامى الموجودين فى أماكن نائية كما يزيد فى عدد المعتنقين للإسلام المستفيدين من قيام هذا الأمير وهذه الأسباب مجتمعة تجعل هذا الأمير يقوى ويشتد حتى

يصير من الأمراء الكبار الذين يخضعون غيرهم . بمثل هذا نستطيع أن نتصور الظروف التى أدت إلى قيام مملكة شوا الإسلامية فى الجزء الأوسط من الهضبة الحبشية فى منتصف القرن الثالث الهجرى وأوائل التاسع الميلادى .

وليس هناك من داع لأن نتصور أن هذه الدولة قد سلمت مما كان يحدث فى غيرها من الولايات الأتيوبية من تنازع بين الأمراء وحروب على السلطة فلا بد أنها اشتركت فى كثير من هذه الحروب ولابد أنها كانت أيضا مطمعا لكثير من الأمراء فشنوا عليها الغارات ولكن وجودها على مسرح الحوادث حتى سنة ٦٨٧ (١٣٨٨) يدلنا على أنها كانت على جانب من القوة مكنها من المحافظة على استقلالها طوال هذه المدة .

فهذه الدولة إذن كانت منذ قيامها على شىء من القوة التى جعلتها مستقلة عن ملوك اكسوم الضعاف الذين لم يستطيعوا أن يفرضوا سلطتهم على سواحل بلادهم حتى غلبهم عليها العرب أو على موانيهم حتى خرجت عنهم عدول (ادوليس) وصار البحر الأحمر بحرا إسلاميا(١) وخرجت دهلك من

---

(١) Luce dei Sabelli p,55

سلطانهم حتى إذا قامت أسرة الاجويين ولم تكن حالتها تختلف كثيرا عن سابقتها ظلت هذه الدولة كما ظلت مملكة شوا الغربية وعليها ملوك الأسرة السليمانية الهاربين كما ظلت غيرها من الممالك أو الولايات مستقلة تماما عن سلطة ملوك لاستا كما ظلت تتمتع باستقلالها طوال حكم هذه الأسرة يساعدها على الأحتفاظ بهذا الاستقلال ما كان عليه ملوك لاستا من ضعف وبعدها عنهم وما كان يفصلها عنهم من جبال وعرة هى التى تحف بمجرى تكاز الأعلى من ناحية اليمين والنيل الأعلى من جهة اليسار .

ومن مراجعة حوادث الوثيقة التى بين أيدينا وتواريخها ومقارنتها بالحوادث الأخرى التى كانت تجرى فى الولايات الإسلامية الشرقية نستطيع أن نقول أنه بينما كانت الأسرة الأجوية قائمة فى لاستا تربطها بملوك شوا المسلمين روابط من الود والصداقة قامت الأسرة السليمانية فى شوا ترقب الحالة وتنتهز الفرصة المواتية لتثب إلى العرش الأكسومى فأخذت تجمع رجال الدين حولها تبذل لهم الوعود كما أخذت توطد علاقتها مع المسلمين من سكان الساحل .

وقد استطاع يكونو أملاك أن يعقد مع أحد التجار

المسلمين الكبار فى أيفات وهو عمر ولسمع اتفاقا يقضى بمساعدة هذا الأخير له فى حروبه ضد الدولة الأجوية (١) لقاء توليته سلطنة أيفات(٢) وتركه له حرية العمـــل فى الولايات الإسلامية حتى إذا تم الأمر على مايشتهى الطرفان فى سنة ١٢٧٠ م (٦٧٠ هـ) أخذا معا فى أخضاع جميع الولايات الإسلامية التى ربما تكون قد انتهزت فرصة الأضطراب الذى ساد البلاد أثناء اعتلاء الأسرة السليمانية الحكم فثارت على على حكامها وأن هؤلاء الحكام قد انتهزوا الفرصة للاستقلال بولاياتهم عن سلطة الأمبراطور كما أخذا معا فى التآمر على الدولة الإسلامية فى شوا نالتدخل بين أمرائها المتنازعين على العرش حتى إذا سنحت الفرصة المواتية تقدمت جيوش أيفات الإسلامية بقيادة صبر الدين بن عمر ولسمع وبمساعدة الأمبراطور للقضاء على هذه الدولة المستقلة حتى استطاعا القضاء عليها نهائيا فى سنة ٦٧٧ (١٢٨٨) أيام حكم الملك يجبيا صيون .

---

(١) (وعندى فى عسكر مائة ألف فارس مسلم) من خطاب يكونوا ملاك إلى الظاهر بيبرس — تاريخ سلاطين المماليك ج ٢ ص ٣٨٣ .

(٢) الالمام ص ٩

وعلى ضوء هذه التفسيرات نستطيع أن نفهم ما ذكر عن الأمبراطور يكونو أملاك أنه كره العرب والمسلمين وهاجمهم أينما كانوا (١) وكبدهم خسائر جسيمة بينما لانجد أثرا لهذه الغزوات فى الوثيقة التى بين ايدينا والتى ذكرنا أنها تؤرخ الخمسين سنة الأخيرة من حكم هذه الدولة مما يدل على أن هذه الحملات كانت ضد عرب ومسلمين غير هؤلاء أى أنها كانت موجهة إلى مسلمى الساحل الشرقى فى سبيل أخضاعهم لسلطانه .

ويؤيد ذلك وصول أخبار هذه الحملات إلى مصر وأثارتها حفيظة السلطان بيبرس حتى إذا توجه إليه الامبراطور بطلب التوسط لدى البطريرك القبطى فى تعيين مطران لاتيوبيا(٢) رفض السلطان هذا الطلب(٣) ولم يشأ أن يذكر السبب الحقيقى لهذا الرفض بل علله بسبب تافه فى عبارة مقتضبة جافة وهى عدم وجود رسول للامبراطور يستطيع

---

(١) Budge, Vol P. 285

(٢) تاريخ سلاطين المماليك جا ص ٣٨٣

(٣) Colbeau T. I. P,287

أن يشترك مع البطريرك فى اختيار المطران (١) .

ووصول أخبار هذه الحملات إلى مصر لابد أن يكون عن طريق مسلمين كانوا على اتصال بمصر الأمر الذى لم نستطع أثباته على ملوك شوا الإسلامية بينما نعرف أن الأسطول المصرى كان يجوب البحر الأحمر ويتصل بمسلمى الساحل عن طريق زيلع هذا إلى أن ما نقرأه فى مسالك الأبصار من استقاء المؤلف لمعلوماته عن مسلمى الساحل الشرقى من عبدالله الزيلعى (٢) الذى كان فى مصر سنة ٧٣٤ يؤكد وجود هذا الاتصال .

ومن الطبيعى أن لا تكون هذه الحملات موجهة ضد سكان ولايات الساحل الشرقى بأعتبارهم مسلمين بدليل اشتراك جزء من المسلمين فى الجيوش الامبراطورية . بل لابد أن يكون هؤلاء المسلمون هم جنود عمر واسمع مما يسوقنا إلى القول أن هذه الحرب لم تتسم بسمة الدين بل كانت، كغيرها من الحروب التى ذخر بها تاريخ البلاد .

---

(١) Quatremère vol. II, p. 475.

(٢) جـ ٨ ص ١٥٦

فمنذ أن تولى عمر عرش ايفات وضم إلية شوا وغيرها من الولايات الإسلامية الأخـــرى أصبح هو صاحب السلطة العليا فيها، فهو الذى يعين ولاتها ويعزلهم بعد استشارة الامبراطور أحيانا أودون أستشارته أحيانا أخرى وقد أراد الامبراطور استرضاء اهالى هذه الولايات فشرع يعين عليها السلاطين من المسلمين فلم يأت حكم عمدآ صيون حتى كان جميع الولاة منهم .

وكانت هذه الولايات تدفع الضرائب السنوية المفروضة عليها للامبراطور عينا لامالا لسهولة ذلك على الأهالى (١) ، وبذلك تمتعت هذه الولايات بنوع من الاستقلال الإدارى تحت حكم عائلة وإلى اسمع (والسمع) منذ أبتداء الأسرة السليمانية وأخذ هـذا الاستقلال يؤتى ثماره منذ أيام يحبيا صيون حين تقول لنا المصادر أن حكمة مر بسلام وساد فى أثنائه حسن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، وكان السلاطين خاضعين للامبراطور يصرفون الأمور وفق الأوضاع المتفق عليها وليس أدل على حسن العلاقات عن أرسال يحبياصيون وفده إلى القاهرة فى طلب المطران برئاسة مسلم ليجلو الصورة

---

(١) صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٩٢

التى علقت بذهن ولاة الأمور فى مصر جزاء أعمال يكونو أملاك والتى صورها لهم سوداء حالكة عبدالله الزيلعى ورفاقه أثناء زيارتهم لمصر .

ولابد أن هذا الهدوء والاستقرار قد انتجا أثرهما من أزدياد أنصراف أهل هذه الولايات إلى العلم وليس أدل على ذلك مما يذكره لنا صاحب تاريخ اليمن فى هذه الحقيقة . فملوك الدولة الرسولية أهتموا بأنشاء المدارس ووقفوا عليها الاوقاف الكثيرة ورتبوا لها العلماء الذين انصرفوا إلى الدرس والتدريس .

وكان مسلموا اتيوبيا يكثرون من السفر إلى اليمن للتردد على مدارسها والتزود منها ويذكر لنا المصادر اليمنيه وتعلموا كثير من أبناء اتيوبيا الذين قصدوا مدارس اليمن أسماء بها ثم استقروا هناك حيث وجدوا البيئة العلمية الملائمة وظلوا بها حتى ماتوا ، وإذا كانت هذه المصادر لم تأت لنا بنشاطهم العلمى واقتصرت على ذكر اخبار وفاتهم وقد قرن اسم كل واحد منهم ببلده الأصلى . إلا أنه ولا شك أن من مات منهم باليمن كان قله إلى كثير من

العلماء الاتيوبيين الذين قصدوا مدارس اليمن للتعلم فيها وآثر البقاء ولابد أنهم بالنسبة لمن عاد منهم إلى بلادة قلة لاتكاد تذكره لانهم آثروا الاشتغال بالعلم والتخصص فيه. وهذا كله لايقاس بمن طلب العلم وعاد للاشتغال بأى عمل آخر غير العلم والتعليم . وثمة شىء آخر وهوان اغترابهم فى طلب العلم يدل على رخائهم المادى فلابد أن تجارتهم تحت الحكم السليمانى قد نشطت واسواقهم قد عمرت ومراكبهم امتلات بمواد التجارة ينقلونها إلى أسواقها القريبة والبعيدة.

ولكن نوعا من هذه التجارة لا يمكن أن ينشط برضاء الحكومة السليمانية القوية (١) . ذلك هو تجارة الرقيق فلا يمكن لحكومة تحترم نفسها وتحافظ على رعاياها أن تسمح أن يكون أهلها تحت رحمة هؤلاء النخاسين خصوصا وأننا نعرف أن ليس هناك من شىء يعرضهم لهؤلاء التجار الا كونهم مسيحيين، فلو كانوا مسلمين لما تعرض لهم التجار بشر. فلابد أن هذه التجارة قد تعرضت لتضييق الحكومة السليمانية .

---

(١) صبح الاعشى ج ٥ ص ٣٢٧ والالمام ص ؟

ولابد أن هؤلاء التجار قد تعرضوا للحرمان من مزاولة هذه التجارة ، وربما تكون الحروب التي شنها يكونو أملاك على المسلمين والتي وصل خبرها إلى مصر فمنعت السلطان بيبرس من أجابة طلب الامبراطور من تعيين مطران مصري كانت حروبا ضد تجار منهم وحملها هؤلاء إلى مصر على أنها تضييق على المسلمين عامة ولا بد أن السلام الذي ساد عصر يجبياصيون كان نتيجة القضاء الموقت على نشاط هؤلاء التجار. واستمر هذا الهدوء وهذا السلام يخيمان على أتيوبيا وعلى الجزء الإسلامي منها خلال حكم ودم أرعد الذي استمر ثلاث عشرة سنة والنصف الأول من حكم عمدا صيون أي ما يقرب من ثلاثين سنة . يحدثنا عنها صاحب الألمام - وهو المعني بسرد أخبار الحروب بين المسلمين والمسيحيين - فلا نجد فيها سوى أنه يذكر أسماء السلاطين الذين تولوا حكم ايفات فيقول أن عمر وإلى اسمع ولى أيفات فحكم بها مدة طويلة وكانت له شوكة قوية وترك أربعة أو خمسة ملكوا أوفات من بعده واحد بعد الآخر منهم يذكر منهم حق الدين حتى كان أخرهم صبر الدين الذي تولى في حدود سنة ٧٠٠ من سني الهجرة (أي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي)

وطالت مدته فلما مات قام ابنه علي بن صبر الدين(١)

ولكن هذا الموقف لا يمكن أن يستمر طويلا . وهذا التضييق على الأرزاق لا يمكن أن يرضى عنه التجار وكان أول من يضيق بذلك تجار عدل(١) فقاموا أيام عمدا صيون ومعهم صبر الدين حاكمهم فقتلوا موظفا اتيوبيا كان يشرف على تدبير المصالح التجارية الملك ويظهر أنه النجادي رأس الذي كان مكلفا بتحصيل المكوس أو مشرفا يراقب التجارة ويمنع سفر الرفيق واتبعوا ذلك بأن جمعوا جموعهم وغزوا ما حولهم وقتلوا كثيرين .

ويظهر أنهم كاتبوا حاكم هدية الذي كان أقوى أخوانه من سلاطين هذه الولايات وأكثرهم خيلا ورجلا وأشدهم بأسا رغم صغر ولايته(٣) فخرج معهم . فلم تكد هذه الأخبار تصل إلى الإمبراطور عمدا صيون حتى أسرع وسار إلى هدية فقبض على حاكمها وأرسله إلى العاصمة تاجولات بينما تابع هوسيره إلى صبر الدين وفر هذا أمامه فدخلت الجيوش

---

(١) ص ٩

(٢) Brucé 111.P 48

(٣) صبح الاعشى ج ٥ ص ٣٢٧

الامبراطورية عاصمته اوسا وخربتها وحملت مابها من غنائم (١) .

وسار الملك بعد ذلك إلى دوارو وحاكمها يسمى حيدر وقد تحالف مع صبر الدين فتقدم إليه هذا الاخير فى الطريق يطلب الصفح ولكن الامبراطور قبض عليه وقتله واقام مكانه اخاه جمال الدين وقبض ايضا على صبر الدين وارسل به إلى العاصمة .

ولم يكد المملك ينثنى ليعود حتى خرج التجار واغاروا على شرق الهضبة كما هجموا على حدود ايفات حيث وجدوا قافلة من التجار الاتيوبيين تخيم أثناء الليل فذبحوا منها عددا وحملوا الباقين اسرى واعادوا الكرة أكثر من مرة فخرج إليهم الملك للمرة الثانية ونازلهم وتغلب عليهم .

وكان نجاح الملك فى القضاء على هذه الحركات داعيا لهؤلاء التجار أن يتحدوا فانضم إلى تجار عدل تجار مارا ووجارا ولكن الملك هزمهم هذه المره ايضا وارغمهم على الفرار امامه حتى لقد قبل أن الملك هجم على قائدهم وقتله

(١) Morie p 209 .

بنفسه فهربت بقيتهم وتركت الارض مليئة بجثث القتلى وتبعتهم جيوش الملك فاهلكتهم وغنمت منهم غنائم كثيرة .

ولكن وجود الملك فى هذه الصحراء المحرقة المنبسطة اعطى جمال الدين حاكم عدل الجديد فرصة لا تعوض فكاتب حاكم ايفات وهو على بن صبر الدين وصمما على أن يهاجما الملك فى هذه الفرصة الملائمة فكتب جمال الدين إلى على يقول (أن ملك الحبشة محصور فى جبل لا يستطيع الافلات منه وحينئذ يمكنك عمل احد أمرين اما أن تقدم له الهدايا الفاخرة وفى هذه الحاله يتحتم عليك أن تبيع زوجك وأولادك وخدمك لانك لن تكون الا خادما له أو تتصرف بحكمة فتجمع رجالك القادرين على القتال وسالحق بك بفرسانى ومشاتى وننقض عليه ونقتله وجيشه بضربة واحدة) (١) .

استجاب حاكم ايفات لدعوة جمال الدين وهجما معا على الملك الذى خاض المعركة بكل شجاعة ورغم أنه لم تكن معه الاكوكبة يسيرة من جنده ، فأنه استطاع أن يهزمهم وكانوا قد ربطوا بعضهم بملابس بعض كى لا يفر منهم أحد.

(١) Histor yof Ethropia 1. p292.

وعزل الامبراطور الحاكم ووضع اخاه نصر الدين، كما امر على ابن صبر الدين سلطان ايفات أن يسير معه إلى العاصمة . وولى مكانه أحمد حرب ارعد فاقام على عند الملك ثمان سنين حتى رضى عنه وعفى عنه واعاده إلى ولايته، وطلب ابنه احمد فذهب إليه ، ويظهر أن هذا الاخيرا قام ايضا بالعاصمة مدة ليست بالقصيرة ، إذ يحدثنا عنه صاحب الالمام أنه ولد له هناك ثلاثة أولاد منهم سعد الدين محمد ، واخيرا رضى عنه كما رضى عن ابيه من قبل ، واعاده إلى ولايته وكان ابوه على مازال على قيد الحياة مخلصا الملك .

وثمه شيء جدير بالملاحظة هنا وهو ان عمدا صيون حين عزل صبر الدين حاكم عدل وضع مكانه اخاه جمال الدين ، وحين عزل حاكم بقل زر عين مكانه اخاه نصر الدين . وحين عزل على بن صبر الدين سلطان ايفات عين مكانه ابنه أحمد حرب ارعد ، وحين تحقق ولاء على اعاده إلى ولايته مكان ابيه . فكل ذلك يدلنا ولا شك على أن هذه الحروب لم يكن اساسها تعصب دينى من الملك أو رغبة فى الانتقام من المسلمين وإلا لانتهز الفرصة ووضع مكان هؤلاء جميعاً حكاما مسيحيين ولقضى على ما يتمتع به هؤلاء الحكام من استقلال ادارى

داخلى، ولو كانت حروبا اساسها الدين لانتهز الفرصة جميع المسلمين وخرجوا جميعا على الملك ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فقد ابى شعب ايفات أن يوافق سلطانه على خروجه عن طاعة الملك فكان ذلك سببا فى هزيمته (١) .

وانا لنرى دليل ذلك ايضا فيما ذكره أولاد جمال الدين الملك حين تقدم أحدهم لتقديم طاعتهم، إذ طلب الامان وصون بلادهم من الخراب وشدد فى وجوب ايقاع هذا الخراب على التجار العرب الذين يقدمون على بلادهم ليغروهم بالثورة . فافهمهم الملك انهم كانوا خاضعين واسلافهم له ولاسلافه من قبله وانه لم يظلمهم بل كانوا يبادلونه الهدايا والذهب وانهم لم يثوروا إلا تحت تأثير من يأتونهم من جزيرة العرب (٢)

وإذا كانت الامور قد اضطربت فى عدل ومارا فقد كانت امور إمارات الطراز السبع الاخرى تسير على غاية الهدوء والاستقرار إلا إذا استثنينا محاولة خروج على بن صبر الدين ومساعدته لجمال الدين وخذل شعبه له فى هذه المحاولة، ولابد أن شعوب هذه الولايات قد شعرت بالاستقرار تحت ظل الاسرة

---

(١) الالمام ص ٩

(٢) Brucé 111. P 28

السليمانية وشعرت بنمو مصالحها واضطرادها نحو النجاح وشعرت ايضا أن هذه الحكومة تعاملهم على اساس المساواة التامة مع غيرهم من الرعايا ولا تتدخل فى قليل أو كثير من امورهم وتسمح لهم بالسفر إلى حيث يريدون سواء إلى اليمن طلبا للعلم أو إلى الحجاز طلبا للحج .

وتولى على بن صبر الدين ولايته الثانية فطالت مدته حتى اعتلت صحته فاشرك معه فى السلطة ولده ملا اصفح وكان اصغر ابناءه واحبهم اليه،فاغضب ذلك حق الدين الابن الاكبر لاخيه أحمد حرب ارعد، وكان ابوه قد تركه فى ايفات حينما سار إلى الامبراطور فانصرف إلى العلم حتى صارت له مكانة كبيرة فلم يلبث أن اظهر العداء لجده لاعراضه عنه وهجره أياه ، وكان ملا اصفح يكرهه ويمقته مقتا شديدا(١) فخرج على عمه ملا اصفح بعد أن التف حوله كثير من أنصاره فكتب السلطان إلى الإمبراطور — وكان عمدا صيون قد مات وخلفه نوايا كرستوس — يخبره الخبر ويطلب النجدة والمساعدة ، فامده بعسكر بلغ ثلاثين ألفا ، فلقيهم حق الدين وقاتلهم وانتصر عليهم كما ذكرنا .

---

(١) الالمام ص ١٠

وفى أيام زره يعقوب تمكنت قوات الحكومة من القضاء على آخـر أبناء سعد الدين وكان ذلك فى سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣٠) .

وإذا كان هذا هو الجانب السيء من نشاط هؤلاء التجار فإنه من العدل أن نذكر أيضاً جانبهم الطيب وماقاموا به من نشاط تجارى كان الأول من نوعه فى العالم فى ذلك الوقت فقد كانوا إلى جانب اتجارهم بالرقيق حملة التجارة الهندية ، وكانت هـذه التجارة تصل إلى الأسواق الأوربية مخترقة الطرق الآتية :

(١) طريق برى محض وهو الذى يخترق الصين من الشرق إلى الغرب إلى ما يسمى حالياً بالتركستان الروسية ثم إلى شمال فارس فاسيا الصغرى فالقسطنطينية، وكانت هذه الأخيرة هى السوق النهائى الذى تتجمع فيه هذه التجارة لتنتقل أما برياً إلى أسواق أوروبا عن طريق البلقان أو بحريا إلى أسواق شمال إيطاليا لتتصل إلى اسواق وسط أوروبا عن طريق الممرات الألبية(١)

---

(١) Ault p 369

(٢) طريق برى أخر هـو الذى يخترق هضبة إيران من الشرق إلى الغرب حتى الخليج الفارسى ومنها يسير براً إلى الموصل حيث نجد مدن سوريا التجارية كحلب وحمص وحماة [٢] ثم إلى موانى انطاكية أو إلى بيروت وكانت أما حلب أو دمشق هى مكان تجمع هـذه التجارة حيث تحملها المراكب إلى أسواق أوروبا.

(٣) طريق بحرى يأتى فى بحر العرب إلى عدن حيث تنتهى مرحلة المراكب الهندية الضخمه ومنها تنتقل أما بواسطة طريق برى خالص إلى الحجاز فالشام. ولـكن هذا الطريق كان نادرا، وأغلب ما كان يحدث أن يأخذها التجار العرب بمراكبهم الخفيفة فى البحر الأحمر صعدا نحو الشمال إلى عيذاب وهناك تخترق الطريق الصحراوى إلى قوص أو اسنا ثم تحملها المراكب النيلية إلى القاهرة.

(٤) وقد لا ينقلها التجار العرب بحرا فى البحر الأحمر ولـكن ينقلونها فقط إلى زيلع وعدل ومن هناك تحمل برا

---

(١) Runciman P 164

إلى الشمال إلى عيذاب حيث ينتظرها التجار لنقلها إلى قوص فالقاهرة.

(٥) على أن بعض التجـار كانوا يسيرون مع هـذا الطريق إلى سواكن فقط ومنها يخترقون السهل السودانى إلى النيل النوبى حيث يصعدون بها برا إلى القاهرة أو يحملونها برا أيضا إلى حوض النيجر وساحل غانة أو إلى مملكة مالى فى الغرب

على أن الطريق الأول كثيرا ما كان يتعرض لهجمات قبائل وسط آسيا كما أنه أخذ يهجر منـذ أن أضطرب حبل الأمن عقب الحروب الصليبية الرابعة التى احتل فيها اللاتين مدينة القسطنطينية وأرغموا أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية على تركها إلى نيقية، وأخذت سلطة الدولة الرومانية فى الضعف وكذلك كانت جميع الطرق البرية شاقة لصعوبة الجو وكثرة تكاليفها فقد انحطت قيمة الطريق الأول اقتصاديا منذ أخذت النكبات تحيط بالدولة الرومانية الشرقية من كل جانب فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر، كما كان طريق شبه جزيرة العرب شاقا لاسيما فى عسير واليمن حيث تـكثر الحروب

الأهلية(١) كما أن الحروب الصليبية التى استمرت مدة طويلة بالشام قضت على تجارة هذه الانحاء ورفعت من أهمية الطرق التجارية الأخرى وكذلك مركز الاسكندرية، كما كانت فارس خطرا أخر يهدد ماكان يمر بها من تجارة فقد وضعت عليها هناك الرسوم الجمركية العالية كما وقفت الحروب دون استمرار هذا الطريق .

وكان الطريق الرابع مثلا يأخذ أكثر من أربعة أشهر . فكانت المسافة من القاهرة إلى قوص تستغرق خمسة عشر يوما ومثلها إلى عيـــذاب وثمانية عشر يوما للوصول إلى سواكن ومنها إلى عدول ثمانية وعشرون يوما من عدول إلى اكسوم عشرة أيام ، أما الطريق من أكسوم إلى أمهرة فكان لا يستغرق أقل من ثلاثين يوما ومن أمهرة إلى شوا ثلاثة أيام ومثلها إلى زيلع(٢) ولذا وكان الطريق البحرى إلى عيذاب أهم هذه الطرق وأكثرها ارتياداً ، وكانت الرياح الموسمية الصيفية وكذلك التجارية المنتظمة شتاء تساعد على استعمال

---

(١) Kamerer, La Mer Rouge T· 11.P 66

(٢) Ibid P297

هذا الطريق وعلى تقدم فن الملاحة فى البحر الأحمر، وفى زيلع كانت حاصلات أتيوبيا تتجمع لتحمل مع التجارة الهندية إلى عيذاب لتصل إلى أوربا أو إلى عدن لتحمل إلى الهند وموانى شرق أفريقيا .

ولو أن هذا الطريق كان معرضاً كغيره لغزوات القرصان إلا أن مخاطره لم تكن تزيد عن غيره، فالقرصان كانوا منبثين فى كل البحار فلم يكن المحيط الهندى أو البحر الأبيض أو غيرهما خاليين منهم، بل ربما كان البحر الأحمر أقل البحار خطرا من هذه الناحية لضيقه وتمكن التجار من حراسة قوافلهم حراسة قوية . هذا إلى أن وحدة العقيدة التى كانت تربط القرصان بتجار البحر الأحمر كانت تمنع القرصان المسلمين من مهاجمة المراكب الإسلامية أو تسهل الاتفاق بينهم على جزية سنوية يدفعها التجار المسلمون إلى هؤلاء القرصان المسلمين نظير عـــدم التعرض لقوافلهم البحرية كما كان هم القرصان المسلمين موجها إلى مهاجمة سفن المسيحيين وقتل ركابها أو اقتناصهم لبيعهم فى أسواق الرقيق، ولم يكن يشذ عن هذه القاعدة غير قرصان الحجاز ولذا لم تكن ترسو بها غير سفن الحجاج ولذلك أصبحت عيذاب أهم موانى البحر الأحمر

حتى قال عنها ابن جبير إنها من أحفل مراسى الدنيا وإليها كانت تصل بعض المراكب الخفيفة لتحمل قدرا يسيرا من التجارة إلى الطور أو القلزم كما عظمت أهمية قوص لكثرة الصادر منها والوارد إليها .

وإذا ما وصلت هذه التجارة إلى القاهرة أو الإسكندرية تلقفها تجار البحر الأبيض من البنادقة والجنوبين وبعض الأسبان والبرتغال فقد كانوا أهم متعهدى نقلها إلى موانيهم ومنها ترسل برا إلى أواسط أوروبا وكانت أسعار هذه البضائع فى الاسكندرية أقل منها فى الشام رغم ماكان يفرضه عليها المماليك من الضرائب الفادحة ولكنهم فى سبيل استقرار هذه التجارة ودوامها لم يترددوا فى عقد المعاهدات مع غيرهم لتحديد موقف كل منهم .

وتحوى الوثائق الإيطالية كثيرا من المفاوضات لأجل فك اسرى المسيحيين الذين كانوا يؤسرون فى البحار أو لاجل طلب ترضيات عن اهانات لحقت بهم . أو لاجل تذليل صعوبات كانوا يلاقونها من الموظفين المصريين أو لأجل تنظيم دخول وخروج المراكب من الموانى المصرية وكانت

البندقية هى الدولة المفضلة أو كما نقول بتعبيراتنا الحديثة الدولة الأكثر رعاية إذا كان تجارها يتمتعون بمراكز ممتازة منذ أواخر القرن الثالث عشر (١) .

فى سنة ١٢٠٨ عقدت اتفاقا وقعه مارينو داندولو Marino Dandolo خفضت بمقتضاه الضرائب الجمركية التى يدفعونها كما صرح لهم ببناء فندق ثان . وفى أثناء غزوة دمياط سنة ١٢١٨ لم يصادر شىء للبنادقة ، ولذا لم يكن تقدم المدن التجارية الايطالية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وتمتعها بشىء كثير من الثروة والاستقلال ألا نتيجة لازدهار التجارة مع الشرق عن طريق البحر الأحمر الذى كان يقوم بنقل التجارة فيه مسلمون من سكان الساحل الشرقى للبلاد الاتيوبية

وكان التجار المسلمون معفين من الضرائت بينما كان ما يدفعه التجار المسيحيون من المكوس يكفى لتدبير أمر المصروفات وبلغت الأسكندرية فى ذلك مبلغا هائلا من الغنى أثار دهشة ابن بطوطة .

وكان الحكام من المماليك يكتمون عن التجار الأجانب مصدر هذه الثروات إلى حد الحكم بالأعدام على من يحاول

(١) Kamerer. La Mer Rouge T. II. P 19

كشفها لهم . فلم يكن يصرح للتجار الافرنج بالملاحة فى البحر الأحمر كما وضعت عليهم اقسى القيود عند التجول داخل البلاد وربما كان ذلك خوفا منهم أو عليهم .

وكان سوء الإدارة المصرية أثناء حكم المماليك يصيب التجارة فى كثير من الأحيان نتيجة لاحتياج السلاطين إلى المال وتفكيرهم فى الحصول عليه من هؤلاء الأجانب الأغنياء، فقد غضب السلطان قلاون على التجار الجنوبيين ووضعهم فى السجن رغم ما كان بينه وبينهم من معاهدة صداقة، ثم عقد معهم معاهدة أخرى سنة ١٢٩٠ وقعها عن السلطان قلاون ابنه حسام الدين ترنطاى وشهد عليها بعض رجال الدين المسيحيين الوطنيين، تعهدفيها السلطان باحترام مصالح الجنويين واملاكهم ومنها كنيسة للعذراء على أن يتعهد أصحابها بالاصلاح إذا خربت ويكون للجنويين مخزنهم فى المناطق الجمركية ومعهم مفاتيحها على أن يحرسها الحراس على مسؤوليتهم (١)

وعن هذا الطريق كانت تأتى التوابل من الهند والجواهر من سيلان والقرنفل وخشب الصندل من الصين الهندية

(١) Heyed, Le Commerce de Proche Orient P. 304

والفلفل من ملبار والنحاس من كلبانا بالقرب من بمباى والكشمير من السند والحرير الخام والصينى من الصين واللبان والبخور وسن الفيل من اتيوبيا مقابل ما يأتى من أوربا من الرقيق والخشب والأقمشة ، ومن القسطنطينية من المنسوجات الحريرية والمخرمات والأقمشة والموشاة الذهبية والكؤوس، وقد أثر عنها صناعة القطع الفنية التى كانت على درجةعالية من الإتقان ، فقد جعلت عليها الدولة رقابة فعالة كى تستمر اسعارها غالية كى لا تكون فى متناول العامة وكانت هناك بعض الأقمشة التى لاتعرض فى الأسواق بل تحفظ لاجل أرسالها إلى الملوك وأصحاب التيجان .

وكان الاوربيون يعتقدون أن التوابل تأتى من الجنة ولذا كانوا يسمون نهر النيل نهر الجنة وكانوا يعتقدون أنها تنزل من أشجار تنمو على جانبى النهر وتسير فى الماء إلى القاهرة حيث يصطادها الناس بشباكهم وكانت هذه الخرافة مما يتبادلها الحجاج فى أحاديثهم (١) وكان المماليك يعملون من جانبهم على رواج هذه الخرافات لغرض إخفاء مصادر هذه التجارة عن الافرنج لئلا يبلغهم خبر ملك مسيحى فى

(١) Heyed P. 417

الجنوب هو ملك (الحبشة) فيقوم بينهما اتفاق لا يأتى إلا بلغ الاضرار على مصر الإسلامية التى تقع بينهما . ولم يكن قيام هذا الاتفاق حديث خرافة ولا كابوسا يقض مضاجع الأمراء المماليك فحسب بل فى سنة ٨٣٢ أيام حكم السلطان يوسف بن برسباى قبض على تاجر فارسى يدعى نور الدين على تبريزى اعترف أن اسحق ملك أتيوبيا أرسله إلى ملك الفرنجه يدعوه إلى الانضمام له لمحق الإسلام ورفع لواء المسيحية بأن يغزوها من ناحية البحر فى الوقت الذى تغزوها فيه جيوش أتيوبيا من ناحية البر وأنه قد سافر فعلا من الحبشة إلى أوروبا عن طريق الصحراء ، وأنه الآن فى طريق عودته إلى أتيوبيا يحمل نتيجة هذا السعى ، فحوكم أمام قاضى القضاة شمس الدين محمد وحكم عليه بالأعدام فاركب جملا وطوف به فى شوارع القاهرة والفسطاط وبولاق متبوعا برجل يقول (هذه عاقبة من يحمل السلاح ضد السلطان) ثم ضربت عنقه تجاه المدرسة الصالحية (٢)

ولا شك أن هذه المحاولات قد صدت البنادقة وغيرهم من الأوروبيين عن الوصول إلى البحر الأحمر الذى أصبح

(٢) Quatremer P. 280

احتكارا للمسلمين من سكان الشاطىء الغربى للبحر الأحمر والذى أصبح مورد ثروة لا تنضب لهم ولاخوانهم من تجار اليمن .

وإذا كان البوار والتدهور من نصيب الطرق البرية التى تخترق قارة آسيا صوب شواطىء البحر المتوسط إلا أن الطريق البرى الذى يخترق شرق اتيوبيا . ثم يسير صعدا إلى السودان كان لا يزال مطروقا ولقى كثيرا من عناية التجار والملوك فقد كان فى موانى زيلع وعدل موظف كبير للاشراف على التجار وتنظيم أمورهم وتزويدهم بالادلاء والحرس وكذلك تنظيم التعامل بين المسلمين والمسيحيين والأشراف على العمليات التجارية ولأجل جباية الضرائب والمكوس وحملها إلى الحكومة المركزية ، وكان يطلق علية اسم نجادى راس (٣) والكلمة الأولى تعنى تاجر أى الراس الذى يهتم بكل مايهم التجار وقد اتسعت كلمة نجادى فيما بعد واصبحت تطلق على كل ما هو عربى مما يؤكد أن العرب المسلمين هم الذين كانوا يقومون بالجانب الأكبر من هذه التجارة . وفى وقت من الأوقات بلغ عدد المشرفين على هذه

(١) Bruee III p. 28

التجارة خمسة من الموظفين أربعة منهم مسلمون كى يسهل إشرافهم على شئون التجار المسلمين فلا يجدون غضاضة فى الاتصال بهم ودفع الرسوم إليهم ، وعلاوة على ما يقوم به هؤلاء التجار من حراسة قوافلهم فأن الحكومة لم تكن تنى على حماية القوافل أثناء مرورها بالبلاد والقضاء على كل ما يعوقها أو يعرقل سيرها بل كانت تذهب إلى أكثر من ذلك ، فقد عملت على صون حقوق التجار الأجانب لدى التجار الاتيوبين وعلى ضمان تحصيلها منهم إذا تقدم أحد الأجانب بشكوى أو حدث له حادث يمنعه من تحصيل كافة حقوقه[١] .

وكانت اتيوبا ترسل إلى كل من مصر وبلاد العرب الذهب والمر والبن وسن الفيل وكان العرب أيضا هم الذين يقومون بأمر هذه التجارة عن هذ الطريق ، فهم الذين تعودوا السفر نهارا وليلا دون خوف أو وجل بينما كل الاتيوبيون يعتقدون فى الخرافات ويخافون السير ليلا بل قد بلغ الأمر ببعضهم أن لايسكبون ماء على الأرض حتى لا يزعجون من يسكنها من الجن بينما يضحك العرب عليهم لهذه الاعتقادات

(١) Ouatremer P. 274

ويعملون على توطيدها فى عقولهم كى لاينازعونهم فى ميدانهم ولم تكن تجارة هذا الطريق يسيرة أو قليلة بل كانت كثيرة كبيرة القيمة لأنها كانت تخترق بلادا مأهولة يستفيد من التعامل مع أهلها ، ولذا اشتغل بها عدد كبير من التجار حتى أنه لما أوقف الملك عمدا صيون التجارة عبر الصحراء وقبض على التجار المصريين فى أتيوبيا انتقاما لحبس السلطان للبطريرك مرقص الرابع (١٣٩٢ و ١٠٣٥٦) حينما طالبه بمبلغ كبير من المال وعجز عن تدبيره ، رفع التجار أصواتهم بالشكوى إلى السلطان الذى شعر بمقدار ما أصابهم وأصاب التجارة من ضرر اضطره إلى اطلاق سراح البطريرك حتى تعود التجارة إلى سابق نشاطها .

وأستطيع أن أقول أن ثورة سلاطين عدل أيام الامبراطور عمدا صيون لم تكن محاولة لأجل الاستقلال كما أنها لم تكن ثورة ضد خطوات اتخذها هذا الملك للحد من نشاط تجار الرقيق بمقدار ما كانت محاولة لمهاجمة أواسط الهضبة الحبشية ، حرضهم عليها تجار اليمن الذين يتعاملون معهم ليتملكوا مصادر العاج والجلود والصمغ والتوابل والذهب التى تكمن هناك بمقادير هائلة .

وكان للأسطول المصرى فى بعض الأحيان فضل حراسة دا الطريق حتى باب المندب بل استطاع الأسطول أيضا أن يفرض سلطته على موانى المحيط الهندى لتطهيرها من القرصان فقد وصل إلى مصر سنة ١٣٨٢ مندوب من سيلان ليفتح علاقات تجارية مع مصر وقد حمل هذا المندوب هدايا كثيرة إلى السلطان قلاون كما حمل أيضا خطابا عدد فيه ثروة بلاده من اللؤلؤ والأحجار الكريمة والحرير وكثير من أنواع المنسوجات، وذكر أن المصريين سوف يجدون هناك كل ما يطلبونه . ويرجو فى نهاية خطابه أن يعين السلطان مندوبا عنه فى عدن التى هى محطة التجارة الرئيسية بين مصر وسيلان(١) .

(١) Heyed P. 426

الباب الخامس

ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم

وتبدل العلاقه بين المسلمين والمسيحيين

لا يحدثنا التاريخ شيئا من نشأة الإمام أحمد بن ابراهيم إلا مايرويه هو عن نفسه من إنه كان ابنا لأحد قساوسة الحبو المسيحيين وترك موطنه إلى عدل إحدى بلاد إيفات حيث دخل فى الإسلام(١) ولابد أنه دخل فى خدمة أحد الأمراء المحاربين فتعلم فنون الحرب والفروسية وأجادهما ، وبرز بين صفوف جيش الامبراطور ، وقد ذكرنا فى الباب السابق أنه أرسله مع جيش القائد أبون محاربا للثائرين فى شرق البلاد وأظهر من الشجاعة والإخلاص ما جعل القائد ابون يحبه ويقدره(٢) وقد كان موضع تقدير الأمير محفوظ صاحب هرر فزوجه ابنته وأحبه لتقواه وتدينه فأطلقوا عليه لفظ

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٠٢ .
(٢) فتوح الحبشة ص ٦

الإمام(١) حتى إذا خرج السلطان أبو بكر بن محمد بن آزر على الامبراطور تنصره جموع من الصومال وجه إليه الامبراطور القائد ابون ولكنه مات فى الحرب وانتصر عليه أبو بكر وعرض ولائه على الامبراطور(٢) فأقامه على إيفات وهرر فخرج الإمام أحمد هاربا إلى بلاد أبت ومعه مائة أو أكثر من الفرسان أمروا عليهم القائد عمر دين ابن أخى السلطان اعلانا لولائهم للامبراطور .

وقد ذكرنا أن السلطان أبا بكر طلب مساعدة الامبراطور لبنادنجل لتحطيم هذا الثائر عليه بعد أن رفض الخضوع له فلم يسع الإمام أحمد إلا أن يحاربهم قرب عقم وانتصر عليهم بعد أن قتل عدداً كبيراً من فرسانهم وفر الباقون،وأسكره هذا النصر فقفل راجعا إلى السلطان وانتصر على جيوشه أيضا بعد أن قتل منهم مقتلة كبيرة وغنم ما معهم وسار إلى هرر .

ومن الطبيعى أن لا يستريح السلطان إلى وجود الإمام أحمد فى هرر بعد أن انتصر عليه انتصاره الأول

(١) نفس المصدر ص ١٣

(٢) Budgevol I. P. 314

فأعاد تكوين جيوشه واستطاع أن يحاصره فى أبت التى سار إليها الإمام فانتصر عليه وقتل أميره عمر دين وعقد صلح جديد بين الطرفين رضى فيه الإمام أن يدخل فى طاعة السلطان ويخضع له كما كان يخضع القائد ابون(٣) .

وبدأ الامام أحمد يظهر بعض النشاط بل كثيرا من النشاط بعد أن استقر فى هرر التى أصبحت مركزا لكل غاضب على السلطان فسار إليه السلطان بجيش قوى فر معه الامام الى ابت ، التى لابد أنها كانت ذات موقع حربى هام إذ يذكر صاحب فتوح الحبشة أنه كان بها جبل عظيم(١) وقد تحصن بها أحمد حرب أرعد عند أول خروجه على جده على كما رأينا. أو ربما كانت مجمعا لأنصاره وأعوانه فقد انضم إليه فيها أبو بكر بن اسماعيل كما انضم إليه الأمير حسين الجاترى ومع كل منهما جيشه(٢) .

فلما سمع السلطان بخروج الامام أحمد إلى أبت وانضمام الزعماء اليه خاف مغبة ذلك وسار اليه وانزل بقريته الخراب

(١) تحفة الزمان ص ١٠

(٢) فتوح الحبشة ص ٩

(٣) فتوح الحبشة ١٦

والدمار . فهرب الإمام منهما والسلطان يطارده حتى لحقه وهزمه وعاد الإمام هاربا إلى ابت مرة أخرى فأرسل السلطان إليه قائده بعسكر لا يحصى من الرجال والخيل فانتصر الإمام على عسكر السلطان وسار إلى وعكة التى اتخذها مركزاً له ، فلقيه على أبوابها أبو بكر نسيب السلطان وقائد عسكره فانتصر عليه الإمام وسار يقصد العاصمة نفسها ولكنه عدل عن الهجوم لما رآه من مناعة مركز أعدائه فتراجع إلى هرر فلحقته جيوش السلطان على أبواب دكر (بفتح الدال والكاف) وبدأت المعركة بينهما ، وللمرة الثانية يمشى بين الإمام والسلطان وسطاء الخير فيبرم الصلح بينهما على أن يحكم الإمام هرر تابعا للسلطان الذى كان تابعا للامبراطور ولا بد أن انتصار جيوشه على جيوش السلطان ثم توسط العلماء بينهم أكثر من مرة ثم رضاء السلطان عن توليته هرر يعود فى الغالب إلى ما تبينه السلطان من حب الأهالى للإمام احمد لما لمسوه من شجاعته واقدامه وأكثر من ذلك ما عرفوه من صلاحه وتقواه وحبه للعدل ورغبته فى الاصلاح وضربه على أيدى قطاع الطريق ومساعدته على استتباب الأمن فى البلاد [١] .

(١) فتوح الحبشة ص ١٣

ولقد بلغ من حب الشعب لهذا الإمام أن نسجت حول اسمه الأقاصيص والأحلام فقد روى أن رجلا يدعى محمد ابن يونس رأى فى منامه الإمام يجلس مع النبى وأبى بكر وعلى بن أبى طالب فيشير النبى عليه السلام إلى الإمام ويقول هذا رجل يصلح الله به بلاد (الحبشة[١]) كما رووا أنه سار مرة إلى السلطان لمقابلة فظللته سحابه من النحل طلب تنتظره عند الباب أثناء المقابلة حتى إذا خرج ظللته ثانية إلى أن عاد إلى بيته[٢] .

ولكن السلطان كان ينتظر دائما الفرصة السانحة للقضاء على هذا الذى أحبه الناس وجعلوه منافسا له فى سلطانه ، فما زال يتصل برجاله ممنيا أياهم بالوعود حتى استطاع أن يجعل الأمير حسين يدبر مؤامرة يشترك فيها الأمير عبد الله والأمير عمرو تنجح فى القبض على الإمام تمهيداً لنقله إلى الامبراطور ، ولكنه فر وقد استبان من السلطان النية السيئة فلم يبق مناص من أن يسفر بالعداء فأرسل له من تمكن من قتله[٣] وأعلن الثورة على الامبراطور الذى كان يناصر

(١) فتوح الحبشة ص ١٢
(٢) فتوح الحبشة ص ١٥
(٣) نفس المصدر ص ١٦

السلطان ومنع موظفيه وجباة خراجه من أن يقدموا إلى هرر ، كما منع الناس من أن يدفعوا لهم شيئا وبذلك خرج الإمام وانقلب الخادم المخلص إلى ثائر عنيد وأتخذ له راية(١) وأخذ فى تنظيم أموره كما يفعل الحاكم المستقل . فقسم البلاد إلى خمسة أقسام أمر على كل قسم منها أميراً ممن دخلوا فى الإسلام وهم نقديه (بسكون القاف وكسر الدال وفتح الباء) وعبد الكريم بن عثمان وعمر بن عبد الله ومحمد وكان ذلك

---

(١) كانت راية الإمام أحمد بيضاء فى الوسط وأطرافها حمراء وعلى دائرها مكتوب (بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً) وينصرك نصراً عزيزاً . (نصر من الله وفتح قريب) ومكتوب فى وسطها أربعة أسطر متواليات :

١ — ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديهم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل .

٢ — حصنتكم بالحى القيوم الذى لا يموت أبدا ودفعت عنكم السوء بألف ألف لاحول ولا قوة إلا بالله ،

٣ — والآخرة خير لمن اتقى واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المسلمين .

٥ — بيتان قيل أن أبا بكر كتبهما على رايته :

الحرب إن باشرتها فلا يكن منك الفشل
واصبر على أهوالها لاموت إلا بالأجل

فى سنة ٩٣٣ هـ (١٥٢٧) والتف حوله كثير من المسلمين وقد أوغرت الحماسة الدينية صدورهم كما زاد من حماسهم طمعهم فى الاستيلاء على الغنائم ونشر الدين ، لاسيما وقد وعدهم قائدهم أن يستولى كل محارب على ما يغنمه بعد أن يخرج خمسه لله (١) .

ولكى يكون الإمام واثقا من الانتصار رأى أن يبدأ بأن يجمع حوله المسلمين فبدأ بالاتصال بالبلاد الإسلامية التى سوف تمونه بالمال والعدد الكبير من الرجال فبدأ بأقرب البلاد إليه وهى دوارو وبالى فأستولى عليهما بعد أن هزم جيوش الإمبراطور التى كانت تدافع عنهما وقتل قائدها وانضم إليه ثانيه الأمير حسين أبوبكر الجاترى (٢) والأمير على صاحب عطقوطة وبذلك سيطر الإمام احمد على جنوب شرقى اتيوبيا .

وفى سنة ١٥٢٩ اتم ما بدأه بالاستيلاء على بقية الجزء الاسلامى فقصد ايفات واطبق عليها من اليمين بجيش يقوده وزيره عدلى ومن اليسار بجيش يقوده وزيره الآخر نور الدين بن أبراهيم ، فأستطاع

---

(١) فتوح الحبشة ص ٢٥

(٢) نفس المصدر ص ٩

الأول وحده أن يستولى على المدينة بعد أن هزم الجيوش الامبراطورية فى موقعة شنبرى كورى سنة ٩٢٥ (مارس ١٥١٩)، فضمها الإمام إلى أملاكه وغنم من المسيحيين خيامهم وأموالهم وسبى نساءهم وكان من بين السبايا بنت خالة الإمبراطور فافتديت بخمسين أوقية من الذهب . وأمضى الجيش أربعة أيام فى اكتساح ما حوله من البلاد(١) وكان المسلمون يستقبلونهم إذا حلوا بهم فيكرمونهم ويعينونهم بما يملكون من مال على تجديد أسلحتهم(٢) .

وعاد الإمام بعد هذا الإنتصار إلى هرر حيث قسم الغنائم فكان خمسها خمسمائة رفيق وألف رأس ومن البقر ومن البغال شىء كثير(٣) .

أما وقد غنم الإمام أحمد كل هذه الغنائم وأشتد ساعده بمن كان ينضم إليه من الرجال المسلمين ، فقد عول على أن يغزو بلاد الامبراطور ذات الأغلبية المسيحية . ففى أوائل سنة ١٥٨١ عبر نهر أواش وغزا شوا ذاتها وحرق دبراليبانوس ولابد أن هزيمة الامبراطور كانت ساحقة حتى اضطر إلى

(١) فتوح الحبشة ص ٥٠ — ٦٤
(٢) فتوح الحبشة ص ٨٢
(٣) فتوح الحبشة ص ١١٣ و١٢٦ و١٣٥

الفرار إلى ناحية الشمال والالتجاء إلى جودجام معتصما بجبالها العالية بعد أن عبر النيل الأزرق فتبعته جيوش الإمام إلى هناك وأنزلت بمدنها الخراب والدمار ثم رجعت إلى هرر منتصرة ظافرة.

وقد أدت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها الإمام احمد بن ابراهيم إلى انضمام كثير من أعداء الامبراطور والناقمين على حكم لبنا دنجل اليه . وأدى أعجابهم بالإمام احمد إلى اعتناقهم الإسلام ولابد أن هذا الاعتناق كان دليلا على الأعجاب بهذا القائد عند كثير من الناس . وقد استغل هؤلاء الاتيوبيون الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصى فى تحريض غيرهم من أفراد الجيش على الأقتداء بهم واعتناق ديانه المنتصرين ونبذ ديانه المهزومين الذين لا يستطيعون حمايتهم فى هذه الظروف (١) وفريق آخر انتهز فرصة هذا الانتصار الباهر الذى أحرزه هذا القائد العظيم ليعلن اسلامه بعد تردد ، وهو فريق المسلمين الذين أرغمهم الامبراطور فى حروبه الأولى وانتصاراته السابقة على ترك الإسلام واعتناق المسيحية كما فعل أورعى عثمان وقائده عنانيه حينما انضما اليه

(١) Budge vol II. P. 333

ومعهما عشرون ألف مقاتل (٢) فكتب اليه الأول يقول (أنا مسلم ابن مسلم ولكنهم اسرونى ونصرونى وما زال قلبي مطمئنا بالإيمان وأنا الآن جار الله وجار رسوله وجارك أن تقبل توبتى ولا تؤاخذنى بما عملته فانا تائب إلى الله وهذه جيوش الملك الذين هم معى وأنا احتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا) .

واستنادا إلى هذا الخطاب وإلى هذه الحوادث نستطيع أن نقول أن الحرب فى هذه الفترة من تاريخ أتيوبيا قد اتسمت بسمة الحرب الدينية ، وأنها قد صارت حربا بين ديانتين تبغى كل منهما سحق الأخرى أو التغلب عليها على الأقل، بينما كانت قبل ذلك حربا تدور حول السيادة السياسية أو بين أمراء يبغى كل منهما السيادة والظفر بنصيب من الاستقلال، أو بين الملك وفريق من قطاع الطرق وتجار الرقيق الذين انتهزوا فرصة ضعف السلطة المركزية وعاثوا فى الأرض فسادا يبغون الثراء .

وفى سنة ١٥٣٣ عاد الأمام إلى غزو جودجام فهرب.

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٣

الامبراطور إلى دمبيا شمال بحيرة طانا فطارده الأمام أحمد واستطاع أن يكتسح جودجام كلها ويتصل بمسلمى سنار ويعقد معهم حلفا(١) زودوه بمقتضاه بالادلاء إلى دمبيا فهرب لبنا دنجل إلى دارا فى الجنوب الشرقى من بحيرة طانا فلحقته جيوش الأمام إلى هناك وعند مخرج النيل الأزرق دارت معركة كبيرة انتصر فيها الأمام وتشتت جيش الأتيوبيين بعد أن قتل من أشرافهم عدد كبير .

وفى سنة ١٥٣٥ استطاع الامبراطور أن يجمع شتات جيشه الممزق ويهاجم به جيوش الأمام المجتمعه بشرق بحيرة طانا، ولكنه هزم مرة أخرى هزيمة منكرة وتقدمت جيوش الأمام إلى أكسوم وحرقتها بعد أن غنمت ما كانت تحويه كنائسها من كنوز ونفائس وعبرت نهر تكازى واحتازت شمال الهضبة كلها ثم انحدرت إلى أقليم بيجامدر الذى يقع شمال جودجام واستطاع أن يسيطر على شمال الهضبة من الشرق والغرب بعد أن سيطر على جنوبها من قبل .

وفى سنة ١٥٣٦ اجتاحت الجيوش الثائرة جودجام

Budge Vol II. P. 333 (١)

للمرة الثالثة ، وكانت قد دخلتها من الشمال وعبرت النيل الازرق إلى شوا حتى إذا كانت سنة ١٥٣٧ عادت إلى هرر فى اقصى الجنوب الشرقى وبذلك سيطرت الجيوش الاسلامية بزعامة قائدها الامام أحمد بن إبراهيم على بلاد اتيوبيا كلها واصبح امبراطور اتيوبيا تعبيرا لاحقيقة له ، واخذت المسيحية فى الانهيار تحت ضغط انتصارات المسلمين المتوالية .

وفى سنة ١٥٣٨ ارسل الامام أحمد إلى الامبراطور بعثة طالبا الزواج من ابنته مهددا اياه بانه فى حالة رفضه المصاهرة فلن يترك أحدا يستطيع الامبراطور أن يلجأ إليه فاجاب الامبراطور أنه لن يزوجها له مطلقا لانه على غير دينها ، فاغتاظ الاشول لذلك ، وصمم على تنفيذ تهديده (١) فارسل جيشا بقيادة قائدة عمار التحم مع الجيش الامبراطورى على الضفة اليمنى لنهر تكازى عند مكان يدعى وج فسحق الجيش الامبراطورى وقتل فكتور الابن الاكبر للامبرطور ، كما قتل كل من معه ، وأسر ميناس الابن الثانى ، كما أسر عددا هائلا من الجند المسيحى . وارسل بهم فبيعوا فى اسواق الرقيق . وفى غزوة أخرى هجم القائد عمار على الجزء الرئيسى من الجيش

(١) Budge, II P. 334.

الذى يقوده الامبراطور بنفسه واستطاع أن يوقع به الهزيمة فى سلاوا بالقرب من مكان المعركة الاولى ، ففر الملك مع بعض اصدقائه إلى جبل سنفرا فى إقليم سلامت وهناك طارده ابورام حاكم الاقاليم حتى وصل إلى تكازى وعبر النهر مع قلة من أصحابه ، ووصل إلى اقليم تجرى حيث قضى الشتاء واستولى القائد عمار على معسكر الامبرطور وغنم جيشه المخازن الملكية ، وحمل معه كل ما وجده من الذهب والنفائس ، وذبحوا كل الامراء والأميرات وقاد جيوش الامام القائد مجاهد حاكم هرر بعد أن قتل عمار خلال الاضطراب الذى ساد عقب المعركة بضربة خنجر أثناء نومه .

ولم تكد تهل سنة ١٥٤٠ حتى كانت جيوش الامام أحمد قد اجتاحت اتيوبيا كلها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا واصبح الامبراطور فارا من بلد إلى بلد وهو يقاسى وقلة من انصاره المخلصين الجوع والعطش ويلح عليه الاجهاد والمرض (١) حتى مات وهو فى اسوأ حالات البؤس والعوز .

واخذ الامام يتصرف فى بلاد اتيوبيا كلها تصرف الملك المستقل صاحب الامر والنهى ، وأخذ يرسل الولاة من قبله

(٢) Budge vol II. P. 334.

إلى بقية اجزاء البلاد لفتحها واخضاع اهلها وجمع الاموال منهم، أو الاتفاق معهم على طريقة اداثها ، فارسل إلى بيجامدر الامير مجاهد فتم له فتحها واتفق مع اهلها على أن يظلوا فى اراضيهم يزرعونها لقاء خراج سنوى، كما ولى الامام صبر الدين على سمن Semen حيث أخذ فى تعمير المدن والمساجد فيها، وولى على درجة (شمال جود جام) عليا حيث سار سيرة صبر الدين فى تعمير المدن وبناء المساجد . وزرسناى على تجرى (١) . وجاشا عمر على ولاجا . والامير حسين على دوارو . والجرد صديق بن على على شرخا . وعمر اخا الوزير عدلى على بالى . اما هو فاستقر فى دمبيا التى اشتهرت بكثرة خيراتها فاتخذها عاصمته (٢) ولم تكن سنه اذ ذاك تزيد على اربع وثلاثين سنة .

وإن المتتبع لخطوات هذه الحرب يستطيع أن يتبين بسهولة أنها كانت حربا من جانب واحد ، أى أن قوة هذا الداعى المسلم كانت ساحقة حتى استطاعت أن تجتاح الجزء الاعظم من اتيوبيا فى مد يسيرة لا تتجاوز العشر سنين كانت فيها الجيوش الاسلامية منتصرة على طول الخط والجيوش

(١) فتوح الحبشة ص ٣٣٩.

(٢) فتوح الحبشة ص ٣٠١.

المسيحية منهزمة على طول الخط ، لا تكاد تتجمع حتى تنهار . لقد ثار حق الدين قبل ذلك لمدة خمسين سنة ولكنه لم يستطع خلال هذه المدة الطويله أن يبسط سيادته على أكثر من مقاطعة شوا الشرقية بعيدا عن سلطة سلاطين ايفات وسلطة الامبراطور، كما أن الحرب بينه وبين جيوش الامبراطور كانت سجالا لقى فيها الثائر النصر مرة وهزم مرات، بينما بدأت ثورة الامام أحمد فى سنة ١٥٢٩ فلم تأت سنة ١٥٤٠ حتى كان إقليم دوبية تحت اقدامه الظافرة ، أى أنه استطاع أن يجتاح اتيوبيا من جنوبها الشرقى حتى شمالها الغربى عابرا نهرى أواش والنيل الازرق مجتازا اقليم جود جام الوعر فى مدى أحد عشر عاما ، بينما كانت جيوش الأمبراطور تنهار امامه وهو ينتقل من بلد إلى بلد فارا على وجهه . الأمر الذى لم يحدث قبل ذلك مطلقا. إن هذا الفرار ليدلنا على روح اليأس التى استولت على الجماعة المسيحية ممثلة فى امبراطورها. وطرحها كل امل فى امكان المقاومة .

وظاهرة أخرى نستطيع أن نتبينها بسهولة أيضا هى ظهور الدافع الدينى وتجسمه خلال حوادث هذه الحروب ، فقد طرزت رايه الأمام أحمد فى وسطها وعلى حافتها بالآيات

القرآنية. كما كان المسلمون يحرصون دائما على تخريب الكنائس أينما حلوا . واحراقها إذا تمكنوا من ذلك . كما حرص المسيحيون من جانبهم ايضا على هدم المساجد إذا اجتاحوا بلدا اسلاميا فحرقت الجيوش الإسلاميه كنائس دوارو وفاناجار وشوا فى سنة ١٥٢٩ كما حرقوا كنائس دبرا ليبانوس فى نفس السنة . كما حرقوا اديرة نجوادا جواد واترونا مريم وجناتا جورجيس فى اقليم اجوا سنة ١٥٣١ (١) كما احرقوا كنيسه اباصموئيل فى سنة ١٥٣٣ وأديرة هليلو وينكول ولا هاسو سنة ١٥٣٥، وخرب اقليم جود جام الملىء بالاديرة والكنائس أكثر من مرة . وفى سنة ١٥٤٠ حينما طارد عمار جيوش الامبراطور وهو يفر من دمبيا واجتاح مكانا يدعى سير وحرق ما به من الكنائس (٢) ولقد كانت هذه الكنائس والاديرة عامرة بالرهبان والقسس فقتل منهم عددا كبيرا خصوصا القسس غير القادرين على تحمل مشاق الفرار والهرب أما من استطاعه فقد فر بحياته هائما من بلد إلى بلد طالبا الامان بعد أن خلع لباسه الدينى الذى يتم عليه وكانت أكثر الاديرة استعداد لتقبل الفارين هى الاديرة البعيدة عن يد الغزاة

---

(١) Budge, Vol II P. 33u.
(٢) Budge, Vol II. P. 334.

وهى الموجودة فى بحيرة طانا والتى لا تزال حتى الآن قائمة فى جزر هذه البحيرة وسرعان ما تنبه الإمام إلى هذا المعقل الأخير الذى عز عليه فتحه لعدم وجود القوارب اللازمة للغزو ، ولكنه تغلب على هذه العقبة باتخاذه القوارب من جذوع الأشجار بعد نحتها وطليها بالقار ، وهى الطريقة التى كان يلجأ إليها الرهبان انفسهم فاتم اخضاع هذه الأجزاء ايضا بعد قتل من كان بها من الرهبان وقتل من لم يخضع له (١) منهم وكان قبل ذلك قد أمنهم لقاء حجزبة الرأس فرفضوا

وقد دفع انتصار المسلمين الساحق بالمسيحيين إلى اعتناق الإسلام فاعتنقته نسبة هائلة من السكان (٢) فرارا بحياتهم وخوفا من السبى والتشريد وبذلك أصيبت المسيحية فى أتيوبيا بأنهيار لم تلقه فى سالف أيامها (٣) .

وظاهرة أخرى تلاحظها فى هذه الحروب وهى أن المسلمين جميعا انضموا إلى ناحية الأمام أحمد دون تردد فلم

---

(١) فتوح الحبشة ص ٣٤٦ .
(٢) Budge vol II. p.334
(٣) نفس المصدر ص ٣٢٨

تلق جيوشه المتدفقة إلى أيفات ودوارو وبالى أية مقاومة بل انضم إليه امراؤها وشعوبها، وحملوا جميعا سلاحهم فى وجه الامبراطور الذى طالما اسبغ عليهم حمايته ومعونته ضد الثائرين من رعاياهم. والمسلمون الذين كانوا فى جيش الامبراطور وكونوا جزءا من الجيش الامبراطورى وكان الامبراطور يعتمد عليهم سرعان ما تركوا أماكنهم وانضموا إلى أخوانهم فى الدين وكذلك مسلمو سنار أيضا سرعان ما انضموا إلى الجيوش الإسلامية وعقدوا معهم حلفا. ولم يقف تعضيدهم عند حد هذا الحلف بل انقسمت اتيوبيا للمرة الأولى فى تاريخها إلى معسكرين ظاهرين معسكر المسلمين ومعسكر المسيحيين تحدو كلا منهما الرغبة فى تحطيم الاخر تحطيما ساحقا.

وظاهرة أخرى تظهر فى هذه الحروب وتميزها عما سبقها من الحروب وهى ظاهرة القسوة الوحشية التى اتبعها كل فريق من المتحاربين. فقد حرص الطرفان على تخريب المدن التى يحلون بها(٣) وحرقها وقتل أكبر عدد ممكن من الرجال القادرين وسبى النساء واسترقاق الرجال وبيعهم فى

(١) فتوح الحبشة ص٤٤ و٦٦ و٢١٦

أسواق الرقيق فقد قتل المسلمون يوم استيلائهم على كنيسة أبا صموئيل كل من كان بها من الرهبان وعددهم خمسمائة(٤) كما قتلوا من كان بكنيسة كسامة فى جودجام من الرهبان أيضا وعددهم ألف(٥) كما كانوا لا يترددون فى نبش القبور وأحراق ما بها خصوصا إذا كان أصحابها موضع التقديس عند الاتيوبيين(٦) أما من لم تنله يد القتل أو السبى فقتل تحت انقاض أكواخه المحطمة يتنازعه الخوف، فكان من أثر ذلك أن توقف الناس عن العمل، واقفرت الأرض ونفقت الماشية أو نهبت، فانتشرت المجاعات حتى أكل أغلب الناس التراب بعد أن عزت النباتات، وأخذت الأمراض تفتك بهم فتكا ذريعا.

أزاء قوة الثائرين التى بدأت منذ ثورة حق الدين بن أحمد حرب ارعد ضد جده على بن صبر الدين التى استمرت خمسين سنة يقودها أبناء سعد الدين متوالين دون أن يتمكن سلاطين ايفات من سحقها رغم مساعدة الدولة لهم، رأى

(١) نفس المصدر ص٣٢٢

(٢) نفس المصدر ص١٩١

(٣) نفس المصدر ص١٤٢.

الامبراطور زره يعقوب ضرورة الاستعانة بقوة خارجية لاتمام سحق هؤلاء النخاسين كى تتمتع البلاد بالهدوء الذى يرجوه لها، ولم يكن زره يعقوب صاحب هذا التفكير بل يعود الفضل فيه إلى الملكة هيلانة زوجته وابنة القائد محمد حاكم هدية الذى كان الامبراطور يعتمد عليه كل الاعتماد فى الاشراف على الجزء الشرقى من دولته، فقد كانت هذه الملكة تتمنى أن ترى التعاون يسود جميع شعب أمبراطوريتها كى يعمل الجميع على تقدمها(١) ولكن لما كان زره يعقوب قد استطاع وحده — معتمدا على تنظيماته الإدارية وعلى معاونه سلاطين الولايات الإسلامية — أن يكبح جماح الثائرين، لم تخرج الفكرة إلى حيز الوجود واكتفى بإرسال وفد اتيوبى إلى مجمع فلورنسا (١٤٣٩ — ١٤٤٢) الذى عقد لغرض توحيد الكنيستين الشرقية والغربية(٢).

أما خلال حكم لبنا دنجل فقد ماتحد المسلمون جميعا تحت لواء الأمام أحمد بن إبراهيم وتقدم هذا غازيا البلاد هـذا

---

(١) Budge Vol. II. p. 337.

(٢) Budge. Vol. p. 334

الغزو الناجح فرأت الامبراطورة هيلانة — وكانت هى القابضة على سياسة الدولة خلال حكم الأربعة ملوك المتعاقبين منذ وفاة زره يعقوب — أن الانتظار لن يكن إلا وبالا على البلاد فارسلت فى سنة ١٥١٥ بعثة إلى مصر حليفة اتيوبيا التقليدية وذات الصلات الوثيقة بها منذ القدم وصاحبة الأسطول الكبير الذى كان يجوب البحر الأحمر وينشر النفوذ المصرى فى المحيط الهندى ويرغم حكام دهلك ومصوع على الخضوع وتقديم موانيهم للأسطول المصرى كقواعد حربية بينما كانوا خاضعين من الوجهة النظرية لأتيوبيا(١).

ولكن حالة مصر فى هذا الوقت لم تكن تساعدها على مد يد المساعدة المطلوبة فقد كان على رأسها السلطان الغورى وكان يستعد بجيوشه لمحاربة السلطان سليم التركى الذى كان قد انتهى من حرب فارس واظهر ماكان ينويه من نيات عدائية نحو مصر. هذا إلى أن الأسطول المصرى كان قد منى بالهزيمة فى موقعة ديو أمام البرتغاليين فى سنة ١٥٠٩(٢)

---

(١) Murad Kamel, Bulletin la Société d'archéologie Copte Vol VIII, 90.

(٢) Kamerer T. II. P. 152.

وقبض هؤلاء على التجارة الهندية خصوصا بعد أن استولوا على عدن فى سنة ١٥١٣(١) واحتلوا قمران ودهلك ومصوع بعدها(٢) فعولت على أن تطلب المساعدة من هذه الدولة المسيحية الناشئة بعد تحولت الحروب فى اتيوبيا من مناوشات يقوم بها ثائرون صغار أو قطاع طرق أو تجار رقيق محليون إلى حروب دينية تجمع فيها المسلمون فى قوة متحدة جبارة لمنازعة القوة المسيحية صاحبه السيادة الشرعية فى البلاد، لذلك عولت الملكة هيلانه على أن تستخدم فى هذا الشأن كوفلهام(٣) الذى لا يزال سجينا فى اتيوبيا. ووقع اختيار الملكة على تاجر ارمنى يدعى ماتيو فحملته رسالة إلى ملك البرتغال كما ارسلت معه نبلا اتيوبيا حملته الاخر هدية ثمينة هى قطعة من الخشب يقال انها من الصليب الاصلى.

---

(١) Kamerer T. 11 P 172.

(٢) Kamere T. II. P. 122

(٣) كان كوفلهام هذا رسولا للملك عمانويل إلى ملك اتيوبيا وقد جد فى الوصول إلى زيلغ فى ١٥٠٧ ثم إلى الهضبة يحرسه بعض الأمراء المسلمين من أسرة سعد الدين التى كانت ثائرة على سلاطين ايفا فلقيه الامبراطور أحسن لقاء ولكنه منعه من الخروج من البلاد استجابة لدسائس من كان حوله من الأجانب فمكث فى البلاد وتزوج من سيدة اتيوبية وأصبح له مركز ممتاز فى أتيوبيا.

وفى أثناء الرحلة مات النبيل الاتيوبى واتم الارمنى الرحلة وحده إلى الهند فقبض عليه فى دابول بتهمة التجسس ولكن اطلق سراحة بواسطة البوكيرك ومن هناك ابحر إلى لشبونة حيث استقبله الملك عما نوبل (١٤٩٥ - ١٥٢١) وانصت إليه وصمم على أن يرسل إلى اتيوبيا بعثة للتفاهم أولا مع الامبراطور واختار لرئاسة البعثة نبيلا عجوزا يبلغ التسعين من عمره ومعه ستة عشر برتغاليا وابحر الجميع من لشبونة على ظهر اسطول صغير أسندت رئاسته إلى لوبز الفارز وفى الطريق مات رئيس البعثة ووصل بقية اعضائها ومعهم ماتيو إلى مصوع، حيث استقبلهم حاكمها، وزودهم بالادلاء والمؤونة لقطع الرحلة إلى داخل الهضبة، وفى هذا الجزء من الطريق مات ماتيو وواصل بقية اعضاء الوفد الرحلة إلى الداخل حيث قابلوا الامبراطور الذى كان قد انتصر على ثورة محفوظ صاحب هرر واجتاح ولايتى دوارو وفاتجار بمعونه القائد ابون ومعه الامام أحمد بن إبراهيم، فشعر أنه لم يعد فى حاجة إلى مساعدة أحد، فلما عرض عليه لبما رئيس الوفد الجديد مشروع معاهدة بينه وبين ملك البرتغال رفضها القساوة شروطها واقترح هو مشروع معاهدة جديدة حملها هذا الوفد الذى

عاد ادراجه إلى البرتغال فى سنة ١٥٢٦ ومعه راهب اتيوبى يدعى صاجا زاب بعد أن احتفظ الامبراطور باحد اعضاء الوفد وهو جياز برمودز الطبيب Jeaz Bermodez رهينة عنده .

وفى هذه السنة فقد الامبراطور أهم مستشاريه ممثلا فى الملكة هيلانة التى كانت فى الواقع القوة المحركة وراء العرش بعد أن بلغت الخامسة والسبعين من العمر .

وقد تضمنت الرسائل التى حملها هذا الوفد كتابين أولهما إلى ملك البرتغال يتضمن مشروع حلف يتكفل فيه ملك البرتغال بمساعدة اتيوبيا فى حروبها ضد هؤلاء الثائرين بمدها بالذخيرة على أن يكون نصيب لبنا دنجل هو المال والرجال (١) وثانيهما إلى البابا كلمنت السابع (١٥٢٣ — ١٥٣٤) يعترف فيه لبنا دنجل بتبعية الكنيسة الاتيوبية للكنيسة الغربية .

ولكن السنين مضت دون أن يرى لبنا دنجل نتيجة لهذه الوفادة أعلن فيها الامام أحمد بن إبراهيم الثورة على

---

(١) Budge Vol. P. II. 332.

الامبراطور وقتل السلطان وأخذ فى تكتيل المسلمين ضد المسيحيين وفى مهاجمة الأملاك الامبراطورية ، وأصبح الامبراطور مطاردا من بلد إلى بلد فبادر الامبراطور عملا بنصيحة برومودز بتنفيذ ما وعد به من تبعية الكنيسة الاتيوبية إلى الكنيسة الغربية فنصب برمودز بطريركا لاتيوبيا وقدم عربونا لهذا الاعتراف وهذه التبعية احتفاله بعيد الفصح فى سنة ١٥٣٨ طبقا للتقويم الجريجورى (١) .

وبصفته بطريركا لاتيوبيا سافر برمودز إلى لشبونه وقابل الملك جون الثالث ، ووصف له مركز المسيحيين فى اتيوبيا وأنهيار المسيحية أمام انتصار المسلمين الساحق فزوده الملك بخطاب إلى نائبه فى الهند يكلفه فيه أرسال أسطول برتغالى مزودا بأربعمائه وخمسين جنديا لمساعدة ملك اتيوبيا ولمقاتلة المسلمين، ورحل برمودز إلى جوا فوصلها فى سنة ١٥٣٩ وقدم الكتب إلى دون جراسيا نائب الملك، ولكن هذا مات وخلفه فى المنصب دى جاما الذى كان معنيا بأمر نشر النفوذ البرتغالى فى الهند أكثر من أى أمر آخر ، فمرت هذه السنة وكذلك سنة ١٥٤٠ وفيها مات لبنا دنجل طريد ، دون أن يرى نتيجة لعروضه المختلفة .

---

(١) Budge Vol. II. 334

ومن الطبيعى أن يعارض رجال الدين الوطنيون وكذلك بطريرك الاسكندرية هذا التغيير فقد كانت هذه الخطوات هدما صريحا لمعتقداتهم الدينيه كما كانت مؤذنة بزوال سلطانهم من البلاد ولكن الأولين ماكانوا يملكون من الأمر شيئا، كما رأو بأعينهم ما حل بالبلاد من خراب وبكنائسهم من حرق وتدمير وبرجالهم من قتل وتشريد .

أما رجال الدين فى مصر فلم يكونوا بأصحاب قوة يستطيعون بها مساعدة أخوانهم فى العقيدة كما أن حالتهم الروحية والمعنوية ما كانت تمكنهم من مجرد الاحتجاج على هذه الخطوة ، فقد كانت العلاقة بين الكنيسة الاتيوبية وأمها المصرية فى ذلك الحين فاترة(١) مما أدى إلى خلو منصب المطران منذ سنة ١٤٧٠ وظل كذلك ثمانين سنة (٢) كما أن ما حاق بمسيحيى مصر من الأضطهاد خلال الخمسين سنة الأخيرة من حكم المماليك والسنين الأولى من الحكم التركى لم يجعل لهم مجالا فى التفكير فى غيرهم فقد فرض السلطان العادل (١٤١٢) على الأقباط ضريبة خاصه وأنشأ لهذا الغرض مكتبا يقيد فيه أسماء مواليدهم

( ) تاريخ الكنيسة القبطية ص ٦٠٦
(٢) نفس المصدر ص ٦٠٨

ووفياتهم(١) كما صرح السلطان المحمودى (١٤١٢ — ١٤٥٣) للمماليك باضطهاد الاقباط فامر قائد الجند بالهجوم على بابلون بحجة اتلاف مافيه من الخمر وهجموا على الاقباط يوقعون بهم ويسلبونهم ما معهم حتى استرضوه بمبلغ وافر، وفى سنة ١٤١٨ صدر أمر برفت جميع موظفى الحكومة من الاقباط فبدأوا بقبطى كان سكرتيرا للوزير الأول فأمر السلطان بحبسه وتعذيبه فجرده من ثيابه وجروه فى شوارع القاهرة وأمامه موظف ينادى قائلا (هكذا يفعل بكل موظف قبطى) فأسلم من الموظفين كثيرون واختفى باقيهم فى منازلهم(٢) وفى سنة ١٤٦١ أيام السلطان المستنجد هجم المماليك على الاقباط فى مصر القديمة ونهبوا أموالهم وكل ما وصل إلى أيديهم ، وفى سنة ١٤٦٧ أيام السلطان قايتباى لم يكف الرعاع عن التحرش بهم . وفى سنة ١٤٨٤ هجم عرب الوجه القبلى على ديرى بولا وانطونيو وقتلوا جميع من بهما من الرهبان، فبقيا خرابا نحو ثمانين سنة وكان فيهما مكتبتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب القديمة الثمينة فحرقوها عن أخرها (٣) وعندما أحتل السلطان سليم البلاد سنة ١٥١٧

(١) نفس المصدر ص ٦٠٣
(٢) تاريخ الكنيسة القبطية ص ٦٠٤
(٣) نفس المصدر ص ١٦٥

سار على موال من سبق من السلاطين فى ظلم المسيحيين أكثر من غيرهم . وزاد السلطان بايزيد فى اضطهادهم وشجع الغوغاء على إيذائهم (١) وقد فاق الاضطهاد الذى وقع على أصحاب الحرف والصنائع من المسيحيين ما كان يقع على زملائهم، حتى اعتنق الإسلام منهم كثيرون رغبة فى ترويج بضائعهم، وفى سنة ١٥٢٦ طالب السلطان سليم الانبا غبريال السابع البطريرك بمالا يقدر عليه من الغرامة ففر من وجهه قاصدا برية العرابة ومات أثناء عبوره النهر كما فرضت على الحجاج المسيحيين ضريبتان اضافيتان أحداهما ثمانية ريالات إذا نوى الحاج السفر والثانية أربعة ريالات يدفعها عقد دخول المدينة المقدسة (٢) .

وسط هذه الظروف القاسية التى تدعو إلى اليأس تولى منصب البطريركية الأنبا مرقص الخامس الذى وجه جهوده نحو رعاية شعبه وتخفيف مطالبه . بينما ولى العرش الاتيوبى الامبراطور جلاوديوس سنة ١٤٠٨ ولم تكن سنه تزيد على ثمانية عشر عاما كما لم يكن هو أكبر أخوانه فقد مات الأول فى الحرب وأسر الثانى فى مواقع سابقة فصمم رغم ذلك على

(١) نفس المصدر ص ٦١١
(٢) تاريخ الكنيسة القبطية ص ٦٢٠

أن يسحق الثورة الإمام احمد ويعيد إلى البلاد هدوءها فعبر إلى تجرى وامضى الشتاء هناك فى جمع الرجال والعتاد حتى إذا شعر أنه اتم استعداده جمع قوة من المشاة سار بها إلى شوا وهاجم نصر الدين بن الإمام احمد الذى كان يقود قوة مكونة من ألف فارس وعشرة آلاف راجل ، فلم يقو على الوقوف أمامه طويلا وارتد إلى شرق شوا حيث انضم إليه عدد من العرب الناقمين على الإمام وتحصنوا فى قمة جبل فى أيفات فهاجم نصر الدين ولكن دارت الدائرة عليه وقتل من جيشه عدد كبير .

وكان هذا أول انتصار يحرزه المسيحيون منذ أن قامت الحرب بين الإمام احمد بن ابراهيم وبين امبراطور اتيوبيا كان نقطة التحول فى تاريخها، وانفك الطلسم الذى كان يدور حول الإمام الذى اعتقد كما اعتقد أنصاره وشاء المنتفعون من حوله أن يصوروه للمسلمين فى اتيوبيا مرسلا من الله لرفع شأن المسلمين وكسر شوكة أعداء الدين (١) فقد ذكر عنه صاحب (فتوح الحبشة) أنه (قائمة من قوائم الله وسيف من سيوف الله انتقاه الله تعالى لدينه ناصرا وللكافرين قاهرا وللكتب الباطلة ممزقا ولبيوت البهتان محرقا ولحزب الشيطان

(1) Budge, vol. II. P. 339

اللعين مفرقا)(١) فكان انتصار جلاوديوس على أبنه نصر الدين بمثابة اليد التى أمتدت إلى عيون المسلمين ورفعت ما كان عليها من غشارة، بدأت عندما بدأ الإمام دعوته فى سنة ١٤٢٩ واستمرت اثنى عشر عاما . فأخذ نفوذه ينهار منذ هذه اللحظة وأخذ عدد من الاتيوبين الذين أرغموا على اعتناق الإسلام أو الذين أخذوا بأنتصارته السابقة فى العودة إلى النصرانية ومن ثم العودة إلى مكانهم الطبيعى بين صفوف الإمبراطور، (٢) كما أخذ المسلمون الذين ارغموا على الانضمام اليه والأمراء الذين عزلوا ففقدوا مظاهر الامارة التى كانوا يتمتعون بها فى ظل الحكم الاتيوبى ، وانضموا اليه والأمراء الذين اسىء اليهم من بعض أنصاره وقواده وزرائه أخذوا جميعا فى التفكير فى تركه والرجوع إلى مكانهم السابق من حيث ولائهم للامبراطور (٢) فكان من أثر ذلك أن أنتصر جلاوديوس فى بعض المعارك الصغيرة التى تلت الأنتصار الأول وكان ذلك فى أوائل سنة ١٥٤٢ .

وفى هذه الحالة اللحظة وصلت المعونة البرتغالية وهى

(١) ص ٤
(٢) Budge, vol. II. P. 339
(٣) Bugde, vol, II, P. 339

اربعمائة وخمسون جنديا برتغاليا يقودهم كرستوفر دى جاما ومعهم جان برمودز ، وسرعان ما انضموا إلى جنود الامبراطور (١) ولكنهم هزموا فى المعركة الأولى واسر قائدهم وفر الباقون، فشجع ذلك نصر الدين على أن يشن هجومه على جنود الامبراطور بقوه هائلة ، فاصيب بهزيمة منكرة وقتل عدد كبير من جنوده وهام فرسانهم وسط الاودية بعد أن تركوا خيولهم فاستولت عليها جنود جلاوديوس .

وبعد ذلك اصيبت الجيوش الثائرة بضربة شديدة كان وقعها على الامام أحمد أشد من وقعها على أى أحد آخر ، وهى موت نصر الدين موتا فجائيا وقيل يومذاك أنه مات مسموما (٢).

وهذه الرواية وإن كانت موضع شك عند المؤرخين حتى الان. إلا أنها لو صحت لكانت دليلا على ظهور معارضة قوية بين صفوف الجيوش الاسلامية . وأن هذه المعارضة بدأت تظهر وتلعب دورا على مسرح الحوادث، وبدأ من ذلك الوقت نجم المسيحيين فى التألق وأخذت قوات أحمد بن إبراهيم فى

(١) La Purtu.alutch
(٢) Budge, Vol. II, P 339'

الانهيار ، وكان انهيارها اسرع بكثير من تكونها. فقد أنقض جلاوديوس ومعه قوات البرتغاليين على قواته فى وجارجنوب غربى سمن، وهزمها هزيمة منكرة وقتل منهم عددا كبيرا منهم قائدهم سعيد بن محمد وكان ذلك فى يونيو سنة ١٥٤٢ وأتبع ذلك بانقضاضه على القرى الاسلامية وحرقها وترك وراءه اينما حل الخراب والدمار .

وبعد بضعة أشهر (فبراير سنة ١٥٤٣) شجع هذا الانتصار جلاوديوس على أن يهاجم جيوش الامام أحمد الرئيسية، وهى مكونة من عشرة آلاف جندى (كلهم قوى كالأسد سريع كالنمر يلبس أغلبهم الدروع المصنوعة من الصلب ويمسكون الحراب والسيوف كما يحمل أخرون البنادق التركية الحديثة)، فاخترقت الجيوش الأمبراطورية الجبهة الرئيسية واعملت فى جنودها القتل ، واخترقت فصيلة منهم بقيادة بدرو ليونى الصفوف الى حيث الأمام نفسه واطلقوا عليه الرصاص فجرح جرحا مميتا ، ولما ايقن بالهزيمة انسل الى الغابة وحيدا وهو يقطر دما ، فتبعه بدرو ليونى حتى رآه يسقط عن جواده ميتا (١) .

---

(١) Ya Purtugalutch P, 45.

وبموت الإمام احمد فقد الثائرون قلبهم النابض فدارت عليهم الهزيمة وقتل منهم عدد كبير ، وفر الباقون صوب الساحل يحملون معهم زوجة إمامهم وأولاده، كما حملوا معهم أولاد قائدهم السابق سعيد بن محمد الذى سقط فى معركة سابقة واختفوا بهم إلى حيث لم تعد اثيوبيا تسمع عنهم شيئا.

ومن الملاحظ أن أنهيار القوة الإسلامية بعد أن تولى جلاوديوس العرش وبعد مجيء القوة البرتغالية كان سريعاً ، وأن هذه الامبراطورية التى تعب الإمام احمد فى بنائها بالدم خلال اثنى عشر عاما قد أنهارت إلى الأرض فى أقل من ثلاث سنين كما أن هذه القوة البرتغالية اليسيرة كان لها أثر كبير فى هذا الانتصار الذى أصابه المسيحيون .

وظهر أثر هذا الانتصار سريعا فى البلاد حيث أخذ المسيحيون الذين أرغموا على الانضمام إلى صفوف الثائر فى إظهار مسيحيتهم الأولى كما أخذ الرهبان ورجال الدين الذين أرغموا على الفرار أو الاختباء فى الاديرة فى الظهور واستعادة حياتهم الأولى ، وأصبح تفكير المسلمين فى تكوين دولة إسلامية لا يعدو حلما يداعب اذهانهم من وقت لآخر .

وكانت قبائل الجالا الحامية قد دخلت اتيوبيا — تحت ضغط قبائل الصومال التى تعيش فى المنخفضات الساحلية من الجنوب عن طريق وديان جوبا وشبلى ، ومن الغرب ، واستقروا فى الأجزاء المنخفضة الشرقية والجنوبية والغربية يحيون حياتهم القبلية السلمية . حتى إذا هزمت الجيوش الإسلامية وتفرقت، أحدث تحطم هذه القوة فراغا انساحت اليه قبائل الجالا . وأخذت تسكن الاقليم القليلة الاتفاع المحصورة بين هرر ووادى نهر اواش . كما اغرتهم خصوبة بالى وكثرة الاعشاب بها فاتجهوا إليها . وكذلك عبروا نهر اواش واتجهوا نحو الاقاليم المنخفضة المحصورة بين ساحل البحر الأحمر والحافه الشرقية للهضبة، وهى اقاليم الدناكل ولم يثر تقدمهم ريبـــة جيوش جلاوديوس المنهكة خصوصا وقد تعلموا استعمال الحصان من الصوماليين ، ووصلوا إلى إقليم والو فى نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر فى موجات متتالية حيث عاشوا معيشتهم القبلية منفصلين عن المجتمع الاتيوبى .

هذا بينما خلف الامير نور فى هرر أحد اتباعه هو الامير عثمان الذى لم يجد بدا من دعوة بعض هذه القبائل المسالمة لتسكن إلى جوار هرر وتتردد على اسواقها . إلا أن

سوء التفاهم لم يلبث أن دب بينهم فأغار الجالا على هرر ونهبوها وخربوها فى الربع الأخير من القرن السادس عشر . وكانت قوى المسلمين قد انهكت من جراء المجاعات التى نزلت بهم نتيجة لغارات الجراد فقتلوا الامير عثمان ، وخلفه الأمام محمد أحد أفراد عائلة الإمام فلم يجد بدا من أن ينقل مركز سلطنته إلى الشمال فى اوسا سنة ١٥٧٧ تاركا هرر فى يد أخيه بعد أن منحه لقب الوزير .

ولكن السلطنة فى المركز الجديد لم تكن بعيدة عن متناول الجالا كما كان يظن السكان ، فهجموا عليها أكثر من مرة وقتلوا سبعة سلاطين آخرين تعاقبوا على عرش اوسا فى مدى خمس سنين . وأمتدت هجماتهم إلى كل ما يحيط بأوسا من الانحاء . فلم تأت نهاية القرن السابع عشر حتى أصبحت كل هذه الاجزاء الشرقية المطلة على البحر الأحمر خرابا بلقعا . حتى اضطرت زيلع أن تطلب الحماية من أمير مخا . وعلى هذه الصورة انتهت الولايات الشرقية كقوة اسلامية فى شرق افريقيا .

الباب السادس

بحث العوامل التى ادت إلى سوء العلاقة بين المسلمين والمسيحيين

لم تكن هذه الحروب التى دارت بين الإمام أحمد ابن إبراهيم أمير هرر وإمبراطور أتيوبيا أول حروب تدور بين أمير وإمبراطور فى تاريخ هذه البلاد ، فثورات الأمراء ومحاولات الملوك إخضاعهم تكاد تشمل تاريخ أتيوبيا كله .

ولم تكن هذه الحروب أيضاً أول حروب تدور بين أمير مسلم والإمبراطور ، فقد سبق الإمام فى ذلك حق الدين ابن أحمد سيف أرعد وأخوه سعد الدين وأبناء أخيه الذين استمروا فى ثورتهم خمسين سنة قاست البلاد فيها الشىء الكثير من التخريب والتدمير .

ولكنها كانت الحروب الأولى فى تاريخ أتيوبيا التى ظهر فيها هذا الدافع الدينى هذا الظهور الواضح، حتى لكأننا نستطيع أن نسميها الحروب الصليبية الأولى فى تاريخ أتيوبيا. فقد ذكرنا

فى الباب السابق — كيف كان المسلمون ينظرون إلى زعيمهم الإمام أحمد بن إبراهيم كرجل مسلم ورع تقى ، بل داعية دينى أرسله الله لنشر الإسلام وتقويض المسيحية . ومن ثم كان هم المسلمين متجها نحو إرغام غير المسلمين على اعتناق الإسلام أو قتلهم إن رفضوا ذلك ، وإلى هدم الكنائس والاديرة وقتل الرهبان والقسيسين ، ثم إلى بناء المساجد وإعلان شأن الدين .

كما أنها كانت الحروب الأولى فى تاريخ أتيوبيا التى كانت فيها قوة الثورة ساحقة إلى حد الانتصار الدائم المستمر مدى اثنى عشر عاما ، اكتسحت فيها بلاد أتيوبيا كلها من شمالها إلى جنوبها ولم يبق فى البلاد إلا مكان صغير يستطيع الإمبراطور ومن معه من أنصار قليلين أن يلجأوا إليه ، وبلغ من شدة هذه الثورة أن طورد الإمبراطور وعائلته وأتباعه من بلد إلى بلد يقاسون الجوع والمرض والحرمان دون أن يجدوا عائلا أو نصيراً .

كما أنها كانت الحروب الأولى فى تاريخ أتيوبيا التى أتسمت بهذه الوحشية القاسية الجارفة من كل من الطرفين ، حتى لقد تجرد الطرفان من إنسانيتهما. فالنهب والسلب وكذلك التدمير

والحرق والقتل أصبحت كل هذه الظواهر عادية تكاد تتبع كل معركة وكأنها أصبحت جزء منها .

كما أنها الحرب الأولى فى تاريخ أتيوبيا التى دخل فيها أرض الوطن جيش أجنبي لمساعدة أحد الفريقين على الفريق الآخر ، الأمر الذى لم يحدث مطلقاً فى تاريخ هذه البلاد بالرغم مما حدث من الثورات المتعاقبة التى لم تهدأ قط . وإذا كان صاحب اليمن قد ساعد أبناء سعد الدين حينما فروا إليه وجهزهم وأعادهم إلى أتيوبيا لمواصلة ثورتهم ضد السلطان وضد الإمبراطور إلا أن هذه المساعدة حدثت خارج البلاد ولم يصل الأمر فيها إلى حد إرسال جيش أجنبي ليطأ أرض أتيوبيا ويحارب فى صف أحد الفريقين .

فما الذى بدل علاقة المسلمين بالمسيحيين فى أتيوبيا سوءاً بعد حسن . حتى لقد انضم المسلمون جميعاً إلى جانب الثائر متناسين ولاءهم السابق للإمبراطور متجافين مكانهم الطبيعي بين صفوفه ؟

وما الذى طبع حروبهم بهذا الطابع الجديد الذى لم تألفه من قبل ؟ وما الذى منح المسلمين هذه القوة الجبارة المتدفقة التى لم تستطع قوات أتيوبيا بأكملها أن تقف أمامها وتصدها

طيلة اثنى عشر عاما حتى لقد اضطر الإمبراطور إلى طلب المعونة الأجنبيـــة مضحيا فى ذلك بكنيسته ، الأمر الذى لم يحدث من قبل ؟

ولكى نستطيع أن نجيب على هذه الأسئلة ينبغى أن نعود إلى الوراء قليلا .

كانت مصر منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى تحت حكم دولتى المماليك البحرية والبرجية اللتين كانتا تحكمانها حكما أساسه الفوضى وسوء الإدارة ، وامتد حكمهم حتى شمل مصر وسوريا حتى جبال طوروس ، وكذلك الحجاز وامتلأت أسواق القاهرة والشام بما كانت تحمله السفن والقوافل من السلع التجارية الهندية التى يتهافت عليها تجار أوروبا من البنادقة لبيعها فى الأسواق الأوروبية المحتاجة إلى أمثال هذه المواد فيجنون منها أرباحاً تفوق حد التصور .

وكان العرب إلى جانب الهنود ملاحين ممتازين يستطيعون السفر فى المحيط الهندى بحكم خبرتهم وتعلمهم هذا الفن منذ صغرهم فى رحلاتهم المتعددة فى تلك الأجزاء من العالم خصوصاً لنقل الحجاج فى مواسم الحج [1] وبلغ من

(1) Kamerer T. II P. 72

خبرتهم أنهم توصلوا إلى إختراع آلات ملاحية متعددة لم تتوصل أوروبا إلى إختراع مثلها، كما توصلوا إلى عمل خرائط جغرافية لهذه الأجزاء التى إعتادوا إرتيادها على جانب كبير من الصحة (١) كما كان لملاحيهم فى فن الملاحة كتب ترجم الإميرال التركى سيدى على أحداها إلى اللغة التركية عام ١٤٥٥. هذا بينما كان البنادقة فى الشمال هم الذين يتولون حمل هذه التجارة إلى أسواق أوروبا لطول خبرتهم فى هذا البحر خصوصاً بعد أن أعطتهم الحروب الصليبية الطريق إلى شرق البحر المتوسط وجنوا من ذلك أرباحاً هائلة، حتى إذا كانت سنة ١٢٠٠ كانت سفنهم هى التى تشتغل بالنقل فى هذا الجزء من العالم. مما أدى إلى نمو ثروة التجار الارستقراطيين فيها(٢) حتى إذا انتهت الحروب الصليبية صارت للبندقية السيطرة على البحر الادرياتى والجزائر الأيونية وأرخبيل اليونان وبحر مرمرة والبحر الأسود وعلى التجارة بين القسطنطينية وغرب أوروبا ، وأصبحت لها موانى فى سوريا وشبه جزيرة المورة بل أصبحت لها السيطرة على التجارة بين أوروبا وموانى الشرق .

(١) نفس المصدر ص ٧٧

(٢) Univera History vol. VI P. 3528

وقد أثارت هذه الثروات الضخمة التى جناها التجار البنادقة حسد أناس آخرين ، أثارت حسد المصريين وأقصد بالمصريين هؤلاء المماليك الذين تاقت نفوسهم إلى مشاركة هؤلاء التجار نصيبهم من هذه الثروة. كما أثارت حسد شعوب البربر الذين يقطنون شمال إفريقيا كما أثارت حسد الأسبان والبرتغاليين .

أما المماليك فكان سبيلهم إلى هذه المشاركة هذه الضرائب الفادحة التى ضربوها على هؤلاء التجار عند دخولهم أو خروجهم من مصر ، وقد بلغ من فداحتها فى بعض الأحيان أنها كانت أربعة أمثال قيمة هذه السلع. وهذه الغزوات التى شنها المماليك وأعوانهم قطاع الطرق على قوافل التجار أثناء إجتيازها مصر من القلزم إلى الإسكندرية ، عرضت حياة هؤلاء التجار إلى الأخطار التى بلغت فى بعض الأحيان حد الموت ، كما كانت سببا فى زيادة أثمان هذه السلع . كما كانت سببا دفع هؤلاء التجار وحلفائهم فيما بعد إلى التفكير فى البحث عن طريق جديد لهذه التجارة يجنبهم هذه الضرائب الفادحة وهذا التعرض لخطر فقدان الحياة .

وهذا هو الطريق الذى سلكه بربر شمال إفريقيا أيضاً

ليشاركوا هؤلاء التجار أرزاقهم فأخذت مراكب القرصان فى الإغارة على سفن التجار وسلبها مما زاد فى رغبتهم البحث عن طريق جديد لتجارتهم .

وإذا كان الأسبان والبرتغاليون قد بادلوا البربر الإغارة على سفنهم إلا أنهم اتجهوا إلى جانب ذلك إلى السعى فى الاستيلاء على هذه التجارة من يد البنادقة ، خصوصاً بعد أن دبت فيهم النهضة التى دفعت بهم إلى طلب الاستقلال وطرد العرب من بلادهم .

فبينما كان المسلمون فى شرق البحر المتوسط يدفعون بالمسيحيين إلى الوراء ويتسودون التجارة بين أوروبا والهند، كانت الأمور تجرى فى الغرب على عكس ذلك تماما ،إذ قامت حروب صليبية شملت شبه جزيرة ايبيريا كلها للتخلص من حكم المسلمين . ولم يكد يشرف القرن الثالث عشر إلى نهايته حتى كان البرتغاليون قد احتلوا لشبونة ودفعوا بنفوذهم على الساحل الغربى حتى رأس فنسان وطرد ملوك قشتالة العرب من الأندلس ، وأطلوا على البحار الدفئة عن طريق ميناء أشبيلية التى تتركز ثروتها فى الإتجار مع إفريقيا . وفى خلال قرن واحد أصبح لكل من الأسبان والبرتغاليين أسطول

قوى مكنهما من السيادة على البحار (١) .

ولم تلبث البرتغال أن استقلت من ملوك قشتالة وشغل ملكها جون الأول بتنظيم مملكته الجديدة ودفعها إلى الأمام، فكان ذلك إيذاناً ببدأ التنافس بين أسبانيا والبرتغال وبداية الطريق الذى أدى بالأخيرة إلى تكوين إمبراطوريتها فيما وراء البحار ، فلم تمض سنة ١٤١٣ حتى قامت البرتغال بأولى حملاتها البحرية الخارجية لتأديب القرصان فى شمال إفريقيا ، وأدت هذه الحملة إلى استيلائها على ميناء سبتة معقل هؤلاء القرصان(٢) ونصب عليها الأمير هنرى الذى لقب فيما بعد بالملاح، وهنا سمع من أفواه التجار الذين كانوا يأتون بقوافلهم إلى أبواب مدينته ، قصصاً عن بلاد مسيحية يحكمها ملك مسيحى أسود هو القس حنا، تقع بلاده وراء الصحراء الإفريقية وهى على كثير من الثروة ومنها أتى هؤلاء التجار يحملون الذهب والعاج . وكان الأمير قد دخل فى زمرة جماعة القديس لويس وكرس حياته لقتال (الكافرين) فاستمد من حماسه الدينى فكرة الاتصال بهذه البلاد المسيحية حيث يستطيع أن يضع يده على منابع الثروة التى كانت سبباً فى غنى أعدائه

(١) Cambridge Modern Hist. Vol . 1. p. 10
(٢) Ibid . p. 16

فى الدين، ولن يكون هذا الطريق إلا خلف أملاك المسلمين القاطنين فى مصر وشمال إفريقيا، فعمل على تنفيذ هذه الفكرة واكتشاف الطريق إلى هذه المملكة المسيحية، وحينئذ يمكنه الاستيلاء على منابع الثروة. وإلى جانب ذلك تبين الأمير هنرى أن مستقبل شعب البرتغال رهين بسيادته على البحار، فعمل على إنماء موارد البرتغال البحرية، ولم يكن رجال البحر البرتغاليين حتى ذلك الوقت أكثر من صيادين خالين من كل ثقافة بحرية، الأمر الضرورى للرحلات الطويلة. فاستقدم عدداً من راسمى الخرائط الجغرافية والفلكيين من ميورقة وصقلية لتمرين رجاله وتعليمهم فن الملاحة على الطرق الحديثة وعلى أساس علمى صحيح، كما استقدم عدداً من بنائى السفن من خليج بسكاى لتحسين صناعة بناء السفن وجعل السفن البرتغالية صالحة للملاحة فى جميع الأجواء والبحار.

ولم يلبث أن وجه جهوده نحو جنوب بحر الظلمات بجوار الساحل الإفريقى. وكان هذا التقدم بطيئاً فى أول الأمر إذ لم يصل حتى سنة ١٤٣٤ إلا إلى رأس بوجادور، وحاول اكتشاف الساحل الإفريقى الصحراوى ولكن خلال السنين القصيرة التالية اكتشفت جزر ماديرا ومجموعة جزر أزورس فكانا أول مستعمرات برتغالية فيما وراء البحار وهاجر إليها

مستعمرون من البرتغاليين والفلاندرز، شجع الأمير مجهوداتهم الأولى بكميات من نبيذ الأندلس وبرتقالها وقصب السكر المستورد من صقلية، وحاول أن يضع قدمه فى كناريا ولكن القشتاليين عرفوا كيف يحبطون محاولاته خصوصاً وقد نصرهم مجمع بازل الكنسى فى سنة ١٤٣٦ حينما عرض الخلاف أمامه واستطاع البابا أوجين الرابع أن يصل إلى اتفاق بين المملكتين اعترف فيه ملك البرتغال بملكية قشتالة لهذه الجزر.

ومات الأمير هنرى بعد أن دفع شعبه إلى طريق التوسع الاستعمارى وواصلت البرتغال عملها من بعده فاكتشفت أراضى الزنوج على جانبى السنغال، كما اكتشف الساحل الإفريقى حتى الرأس الأخضر وسيراليون. وحتى هذا الوقت لم يكن ثمة أمل فى الوصول إلى أرض القس حنا بادى التحقيق، فاختفى العامل الدينى من حركة الاستكشافات وحل محله عامل تجارى محض الغرض منه الربح، وقد استفاد البرتغاليون من هذه الرحلات أن تعودوا الرحلات البحرية الطويلة كما كسبوا المران فى الحرب البحرية خصوصاً ضد الزنوج الذين اتخذوهم مادة لتجارتهم وأصبحت السفن البرتغالية

على درجة من التقدم فى الصناعة مما يؤهل لها مكاناً ممتازاً وسط البحريات القوية فى القارة الأوروبية كما أصبح الملاح البرتغالى إلى جانب اتقانه الملاحة محارباً ممتازاً خصوصاً فى القارة الإفريقية .

وواصلت البرتغال سياستها الكشفية تحت حكم جون الثانى الذى كان يرمى إلى ايجاد مملكة مسيحية فى غرب إفريقيا ليتوغل خلال القارة إلى الهند فانشئت قاعدة سان جون دى مينا على ساحل غانة وأخذت الحملات تخرج منها متوالية صوب الجنوب بحثا عن ممر يؤدى إلى الشرق وجمعت لهذا الغرض معلومات وفيرة عن الحالة فى الهند ، خصوصاً تجارة البهار التى كانت الغرض من كل هذه المحاولات ، ولأجل هذا الغرض حرص جون الثانى على أن تكون علاقته بجيرانه على أحسن مايرام ليمتنع تدخلهم فى أملاكه الجديدة ، وانتشر خبر الاستكشافات البرتغالية فى أوروبا وأصبحت لشبونة مقصداً لكثير من المخاطرين الذين يبتغون الثروة .

ولم يلبث البرتغاليون أن وصلوا إلى أقصى القارة جنوباً على يد برثلمودياز سنة ١٤٨٦ بينما كان كرستوف كولمبس يحضر معداته لاكتشاف طريق قصير إلى الهند .

ومات جون الثانى بعد أن قبل أن يجهز حملة ثانية لمتابعة أعمال دياز فكان أن قام خلفه إيمانويل بذلك ليجنى ثمار ثمانين سنة من العمل المتواصل ، وبعدرحلة دامت سنتين عاد فاسكو دى جاما سنه ١٤٩٩ محملا بتجارة هائلة ، ليعلن إلى مولاه أن الأشتراك فى تجارة البهار الهندية تقتضى مجهودا جبارا وقتالا رائعاً ، لأن هذه التجارة قد استقرت منذ قرون فى يد مسلمى جزيرة العرب والبحر الأحمر والمحيط الهندى وجزائر ملبار ، وهم يعتمدون على معونة سلاطين مصر الذين يجنون فوائد هائلة من المكوس التى يتقاضونها على التجارة المارة ببلادهم ، ويقوم البنادقة بتوزيع هذه التجارة فى أوروبا ولن تترك مصر هذه التجارة ولا هذا الأحتكار يفلت من يدها بسهولة وهى تملك أسطولا بحريا قويا يستطيع أن يحافظ على مالها من سلطة .

وسرعان ما أخذ البرتغاليون يتبينون عدم وجود قوة مسيحية فى الهند تكون معهم على اتحاد ضد العرب ومصر ، وكذلك تبينوا ضخامة الجهود المطلوبة لمحاولة ما كانوا يبغونه من بسط تجارتهم ، ووضحت نيات البرتغال حينما تقدم ملكها ليقبل من البابا لقب (سلطان الملاحة والفتح والتجارة فى

أتيوبيا وجزيرة العرب والفرس والهند) ، وقرن هـذا بمحاولات أسفرت عن أعمال البطولة البحرية التى خلدتها أشعار الشعراء البرتغاليين من أمثال كاميون، ووقع النصيب الأكبر من هذه الأعمال على عاتق اثنين من الأبطال هما فرنسسكو الميدا والفونسو البوكيرك ، وكان أولهما أول نائب للملك فى الهند وخول من السلطات ما يساعده على أن يعلن الحرب ويبرم المعاهدات، وإلى جهوده الأولى يرجع الفضل فى وضع الأسس الأولى لأمبراطورية البرتغال الهندية،وكان غرضه يرمى لا إلى الاستيلاء على أملاك وضمها إلى التاج البرتغالى فحسب. ولكن إلى كسب الميدان التجارى وكان يوقن أن البرتغال سوف تضعف يوم تحوز أملاكا أكثر مما تحتم عليها مصالحها التجارية،وكان العدو الحقيقى الذى تخشاه البرتغال لا العرب بسفنهم التجارية الصغيرة بل مصر ذات الأسطول القوى فى البحر الأحمر ، فعزم الميدا على تحطيم القواعد الإسلامية على السواحل الأفريقية الشرقية، وهى التى تعترض طريق الأمدادات التى تصل إليه من أوروبا، فبادر بالاستيلاء على سقطرة وارمز اللتان تحرسان مدخل البحر الأحمر وخليج عدن وسرعان ما سيطرت على الطرق التجارية التى كانت

للعرب ، ولكن الخطر تجلى حينما بادر أسطول مصر إلى مهاجمه حصن ديو ، فكان الأسراع من جانب الميدا وكذلك مدفعيته القوية سبباً فى أن يكتبا له النصر رغم مابذله مظفر خان سلطان جوزيرات من العون والمساعدة للمصريين بحكم ما كان بينه وبينهم من محالفة دفاعية شجعه على عقدها عداؤه الزامرين ، فتم للبرتغاليين تحطيم الأسطول المصرى فى المعركة البحرية المعروفة بهذا الأسم فى فبراير سنة ١٥٠٩ وكان من أثر ذلك أن استقرت السيادة البرتغالية وأصبح أسطولها قادراً على حمل الجند البرتغالى أينما أرادت، كما أصبح فى يدها احتكار تجارة البهار وأصبح التجار البنادقة لايجدون شيئا منها فى أسواق القاهرة بينما امتلأت بها أسواق لشبونة إلى حد التخمة .

وتسلم البوكيرك القياده من الميدا فى ديسمبر سنة ١٥٠٩ ، وفى مدى ستة أعوام جعل البرتغاليين سادة جميع الطرق التجارية فى الشرقين الأوسط والأقصى ، وسيطر الأسطول البرتغالى على تجارة البهار وحب الهان والفلفل فى منطقة البحر العربى وساحل ملبار .

وكان البوكيرك يرمى أيضاً إلى تأسيس أمبراطورية تعتمد على القوة البحرية كما كان يؤمل أيضاً تكوين جيش قوى له حاميات معسكرة فى الأماكن ذات المناعة الاستراتيجية فى الهند وحينئذ يستطيع أن يفتح مكة ومصر ويستعيد الأماكن المقدسة من يد (الكفار) كما كانوا يلقبون المسلمين فى ذلك الوقت .

والحقيقة أن هذا الحلم كان أكبر مما تحتمله قوة البرتغال المحدودة . ولكنه يدل على أن قوادها العظام لم ينسوا المثل العليا التى كانت تحرك الأمير هنرى ودفعت به إلى أن يبدأ سلسلة أعماله التى كان البوكيرك يعمل إذ ذاك على تتويجها ، فأخذت الحملات تخرج من جوا للاستيلاء على مخاهذا الحصن الذى يسيطر على المضايق التى تؤدى إلى الشرق الأقصى وأدى احتلالها لها فى سنة ١٥١١ إلى قبض البرتغال على تجارة البهار والحرير كما أرسلت البعثات والرسل إلى بنغال وسيام والصين لأقامة علاقات طيبة لتأمين التجارة .

وكان نشاط البرتغاليين فى مراكزهم البعيدة، كما كان تقدمهم إليها سريعا ولكنه كان من الواضح أن البوكيرك لم يكن يملك

القوة الكافية لتنفيذ خططه الواسعة وكان ذلك راجعا إلى اتساع رقعة الدولة الجديدة، الأمر الذى كان يرمى إليه الملك أيما نويل فلم تكن مانعا بأن يركز جهوده فى البحار الهندية التى كانت تبدو مجزية ولكنه نشر جنوده للقيام بحملات فاشلة فى مراكش وتشجيع الأمراء الذين يرسلون حملات الاستكشاف على نفقاتهم .

ففى أفريقيا أرسل الملك إيمانويل الحملات لتأسيس المحطات التجارية والقواعد فى أنجولا ولمطاردة الزنوج فى حوض الكونغو لحملهم على الأعتراف بسيادة البرتغال وبذلك استيقظ الحلم القديم الذى كان يداعب الأمير هنرى، فارسلت بعثة إلى بلاط القس حنا بأتيوبيا لتعرض مساعدتها ضد المسلمين(١) كما حاول فتح عدن فى سنة ١٥١٣ ولكنه لم يفلح إلا فى ايقاع الرعب فى قلوب أهلها الذين حصرت سفنهم فى داخل البحر الأحمر لاتجرؤ على الخروج إلى المحيط الهندى(٢) .

---

(١) لهذا الغرض أرسل كوفلهام الذى أشرنا اليه فى الباب السابق

(٢) Heyed Vol II P. 550

واستطاعت الإمبراطورية البرتغالية أن تحافظ على سيادتها فى المياه الهندية أمام خطر المصريين بعد هزيمتهم.

وبينما كانت هذه الحوادث تجرى فى هذا الجزء من العالم كانت حوادث أخرى تجرى فى جزء أخر من العالم. فقد استقر الاتراك العثمانيون فى آسيا الصغرى فى أواخر القرن الثانى عشر واخذوا يدفعون بجيوشهم نحو الغرب للاستيلاء على ما يسمى الان بالشرق الادنى، ونجحوا فى ذلك نجاحا منقطع النظير ولم يلبث أن تكون أسطولهم وأخذ فى مزاحمة الاسطول البندقى ليطرده من هذه الاجزاء ويستولى على مراكزه التجارية فلم تمض سنة ١٤٥٣ حتى استولى السلطان محمد الثانى على القسطنطينية وقضى على الشبح الاخير الدولة الرومانية الشرقية، وكذلك لم تمض السنة التالية حتى اجتاحت الجيوش التركية بلاد اليونان وبذلك حرمت البندقية سوقا من أهم أسواقها ومدخلا مهما لتجارتها إلى القارة ولم تعد تملك أكثر من ست محطات تجارية، ثلاث منها على الساحل الشرقى هى أرجوس ونوبليا وترسيس وثلاث على الساحل

الغربى هى كورون ومودون ونافارينو، كما أن استيلاء الاتراك بعد ذلك على جزر بحر ايجه وهى لمنوس وامبروس وسابوترا وثاسوس أغلق الطريق أمام التجارة إلى موانى البحر الاسود (١) وبذلك أخذت الحلقة تضيق حول رقبة تجار البندقية الذين لم يجدوا بدآ من أن يسلكوا الطريق السلمى بعد أن عز عليهم الطريق الاخر فعقدوا مع الاتراك العثمانيين معاهدة تعطيهم حق الاتجار فى الموانى التركية نظير جزية سنوية.

ولكن هذه المذلة لا يمكن أن تدوم ما دام الاسطول التركى ينمو وتنمو معه الرغبة فى الاستيلاء على المراكز التجارية فى شرق البحر المتوسط، كما أن ملوك أوروبا المسيحيين كانوا يطلبون فى الحاح من البندقية أن تنفض يدها من حلف الاتراك ما دام فى غير مصلحتهم. فلم تلبث الجفوة أن حلت بين تركيا والبندقية وكان من أثرها استيلاء الاتراك على ارجوس وكذلك اجريبوس فى سنة ١٤٧٠ التى كانت من أغنى محطاتها بفضل الاسطول التركى الذى بلغ

---

(١) Cambridge Modern. Hist Vol. 1 P. 79

عدد قطعه إذ ذاك ثلاثمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة .

فاضطرت البندقية إلى طلب الصلح من جديد لتخسر فيه أجريبوس وكروجا وسكودرا ولمنوس ورفعت جزيتها السنوية إلى مائة ألف ريال (١) .

وكذلك ظل الأتراك العثمانيون يطاردون البنادقة فى البحر الأبيض المتوسط ويستولون على مراكزهم التجارية واحداً إثر واحد، فيقبضون على ناصية التجارة فى هذا البحر، فاستيلاؤهم على البانيا جعلهم يشرفون على البحر الأدرياتى وبالتالى على إيطاليا فلم يلبثوا أن استولوا على أترنتو فى سنة ١٤٨٠ وساعدهم على ذلك ما كان بين ملوك شبه الجزيرة من خلاف وتنافس (٢) وباستيلائهم على لبيانتو أخرج البنادقة نهائياً من المورة ومن ركن البحر المتوسط الشمالى الشرقى ولم يبق لهم إلا سواحل مصر وأسواقها .

ولم يلبث الأتراك العثمانيون أن اتجهوا ناحية الشرق على أثر ما نشب بينهم وبين أوزون حسن صاحب بلاد التركمان من خلاف أدى إلى نشوب الحرب بينهما وانتصار الأتراك

---

(١) Heyed T. Il. p 327

(٢) Cam . Mod . Hist. vol . I. p. 81

واستيلاؤهم على حوض الدجلة والفرات ليشرفوا على الخليج الفارسى ويشهدوا صراع البرتغال فى المياه الهندية، ولم تكد تمضى السنين الأولى من القرن السادس عشر حتى كانت سلطتهم على هذه الأجزاء تامة وأسطولهم يمخر هذه الأجزاء البعيدة فى سنة ١٥٠٢ ليشهد هزيمة المصريين فى ديو سنة ١٥٠٩ .

وقد كان استيلاء السلطان سليم (١٥١٢ — ١٥٢٠) على مصر سنة ١٥١٧ بدء المرحلة النهائية فى سبيل السيادة البحرية، فقد جعلهم ذلك يستولون على البقية من الأسواق المفتوحة أمام البنادقة كما جعلهم القوة الوحيدة فى البحر المتوسط كما جعلهم يطلون على البحر الأحمر الذى أصبح يقع بين فكى الكماشة التركية .

فكان من الطبيعى أن تكون منطقة البحر الأحمر هى موضع صراع بين هاتين القوتين الناشئتين (الأتراك والبرتغال) تبغى كل منهما السيطرة والاستيلاء على المراكز التجارية فيها، ومن ثم إلى إحتكار التجارة الهندية ذات المورد الفياض، فاستيلاء الأتراك على ساحلى البحر الأحمر يجعلهم المهيمنين الوحيدين على جميع المراكز التجارية فى أغلب أجزاء طريق

التجارة كما يسهل عليهم قطع طريق التجارة على البرتغاليين وطردهم ومن ثم إلى احتكار التجارة الهندية .

فى أقل من سنة بعد فتح مصر اجتاح سنان باشا جزيرة العرب وقتل كل من بدرت منه بادرة مقاومة ، وعين حامية تركية لكل مدينة كما احتل جميع موانى البحر الأحمر الشرقية وميناء سواكن على الساحل الغربى وأقام بها حامية وجمركا وحينئذ لم يجد التجار بدا من انزال تجارتهم على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، وسار الأمر كذلك زمنا قصيرا ولكن الأتراك لم يلبثوا أن استولوا على جزيرة زيلع حيث أقاموا جمركا وأسطولا مكونا من قطع صغيرة سريعة لمهاجمة سفن التجار ، فكان وجود الأتراك فى البحر الأحمر إذن عاملا مزعجا لكل من المسلمين والأتيوبيين على السواء . وكل منهما عرف أن هؤلاء القادمين الجدد قادرون على أن ينزلوا حيث شاءوا بفضل ما يحملون من أسلحة جديدة (١) هى المدافع والبنادق التى لم يكن هؤلاء التجار قد عرفوها بعد .

ولكن سرعان ما وحدت العقيدة بين الأتراك والمسلمين

---

(١) Budge, vol II. p. 334

فعقدوا اتفاقا معهم أمدوهم بمقتضاه بالأسلحة والمحاربين بينما كانت بعثة ليما إلى الإمبراطور لبنا دنجل قد عادت أدراجها دون أن تظفر منه بأى شىء حينما خيل إليه أنه لم يعد فى حاجة إلى مساعدة أحد على أثر انتصاره على ثورة محفوظ.

وفى سنة ١٥٢٦ اتصل الأتراك العثمانيون بالإمام أحمد ابن إبراهيم وأمدوه كذلك بالأسلحة وخصوصاً المدافع والبنادق (١) ولابد أن يكون قد سبق هذا الامداد محادثات تبين لهم منها أن هذا الإمام المسلم — إذا أعلن الثورة على الإمبراطور ونجح فى تقويض هذه المملكة المسيحية وإقامة أخرى إسلامية على أنقاضها — يستطيع أن يبذل لهم العون ويوطد أقدامهم فى هذا الجزء من العالم ، وحينئذ يستطيعون أن يتغلبوا على البرتغاليين باحياء الطريق القديم بين أوروبا والهند ذلك الطريق الذى كان ولا يزال يمتاز بقصره كما أنه سوف يمتاز فى المستقبل بوقوعه بأكمله تحت سيطرتهم دون أن يخشوا بعد ذلك هجمات القرصان أو قطاع الطرق أو المكوس الباهظة .

---

(١) Budge vol II

وفى الحق أن تفوق الإمام أحمد بن إبراهيم بدأ يظهر منذ أن اتصل به العثمانيون وأمدوه بالمدافع والبنادق فاستطاع فى سنين يسيرة أن يكتسح بلاد أتيوبيا كلها بفضل هـذه المساعدة وهذه الأسلحة الجديدة التى كان الأتيوبيون يجهلونها كل الجهل وكانوا ما زالوا يحاربون على الطرق التقليدية القديمة (١) وأسلحتهم بدائية لا تعدو السيف والدرع أو القوس والرمح .

إذا عرفنا ذلك أمكننا أن نعرف سر ثورة الإمام أحمد وسر انتصاره الشامل على الإمبراطور لبنا دنجل ، وأمكننا أن نجيب على الأسئلة التى أثرناها فى أول هذا الباب ،

فبفضل تفوق الأتراك فى الأسلحة وتدخلهم أمكننا أن ندرك سر تفوق هذا الثائر ، هذا التفوق الساحق الذى لم تر أتيوبيا له سابقة فى تاريخها الطويل .

وبفضل تدخل الأتراك الأجانب للمرة الأولى فى تاريخ أتيوبيا نستطيع أن ندرك السر فى لجوء الأتيوبيين للمرة الأولى فى تاريخهم إلى طلب المعونة الأجنبية فقد أيقنوا أن

---

(١) فتوح الحبشة .

هؤلاء الأجانب المتفوقين فى الأسلحة وطرق الحرب لا يمكن أن يهزمهم إلا أجانب مثلهم متفوقون فى الأسلحة وطرق الحرب ولن يكون هؤلاء الأجانب إلا البرتغال الذين ينافسون الأتراك فى هذا الجزء من العالم والذين لا يقنعون إلا بالسيطرة التامة على هذه المنطقة .

فالإمام أحمد بن إبراهيم ظل بين سنتى (١٥٢٧ - ١٥٢٩) مخلصاً للإمبراطور وإن كانت العلاقة قد ساءت بينه وبين السلطان أبن بكر بن محمد ولكنه لما وجد هذا السند الخارجى الذى أمده بالعون الخارجى ممثلا فى الأسلحة الجديدة والوحى ممثلا فى إظهاره أمام قومه بمظهر الزعيم الدينى الراغب فى إعلان شأن الملة وهزيمة المسيحيين لم يتردد فى إعلان ثورته على الإمبراطور دون أن يحدث منه ما يبرر هـذه الثورة .

وعلى ضوء هذه المعلومات إذن يمكننا أن نقول أن هذه الحروب لم تكن صراعا بين ديانتين تبغى كل منها السيطرة على الاخرى وسحقها بل كانت صراعا بين قوتين اقتصاديتين تبغى كل منهما احتكار الطرق التجارية التى تهىء لها السيطرة الاقتصادية وأن الإمام أحمد بن إبراهيم لم يقم بدور الزعيم إلا لأن الأتراك أرادوا أن يجعلوا منه ذلك ، ليقدموه إلى المسلمين مستغلين ما كان عليه من تقوى وإيمان ليجعلوا منه رمزاً يلتف حوله مسلمو

تلك الجهات لينشروا الاضطرابات فى هذا الجزء من العالم ليهىء لهم نقطة ارتكاز يستطيعون منها إتمام خطتهم . وأن الإمام أحمد بن إبراهيم لم يكن كذلك زعيما قوميا أراد أن يستقل ببلاده عن الإمبراطورية الأتيوبية إلا لأن الأتراك أرادوا له ذلك لتنفيذ مآربهم . فلم يكن الإمام إذن إلا الوسيلة التى أرادت الإمبراطورية التركية الناشئة أن تستخدمها لبناء مجدها البحرى والتجارى .

ولم يكن الصراع بين الأتراك والبرتغاليين على هـذا الجزء من العالم، الأول من نوعه فى التاريخ فقد سبق أن اقتتل فى سبيل السيطرة التجارية على هـذا الجزء دولتا الفرس والروم ، ودارت بينهما حروب كثيرة قبل ظهور الإسلام بقليل ولم تكن حملة أتيوبيا على اليمن ثم على الحجاز عام الفيل إلا مظهراً من مظاهر هـذا النزاع حتى إذا حلت الهزيمة بأتيوبيا التى كانت الأداة التى استعملتها الدولة الرومانية كان الفرس هم الوارثين لهذه المنطقة وتدفق التجار الفرس فى أثر الأتيوبيين للاستفادة من هذا النصر .

ولكن معونة البرتغاليين ـ كما رأينا ـ مكنت الإمبراطور جلاوديوس من تحطيم هذا الثائر وقتله وتشتيت أعوانه وليس

معنى ذلك أن الأتراك قد انهزموا نهائياً وأن البرتغاليين قد انتصروا وخلصت لهم أتيوبيا، بل أن الحوادث قد أرغمت هؤلاء أيضاً على الخروج من البلاد وخلصت البلاد لأهلها من جديد وبحث كل من البرتغاليين والأتراك عن ميدان جديد .

فالعلاقات بين المسلمين والمسيحيين فى أتيوبيا طوال هذه القرون الطويلة التى نسميها بالقرون الوسطى، والتى استمرت منذ ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى حتى أواسط القرن السادس عشر ظلت يسودها الصفاء ، ويخضع فيها المسلمون لسلاطينهم المسلمين الذين يخضعون بدورهم للإمبراطور ويدفعون كما يدفع سلاطينهم ما عليهم من ضرائب فى مواعيدها وفقا لتقاليدهم كما يدفع غيرهم من أهل البلاد ، ويتمتعون بكل أنواع الحريات خصوصاً حرية العقيدة والعبادة كما يتمتع غيرهم، ويكونون فى بعض الأحايين موضع ثقة الإمبراطور والحكام كغيرهم ، ويشتغلون فيما يشتغل به أهل البلاد من صنائع ومهن وأن اختلفوا عنهم فى اتجاههم ناحية التجارة التى كانت سبباً فى ثراء عدد كبير منهم، ولم تتحول هذه العلاقات عن سيرها الطبيعى إلا عندما أرادت دولة أجنبية أن تحولها

لتصل بها إلى نتيجة خاصة لاتفيد إلا مصالحا الخاصة .
فاستغلت عاطفة الدين فى المسلمين واتجهت بها ناحية لم يألفها الاتيوبيون فى تاريخهم الطويل ولو لم يوجد هذا العامل الخارجى لما اصطبغت هذه العلاقة بالدم ، ولما سارت فى هذا الطريق الذى لم يكن هناك ما يبرره ، فحالة مسلمى اتيوبيا تحت الحكم المسيحى لم تكن تبعث على السخط فلم يكن هناك اضطهاد دينى يقع عليهم ، أو على فئة منهم كحرمان من إقامة شعائرهم الدينية أو حرمانهم من الحج أو أرغامهم على لبس ملابس خاصة فى حضرة المسيحيين أو غير ذلك من الإضطهادات التى تتفنن الحكومات فى بعض الأحايين فى أيقاعها بمخالفيها فى العقيدة، فإذا كان ثمة حالة واحدة من هذه الحالات لماتردد المؤرخ فى ابرازها واضحا بل فى تكبيرها والتعظيم من شأنها بل كانت حالتهم تبعث على الرضى بل كثير من الرضى فكان منهم سلاطين يتولون الولايات الإسلامية ويتمتعون بكثير من الحرية فى حكم هذه الولايات كغيرهم من الأمراء والسلاطين المسيحيين وغير المسيحيين، فكانت لهم الحرية فى تكوين جيوشهم الخاصة فى حدود الطاعة للامبراطور .

وكانت لهم حرية العمل بدليل اشتغال كثير منهم بالتجارة

وتملكهم لعدد كبير من السفن وقيامهم وحدهم بنقل التجارة الهندية فى البحر الأحمر [١] كما كانوا يتمتعون بحرية العبادة بدليل ماكان ببلادهم من المساجد التى بنوها دون تدخل من السلطات الحاكمة [٢] وكان منهم من يتولى الوظائف الكبيرة حتى وصل بعضهم إلى أن يكون نائب الملك فى حكم البلاد أثناء غيابه فى مهمة من المهمات [٣] كما وصل أخرون إلى منصب حكام المقاطعات كما كان الجرد عثمان أو الجرد ابون الذى سيره الامبراطور لسحق ثورة محمد بن أبى بكر [٤] وكان الأباطرة يثقون بكثير منهم إلى حد أنهم يولونهم مهمات لم يكن يصح مطلقاً أن يتولوها، كرئاسة وفد مسيحى إلى بطريرك مسيحى لطلب مطران مسيحى كما حدث أيام يحبياصيون حينما أرسل عبد الرحمن بن يوسف على رأس وفد إلى البطريرك يؤنس الثامن لطلب المطران [٥] كما كانت لهم المدارس الدينية التى

---

(١) Universal Hist. Vol. vl. p. 353g
(٢) Kamerer T. ll, p, 75
(٣) فتوح الحبشة ص ٤٣
(٤) Quatremèr T. ll. P, 267
(٥) Bulletin Copte. vol IV. P. 27

يتعلمون فيها أصول دينهم فقد ذكر صاحب الإلمام عن حق الدين بن أحمد سيف أرعد أنه اشتغل بطالب العلم(١) .

وإذا بحثنا عن العوامل التى أدت إلى ثورة الامام أحمد بن إبراهيم لوجدنا أنها تبعث إلى العجب أكثر مما تدعو إلى شىء أخر ، فقد كان هذا الامام فى شبابه مخلصا للامبراطور فى خدمة الجرد أبون الذى كان مخلصا بدوره لسيده وبذل حياته فى سبيله حينما سيره لسحق ثورة محمد بن أبى بكر ، ونجح فى سحقها وفى حكم البلاد سبع سنين استراح فيها الناس حينما قطع دابر اللصوص ومنع المنكرات(٢) ومات الجرد أبون والامام مخلص للامبراطور حتى سيره لسحق ثورة أبى بكر بن محمد ، ولكن بين عشية وضحاها انقلب الثائر مخلصا ولا حد لاخلاصه وانقلب المخلص ثائراً ولا حد لثورته دون أن يكون لهذه الثورة من سبب ظاهر يدعو إلى كل ما حدث من سفك دماء وتخريب وتدمير .

وإذا كان من يعتقد أنها ثورة اجتماعية تمثل قيام فريق

(١) الالمام ص ٩.

(٢) فتوح الحبشة ص ٦ .

من المسلمين لمقاومة ما وصل إليه الحال من سوء بسبب انتشار البدع والضلالات وقطع الطريق ، وهى الحالة التى عمل الجرد أبون على إصلاحها واعادها من بعده أبو بكر بن محمد ، فليس من اليسير علينا أن نعتقد أن المسلمين جميعا كانوا اخياراً محضا حتى أخذوا كلهم جانب الأمام أحمد أو أن الخيرين جميعا لم يكونوا إلا مسلمين حتى جمعتهم هذه الثورة وأن التقوى والصلاح وغيرها من صفات الخير قد انعدمت فى جانب المسيحيين فى هذا العصر حتى لم ينضم أحد منهم إلى جانب هذا الخارج .

خاتمـــه

إذا كانت هـذه الحروب التى استمرت اثنى عشر عاماً قد أضرت بأتيوبيا ضرراً بليغاً كان أقله انقسام أهل البلاد إلى معسكرين ظاهرين ، معسكر المسلمين ومعسكر المسيحيين. يحارب كل منهما الآخر ويعمل على إذلاله وافنائه أن أمكن، وتخريب البلاد تخريبا لم تشهده فى كل عصورها السابقة مما أدى إلى تعطيل الزراعة وانتشار الأمراض وتفشى الأوبئة بين من بقى من الناس إلا أنها قسمت تاريخ البلاد إلى قسمين يكاد كل منهما يختلف عن الآخر اختلافا تاما . فمنذ أن هزمت الجيوش الاسلامية كقوة متكتلة وهرب من أستطاع الهرب من بقاياها عرف الامبراطور أنه لا بد أن يفرض سلطته على كل أجزاء الهضبة ويرغم شعوبها المختلفة على الخضوع له ويسلب كلا منها ما كانت تتمتع به من استقلال محلى . فلم يجلب عليه كوارث الحرب الأهلية التى قاساها معه أهل البلاد غير الاستقلال الذى كان يتمتع بقسط كبير منه رعاياه الذين يسكنون الولايات الشرقية ولو أن الامبراطور جلاوديوس قد فقد حياته فى سبيل

توطيد الملكية إلا أنه قضى ستة عشر عاما يعمل فى سبيل هذا التوطيد .

فى السنة الرابعة من حكم هذا الامبراطور هاجم قبائل الجلا التى كانت على قسط كبير من البداوة وكان قد استقر بعضهم قرب النيـــل الأزرق من جهتى الشرق والجنوب فتغلب عليهم وحمل معه أولادهم وبناتهم واتخذهم رقيقا له ، وعين حاكما على بلادهم وجعل رؤسائهم يدفعون الجزية له وظل طول حكمه يراقبهم ويعمل على شل شوكتهم وإخضاعهم له خضوعا مباشراً ، كما أخذ فى مراقبة فلول المسلمين الذين خيل إليهم أن انشغال الامبراطور فى حروب الجلا قد يتيح لهم فرصة التجمع من جديد وإحداث الاضطراب فى البـلاد واستعادة ما كان لهم من قوة تحت قيادة القائد نور ابن أخت الإمام خصوصا وقد ظهر الأتراك صراحة على مسرح الحوادث وانزلوا جيوشهم على الساحل الشرقى للبلاد واحتلوا مصوع واركيكو وديباروا واخذوا فى التوغل إلى الداخل حتى وصلوا إلى تكازى ولكن الإمبراطـور بالرغم من مشاغله العديدة استطاع أن يهاجم المسلمين أكثرة من مرة ويهدم قلاعهم ويجردهم من كل قوة وداوم خلفاء جلاوديوس

من بعده على أن ينهجوا نهجه ويكيلوا الضربات القاسية فقد انتصر سرصا دنجل (١٥٦٣ - ١٥٩٥) فى سنة ١٥٧٠ على أهل هدية حتى قدموا له ولاءه كما أخضع قبائل كافا التى استقرت فى غربى وجنوبى شوا لسلطة التاج الاثيوبى ومعنى هذا كله أن أباطرة أثيوبيا بعد سنة ١٥٤٠ عولوا على توطيد سلطة الملكية المطلقة وإخضاع البلاد كلها لسلطانهم المباشر ولو أن بعضهم فقد حياته فى هذا السبيل، إلا أن ذلك لم يثن خلفائه عن أن يسيروا فى نفس الطريق ليصلوا إلى نهايته ، وكانت عدة هذا الأمر جيوش حديثه نظمتها الأيدى الأجنبية وبدلت أسلحتها من السيف والرمح إلى البنادق والمدافع حتى إن الامبراطور سرصا دنجل أرسل إلى فيليب الثانى يطلب منه إرسال صناع إلى أتيوبيا لتعليم الاثيوبيين صناعة البارود .

فنى الوقت الذى كان فيه شارل الخامس وفيليب الثانى من بعده فى أوروبا جادين فى توحيد مملكتهما وإخضاع رعاياهما لسلطه التاج بمساعدة جيوش مدربة تحمل أسلحة حديثة كان مثل ذلك تماما يجرى فى اتيوبيا .

ونلاحظ أن الجيوش الاتيوبية لم تحاول فى أية مرة من مرات هجومها أن تنحـدر من ناحية الشمال أو الجنوب

الغرب إلى الأرض السهلة التى تحيط بالهضبه الحبشية بل قصرت محاولات الاخضاع على من كان يسكن هذه الهضبة فقط ، ولو أنها من ناحية الشرق انحـدرت إلى الشريط الصحراوى وتجاوزته إلى ساحل البحر ومعنى ذلك أن الامبراطور كان يشعر أن بلاده هى هذه الكتلة الجبلية التى تنتهى بسهول السودان من الشمال والغرب ولكنها تمتد من ناحية الشرق إلى ساحل البحر وإذا ترجمنا ذلك إلى اللغة الحديثة أمكننا أن نقول أن الحدود السياسية لأتيوبيا أخذت طريقها إلى الظهور فى نفس الوقت الذى أخذت فيه القوميات الأوروبية طريقها إلى الظهور أيضا . فحالة القبائل السودانية التى كانت تسكن أعالى النيل الأبيض وكذلك القبائل الإفريقية التى كانت تسكن الإقليم الفاصل بين هضبتى أثيوبيا والبحيرات كانت ولاشك تغرى امبراطور اتيوبيا بإخضاعها لسلطانه ، فتفوق أسلحة الجيوش الاتيوبية الحديثة على أسلحة هـذه القبائل لا يحتاج إلى برهان . إلا أن الامبراطور لم يشعر مطلقا أن هذه الأجزاء تصلح أن تكون جزءاً من مملكته كما عرف أهل البلاد الواطئة فى ذلك الوقت أن حدود بلادهم تقف عند الجزء السهل الذى يقع فى الركن الشمالى الغربى من

أوروبا ، وكما عرف أهل أسبانيا أن حدود بلادهم الطبيعية تقف عند جبال البرانس ،عرف امبراطور اتيوبيا أن حدود بلاده الطبيعية تقف من ناحيتى الشمال والغرب عند حدود الهضبة ،ولكنها تمتد من ناحية الشرق حتى تشمل الشريط الصحراوى وتصل إلى ساحل البحر الأحمر .

وشىء ميز الحروب التى حدثت بعد ثورة الإمام أحمد عما كان قبلها، وهو اختفاء العامل الدينى منها فلم يعد الامبراطور يتعقب المسلمين وحدهم ويعمل على إخماد ثوراتهم وسحقها بل صار يتعقب المسلمين وغير المسلمين الذين يضرون بوحدة دولته فلم يتردد فى توجيه قواته نحو القائد نور المسلم الذى قاد المسلمين فى شرق البلاد - كما لم يتردد فى إخضاع الجلا القاطنين فى الشرق والجنوب كما لم يتوان عن اخضاع القبائل الوثنيه التى تقطن اقليم كافا ولم يتأخر أيضا عن توجيه قواته لإخماد ثورة البهر نجش (بفتح النون والجيم) اسحاق عندما ساعده الكاثوليك(١) أبان حكم الملك ميناس (١٥٥٩ — ١٥٦٣) حتى هزمه واضطره إلى الالتجاء إلى زيمور باشا

Budge vol II. p. 357 (١)

حاكم مصوع التركى . فالطابع الذى طبع الحروب التى شنها الأباطرة بعد جلاوديوس ليس طابع الدين الذى ظهر ظهورا واضحا جدا أثناء حروب الإمام أحمد ، بل هو طابع الوحدة القومية التى توحى بهدم الثائر مهما كانت ديانته ومهما كانت قوته ومهما كان اتجاهه،وهذا الطابع الدينى الذى اختفى بعد ثورة الإمام أحمد لم يعد يظهر بعد ذلك واختفى نهائيا من تاريخ اتيوبيا فكأن ظهوره لم يكن إلا لفترة يسيرة حينما أظهرته القوة الخارجية وعملت على استغلاله لمصلحتها .

ولقد كان البرتغاليون عاملا مهما فى هزيمه الإمام أحمد فقد كانت جيوشه منتصرة على طول الخط حتى ظهر الجند البرتغالى والسلاح البرتغالى فى الميدان فكان المرجح لكفة المسيحيين بل العامل الأساسى فى هزيمة الثورة وسحقها ، فمن الطبيعى بعد ذلك أن يعترف الامبراطور بهذا الجميل ويرده إليهم على الصورة التى يرونها ،فكانت هذه الصورة هى تحول اتيوبيا بقضها وقضيضها إلى المذهب الكاثوليكى فعندما عاد الامبرطور جلاوديوس إلى قصره سنة ١٥٥٥ بعد انتصاره على نور ، وجد بعثة من ملك البرتغال قد وصلت أثناء غيابه برئاسة رودروجز تحمل هدايا من الملك ، وكان ضمن أفراد

البعثة مبشران من الاباء اليسوعيين يحملان خطابا من حاكم الهند وينحصر طلبهما فى أن ينضم جلاوديوس إلى الكنيسة الغربية بعدأن يقطع علاقته بالكنيسة المصرية التى لاتستطيع حمايته ولا حماية نفسها من العنت الذى تلاقيه فى مصر .

ولكن تحول شعب باسره فى لحظة واحدة من مذهب إلى آخر أمر لايسلم به عقل ، فاراد الكاثوليك أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم، فبدأوا بنشر عدة كتب باللغة الامهرية شرحوا فيها مذهبهم وقارنوه بالمذهب الارثوذكسى فبدأوا بالأنجيل وترجموه إلى هذه اللغة الأمهرية فشعر الاتيوبيون وعلى رأسهم كهنتهم،أنهم أمام هجوم منظم يرمى إلى النيل من كنيستهم وتحقيرها ، فلم يكن بد من مقابلة هذا الهجوم بمثله فولوا وجوههم شطر الكنيسة المصرية لتمدها بالكتب التى يستطيعون ترجمتها إلى اللغة الأمهرية لمقابلة هذا السيل الذى لاينقطع من الكتب الكاثوليكية المترجمة فكانت النتيجة أن شهدت اتيوبيا حركة ادبية لم تشهدها من قبل (١) فبدأت بالأنجيل وأعادت ترجمته إلى اللغة الأمهرية ترجمة صحيحة بعد أن كانت ترجمته الأولى التى حدثت أيام الإمبراطور

(١) Murad Kamel, Bulletin copte vol VIII, p.65

زرء يعقوب مليئة بالأخطاء كما أخذوا فى ترجمة كتب أخرى (١) .

ولم يكن الامبراطور جلاوديوس أقل من شعبه غيرة على مذهبه فقد كان متفقها فى الدين عالما باسراره فلم يتردد فى أن يطلب المطران الكاثوليكى إلى مقابلته ليناقشه فى الدين وليظهر زيف معتقدات هذا الضيف وصدق مذهبه هو مستندا

(١) مثل كتاب الدسقولية المسمى كتاب التعاليم المقدسة وكذلك قصة آدم وحواء ،وفى سبيل الدفاع عن العقيدة اليعقوبية ترجم من العربية والقبطية فى أوائل القرن السابع عشر تفسير الالوهية وهو يتعلق بطبيعة المسيح وكتاب إيمان الآباء (هيمانوت اباو) وهو يتعلق بمسائل مختلفة بشأن الطبيعة الواحدة كما يتضمن حججا ضد الكفر والهرطقة . واقد شعر الاتيوبيون الذين كانوا يعيشون فى الاديرة المصرية بما كان من واجب عليهم نحو بلادهم خصوصاوهم أقرب من غيرهم من المورد الذى يستقون منه عقيدتهم فترجموا كتاب الغفران (مصهف مسيحا) وكتاب المصباح(مصحف قنديل) وهى كتب تتعلق بالعقيدة، وفى أيام سرصا دنجل ترجم أمباكم اليمنى الأصل الرواية الدينية بريم ويوسف وقد لقى هذا الكتاب رواجا كبيرا من الشرق والغرب المسيحى . وفى سنة ١٢٨٩ ترجم من العربية جامع القوانين بواسطة رهبان من ديردبرا ليبانوس وهو يتناول الحياة الكنسية والمدنية وشعروا أنهم فى حاجة إلى ماينظم حياتهم الدينية فترجموا قوانين الملوك (فتح نحست) وهو مؤسس على قوانين ابن العسال الذى جمع طائفة من القانون الرومانى القديم وبعض قواعد من الكنيسة والانجيل وقد قدره الاثيوبيون تقديرا كبيرا حتى أصبح إلى وقت قريب بل إلى وقتنا أساسا للقانون الدينى والمدنى والجنائى فى اتيوبيا وفى أيام لبنا دنجل ترجم من العربية أيضا (تاريخ العالم) الذى كتبه جرجس المكين ابن العميد الذى يسميه الاحباش ولدعميد ،

فى أقواله إلى الأنجيل وإلى كتابات الاولين كما لم يتردد فى أن ينزل إلى ميدان التأليف دفاعا عن عقيدته فوضع لذلك كتابه المشهور (الاعتراف بالإيمان).

ولم يكن الكاثوليك ينتظرون كل هذا الجدل وكل هذا العناء فى تحويل هذا الشعب عن عقيدته، ولذا لجأوا إلى طريق جديد وهو طريق القوة فلم يترددوا فى تشجيع الثوار ومدهم بالمؤونة والسلاح إذا ماأطمأنوا إلى أن هؤلاء الثوار سوف يكونون عونالهم على تنفيذ مآربهم وكذلك لم يترددوا عن أن يمدوا بأيديهم إلى المسلمين والاتراك ليساعدوهم على احتلال أجزاء من البلاد مع أنهم ماأتوا إليها إلا للقضاء عليهم ومساعدة اتيوبيا فى حروبها ضدهم ويظهر ان مساعدة هؤلاء الكاثوليك للثوار كانت واضحة إلى حد أن دعا الامبراطور ميناس المطران الكاثوليكى إلى حضرته وأمره فى لهجة قاسية أن يوقف نشاطه (١) وأن يترك البلاد وذلك بالرغم مما كان يسبغه عليه قبل ذلك من حماية ورعاية مما كان موضع انتقاد رجال الدين الوطنيين .

---

(١) Budge, Vol. II, P 328'

ولقد أدى موقف الكاثوليك العدائى الصريح للأتيوبيين عامة ولرجال الدين منهم خاصة إلى تذمر الأتيوبيين من هؤلاء الأجانب وخصوصاً المبشرين تذمراً. ظهر فى كل نواحى حياتهم فنظروا إليهم وإلى البابا نظرة ملؤها الحقد الذى لا يخلو من الخوف وأصبح نعت الأتيوبى بأنه كاثوليكى مسبة يلقونها على من يكرهونهم من الأتيوبيين أو الأجانب على السواء ولقد تمكن هذا الشعور منهم، وتوارثوه جيلا بعد جيل حتى إذا ظهر الأجانب فى أتيوبيا على شكل واسع أيام الإمبراطور منليك الثانى فى أواخر القرن التاسع عشر قابلوهم بكل حذر وخوف ولم تنجح محاولات الكثيرين لنزع هذا الشعور منهم .

ولقد أدى وجود الجند البرتغالى فى أتيوبيا واشتراكه فى الحروب إلى استقرار عدد منهم فى البلاد بعد إنتهاء الحرب الأهلية (١) وهو نوع من الأجانب لم تألفه أتيوبيا فى سابق عصورها. فالأجانب الذين عرفتهم بعد ذلك لم يكونوا بأفضل من قطاع طرق وطريدى القانون من جميع الجنسيات قادتهم أقدامهم إلى هذه البلاد المجهولة وانضم عدد منهم إلى جنود

---

(١) Kamerér T.II.p 15

الإمبراطور ليرضى عن إقامتهم ببلاده (١) ولما كان هؤلاء الجند رجالا فقط فقد اضطر المقيمون منهم إلى التزوج من أتيوبيات ولابد أن حياتهم وطريقة معيشتهم كانت تختلف إختلافاً كليا عن طريقة معيشة الأتيوبيين ولابد أن تكون نتيجة هذا الاختلاط ظهور جيل جديد من الأتيوبيين ولو أنه كان قليل العدد فإنه يحمل أفكاراً هى نتيجة اختلاط الأجانب بالوطنيين وبذلك شهد هذا العصر امتزاجا بين الأفكار الأتيوبية وهذه الأفكار الجديدة التى حملها هذا العقل الأوروبى الطارىء .

ولكننا لا نستطيع أن ننسى أن هؤلاء الأجانب كانوا من الكاثوليك وأنهم وإن لم يرغموا زوجاتهم على اعتناق مذهبهم إلا أن أبنائهم لابد أن يكونوا قد اعتنقوا هذا المذهب ولابدأن يكون عددهم وعدد نسلهم قد زاد زيادة كبيرة، مما اضطر الإمبراطور جلاوديوس إلى أن يصدر قانوناً حرم فيه على البرتغاليين الزواج من الأتيوبيات أو الظهور فى الكنائس (٢) وعندما حرض البطريرك الكاثوليكى رعاياه

David Mathew. p. 37. (١)

Budge vol. II. p 338 (٢)

من البرتغال على عصيان هذا الأمر لم يتردد الإمبراطور عن أن يسمعه كلاما جارحا ويهجم عليه يحاول قتله بيده لولا أن منع من ذلك .

وكان من أثر هؤلاء الأجانب أيضاً — خصوصاً وأن أتيوبيا عرفت منهم أول ما عرفت هؤلاء الجند الحربيين — أن ظهرت القامة إلى عالم الوجود فى البلاد وكلنا يعرف إنها البناء الحصين الذى يدفع المغير والذى يلجأ إليه النساء والأطفال والشيوخ إذا ما جد الجد ومعنى ذلك جنوح الأتيوبيين إلى حياة الاستقرار أكثر من ذى قبل (١) فبظهور القلعة ثم القصر ارتبط الأتيوبيون بهما كما ارتبطوا بالأرض وأخذوا يزيدون من إتجاههم إلى ناحية الزراعة فى حياتهم بدل ناحية الرعى والتنقل ولست فى حاجة إلى أن أذكر أن حياة الاستقرار هذه قد ساعدتهم كما ساعدت غيرهم من قبل على التقدم بخطوات واسعة نحو الحضارة ، فمن هذا المقر الدائم أخذت تخرج الأفكار التى ترمى إلى تقدم أتيوبيا خلال القرون التالية كما كان عاملا مهما فى ظهور فكرة التوجيه السياسى الأمر الذى كان مختفياً فى طيات حياة التنقل .

David Mathew. p. 13 (١)

فإذا كانت هذه الحروب الأهلية قد أدت بهم إلى حياة الاستقرار ،كما أدت أيضاً إلى ظهور فكرة الدولة ذات السيادة، وذات الحدود السياسية الظاهرة ،وإلى ظهور القومية الأثيوبية بشكل أكثر وضوحا عن ذى قبل . وإذا كان من نتائج هذه الحروب اتصال الأجانب بأثيوبيا ثم استقرارهم فيها وإندماجهم بسكانها وتأثيرهم عليها تأثيراً ظاهراً فى حياتهم الإجتماعية والسياسية . وإذا كانت هذه الحروب أيضاً قد أدت – ولو عن طريق غير مباشر – إلى ظهور الحركة الأدبية التى كان من أثرها إتجاههم إلى ترجمة الكتب الأجنبية ووضع كتب أخرى بلغتهم القومية . وإذا كان من أثرها أيضاً ظهور الملكية القومية التى تفرض سلطتها عن طريق القوة على مختلف أجزاء الدولة والتى تقود شعبها نحو طريق مرسوم .إذا عرفنا ذلك كله أمكننا أن نقول أن هذه الحروب – ولو أنها أضرت بالبلاد من نواحى كثيرة – إلا أنها قادت أثيوبيا نحو العصر الحديث من تاريخها .

ثبت بمصادر البحث

ابن الاثير	أبو الحسن على (٦٣٠ هـ)	الكامل فى التاريخ
الارمنى	أبو صالح	الاديرة والكنائس فى مصر والبلاد المجاورة . مصر ١٨٩٤
ارنولد	السير توماس	الدعوة إلى الإسلام (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم) مصر ١٩٣٧ .
حسن	حسن ابراهيم الدكتور	تاريخ الإسلام السياسى مصر ١٩٣٢.
الحفنى	الشيخ القنائى الازهرى	الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان مصر ١٣٢١ هـ
شهاب الدين احمد بن عبد القادر		فتوح الحبشة . باريس ١٨٨٥ .
		تحفة الزمان . كامبردج ١٨٩٥ .
الشوكانى		البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع مصر ١٤٣٨ هـ

الطبرى	أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ)	تاريخ الأمم والملوك . مصر ١٩٣٩ .
طه حسين		الفتنة الكبرى . مصر ١٩٤٧ .
عبد المجيد عابدين		بين الحبشة والعرب . مصر ١٩٤٧
القلقشندى	أبو العباس احمد (٣٢١هـ)	صبح الاعشى . مصر ١٩٣٢
بو المحاسن	ابن تغرى بردى الاتابكى	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة مصر ١٩٣٠
المفضل	أبو الفضائل	تاريخ سلاطين المماليك. باريس ١٩٢٠
المقريزى	تقى الدين احمد بن على (٨٤٥هـ)	الالمام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الإسلام مصر ١٨٩٥
		السلوك لمعرفة دول الملوك
منسى فهمى	الشماس	تاريخ الكنيسة القبطية مصر ١٩٣٤ .

ابن هشام	أبو محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب المغافرى (٢١٨هـ)	السيرة النبوية
محمد حسين هيكل	الدكتور	حياة محمد
ياقوت	شهاب الدين بن عبد الله الدومى (٦٣٠هـ)	معجم البلدان . مصر ١٩٠٦
		مخطوط
الشافعى	الشيخ على بن ابراهيم	أعلام الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش
العمرى	ابن فضل الله (١٣٤٩هـ)	مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار مخطوط مصور
الخزرجى		العقود اللؤلؤيه (مخطوط)

Arnold, Sir Thomas: The Preaching of Islam (London 1913).
Budge, Sir William: History of Ethiopia and Nubia (London 1928).
Perhamm, Mergery: The Government of Ethiopia (London 1948).
Mathew, David: Ethiopia (London 1947).
Muir, Sir William: The Life of Mohamed (Edin. 1912).
Combridge Medieval History.
Cambridge Modern History.
Encyclopedia of Islam.
Encyclopedia Britannica.
Harmsworth Universal History Vol. VI.
Coulbeaux: Histoire Politique et Religieux de l'Abyssinie (Paris 1927).
Heyed: Histoire du Commerce du Levant (Leipzig 1886).
Kamerer: Abyssinie et la Mer Rouge (Le Caire 1929).
Quatremere: Memoire Geographique et Historique sur L'Egypte et sur Quelques countrees voisines (Paris 1811).
Bulletin de la Société d'Archéologie Copte Toms IV, VIII.
Rossini Carlo Conti: Storia d'Etiopia.
Lcua dei Sabelli: Storia d'Abissinia (Rome IXV).
Lyn Thorndike, Medieval Europe. London.
Cerulli: Rassegna di Studi Etiopici Vol. I.
Costanhozo: Ya Burtugalutch Djagennant, Amharic Translation by Dr. Mourad Kamel (Addis Abeba 1944).

ملحق رقم ١

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك اتيوبيا عن ابن الاثير .

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى الاصحم ملك اتيوبيا . سلم لكم فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس والسلام المؤمن المهيمن . واشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . وإنى ادعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاه على طاعته وإن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفر ونفرا معه من المسلمين فإذا جاءك فاقرهم ودع التجبر فانى ادعوك وجنودك إلى الله وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى .

محتويات الكتاب

دار الحمامى للطباعة